

الجزء السادس

الخطوط ومرافقها

بسم الله والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
اللهم جنبنا فضول القول، بما عندنا، ولا تجعلنا من
المتكلفين. قد قلنا في الخطوط ومرافقها، وفي
عموم منافعها، وكيف كانت الحاجة إلى استخراجها،
وكيف اختلفت صورها على قدر اختلاف طبائع أهلها،
وكيف كانت ضرورتهم إلى وضعها، وكيف كانت تكون
الهلة عند فقدها.

وقلنا في العقد ولم تكلفوه، وفي الإشارة ولم
اجتلبوها، ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان، حتى
سموه بالبيان. ولم قالوا: القلم أحد اللسانين،
والعين أنم من اللسان.

وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه، وشدة
الحاجة إليه، وكيف صار أعم نفعاً، ولجميع هذه

الأشكال أصلاً، وصار هو المشتق منه، والمحمول عليه، وكيف جعلنا الأجسام الصامتة نطقاً والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بياناً.

وذكرنا جملة القول في الكلب والذئب في الجزأين الأولين، وذكرنا جملة القول في الحمام، وفي الذبآن، و في الغربان، وفي الخنافس، وفي الجعلان، إلا ما بقي من فضل القول فيهما، فإننا قد أخرجنا ذلك، لدخوله في باب الحشرات، وصواب موقعهما في باب القول في الهمج - في الجزء الثالث.

وإذا سمعت ما أودعها الله تعالى من عظيم الصنعة، وما فطرها الله تعالى عليه من غريب المعرفة، وما أجرى بأسبابها من المنافع الكثيرة، والمحن العظيمة، وما جعل فيها من الداء والدواء - أجللتها أن تسميها همجاً، وأكبرت الصنف الآخر أن تسميه حشرة، وعلمت أن أقدار الحيوان ليست على قدر الاستحسان، ولا على أقدار الأثمان.

وذكرنا جملة القول في الذرة والنملة، وفي القرد

والخنزير، وفي الحيات والنعام، وبعض القول في
النار في الجزء الرابع.

والنار - حفظك الله - وإن لم تكن من الحيوان، فقد
كان جرى من السبب المتصل بذكرها، ومن القول
المضمّر بما فيها، ما أوجب ذكرها والإخبار عن جملة
القول فيها.

وقد ذكرنا بقية القول في النار، ثم جملة القول في
العصافير، ثم جملة القول في الجرذان والسنانير
والعقارب، ولجمع هذه الأجناس في باب واحد سبب
سيعرفه من قرأه، ويتبينه من رآه.

ثم القول في القمل والبراغيث والبعوض، ثم القول
في العنكبوت والنحل، ثم القول في الخباري. ثم
القول في الضأن والمعز، ثم القول في الضفادع
والجراد، ثم القول في القطا. الإطناب والإيجاز

وقد بقيت - أبقاك الله تعالى - أبوابٌ توجب الإطالة، وتُحجج
إلى الإطناب، وليس بإطالة ما لم يُجاوز مقدار الحاجة، ووقف

عند منتهى البغية.

وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة، البائنة بصورها وجهاتها، تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهات الملتبسة.

ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعاني، بكلام وجيز يُعني عن التفسير باللسان، والإشارة باليد والرأس - لما قدروا عليه، وقد قال الأول: إذا لم يكن ما تُريد فأرد ما يكون، وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها، ويسوم النفوس ما ليس في جبلتها، ولذلك صار يحتاج صاحب كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق، وإن كان المتكلم رفيق اللسان، حسن البيان، إلا أنني لا أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحسن، وبالنوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أميل، وبها أصب - أنها خليقة لاستثقال الكثير، وإن استحقت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع، وذلك الكثير أَرَدَّ.

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

وسنبداً بعون الله تعالى وتأييده، بالقول في الحشرات والهمج،
وصغار السباع، والمجهولات الخاملة الذكور من البهائم، ونجعل
ذلك كله باباً واحداً، وننكّل، بعد صنّع الله تعالى، على أنّ ذلك
الباب إذ كان أبواباً كثيرة، وأسماء مختلفة - أنّ القارئ لها لا
يملُّ باباً حتّى يخرجها الثاني إلى خلافه، وكذلك يكون مقامُ
الثالث من الرابع، والرابع من الخامس، والخامس من السادس،

مقياس قدر الحيوان

وليس الذي يُعتمد عليه من شأن الحيوان عِظم الجثة، ولا كثرة
العدد، ولا ثقل الوزن! والغاية التي يُجرى إليها، والغرض الذي
نرمي إليه غير ذلك، لأن خلق البعوضة وما فيها من عجيب
التركيب، ومن غريب العمل، كخلق الدّرة وما فيها من عجيب
التركيب، ومن الأحاسيس الصّادقة، والتدابير الحسنة، ومن
الروية والنظر في العاقبة، والاختيار لكلّ ما فيه صلاح المعيشة،
ومع ما فيها من البرهانات النيرة، والحجج الظاهرة.
وكذلك خلق السُّرفة وعجيب تركيبها، وصنعة كَفِّها، ونظرها في

عواقب أمرها.

وكذا خلق النَّحْلَةَ مع ما فيها من غريب الحكم، وعجيب التدبير،
ومن التَّقَدُّم فيما يُعِيشها، والادخار لِيَوْم العَجْز عن كسبها،
وشمَّها ما لا يُشَمُّ، ورؤيتها لما لا يُرى، وحُسن هدايتها، والتدبير
في التأمير عليها، وطاعة ساداتها، وتقسيط أجناس الأعمال
بينها، على أقدار معارفها وقُوَّة أبدانها.

فهذه النَّحْلَةُ، وإن كانت ذبابة، فانظر قبل كل شيء في ضروب
انتفاع ضروب الناس فيها، فإنَّك تجدُّها أكبر من الجبل الشامخ،
والفضاء الواسع.

وكلُّ شيء وإن كان فيه من العجب العاجب، ومن البرهان
النَّاصع، ما يوسِّع فكر العاقل، ويملأ صدر المفكِّر، فإنَّ بعض
الأمور أكثرُ أعجوبة، وأظهر علامة، وكما تختلف بُرْهاناتها في
الغموض والظُّهور، فكذلك تختلف في طبقات الكثرة، وإن
شملتها الكثرة، ووقع عليها اسم البرهان.

رُجِعْ إِلَى سَائِرِ أَبْوَابِ الْكِتَابِ

ولعلَّ هذا الجزء الذي نبتدئُ فيه بذكر ما في الحشرات والهمج،
أنَّ يفضل من ورقه شيءٌ، فنرفعه ونتمِّه بجمله القول في
الظُّباء والذئاب، فإنَّهما بابان يقصُران عن الطوال، ويزيدان على
القصار.

وقد بقي من الأبواب المتوسِّطة والمقتصدة المعتدلة، التي قد
أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظٍّ، ومن الطُّول لمن
طلب الطُّول بحظٍّ وهو القولُ في البقر، والقولُ في الحمير،
والقولُ في كِبَار السَّبَاع وأشرفِها، ورؤسائها، وذوي النَّبَاهة
منها، كالأسد والنَّمْر، والببْر وأشباه ذلك، مما يجمعُ قوَّة أصل
النَّاب، والدَّرْب، وشَحْو الفم، والسَّبُعِيَّة وحِدَّة البرثن، وتمكُّنه في
العصب، وشِدَّة القلب وصرامته عند الحاجة، ووثاقة خَلْق البدن،
وقوَّته على الوُثْب. وسنذكر تسالِم المتسالمة منها، وتعادي
المتعادية منها، وما الذي أصلح بينها على السَّبُعِيَّة الصِّرف،
واستواء حالها في اقتيات اللُّحمان، حتَّى ربَّما استوت فريستها
في الجنس.

وقد شاهدنا غير هذه الأجناس يكون تعاديتها من قبل هذه الأمور
التي ذكرناها، وليس فيما بين هذه السَّبَاع بأعيانها تفاوتٌ في

الشَّدَّة، فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله، والفهد لا يطمع فيه ولا يأكله، فوجدنا التَّكافؤ في القُوَّة والآلة من أسباب التَّفاسُد، وإنَّ ذلك ليعملُ في طباع عقلاء الإنس حتَّى يُخرجوا إلى تهاوُّشِ السَّبَّاع، فما بالها لم تعمل هذا العمل في أنفُس السَّبَّاع؟ وسنذكر عِلَّةَ التسالم وعِلَّةَ التعادي، ولم تُطبع رؤساء السَّبَّاع على الغفلة وبعض ما يدخلُ في باب الكَرَم، دون صغار السَّبَّاع وسفَلتها، وحاشيتها وحشوها، وكذلك أوساطها، والمعتدلة الآلة والأسر منها.

شواهد هذا الكتاب

ولم نذكر، بحمد الله تعالى، شيئاً من هذه الغرائب، وطريقة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب مُنزلٍ، أو حديثٍ مأثور، أو خبرٍ مستفيض، أو شعرٍ معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك ممَّا يشهد عليه الطبيب، ومن قد أكثر قراءة الكتب، أو بعض من قد مارَس الأسفار، وركب البحار، وسكن الصَّحاري واستدَّرى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية.

وقد رأينا أقواماً يدَّعون في كتبهم الغرائب الكثيرة، والأمور
البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءاتهم، ويُعَرِّضون
أقدارهم، ويسلِّطون السُّفهاء على أعراضهم، ويجترُّون سُوء
الظَّنِّ إلى أخبارهم، ويحكِّمون حُساد النَّعم في كتبهم، ويمكنون
لهم من مقاليتهم، وبعضهم يتَّكل على حُسن الظَّنِّ بهم، أو على
التسليم لهم، والتقليد لدعواهم، وأحسنهم حالاً من يُحبُّ أن
يُتفَضَّلَ عليه ببسط العُدْر له، ويُتكلَّف الاحتجاج عنه، ولا يبالي أن
يَمُنَّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من
قبل كُتبه.

ونحن حفظك الله تعالى، إذا استنطقنا الشَّاهد، وأحلنا على
المثل، فالخصومة حينئذٍ إنَّما هي بينهم وبينها، إذ كُنَّا نحنُ لم
نستشهد إلا بما ذكرنا، وفيما ذكرنا مقنعٌ عند علمائنا، إلا أن
يكون شيءٌ يثبت بالقياس، أو يبطل بالقياس، فواضعُ الكتاب
ضامنٌ لتخليصه وتلخيصه، ولتشبيته وإظهار حجته.

فأمَّا الأبوابُ الكبارُ فمثلُ القَوْل في الإبل، والقول في فضيلة
الإنسان على جميع الحيوان، كفضل الحيوان على جميع النامي،
وفضل النَّامي على جميع الجماد.

وليس يدخلُ في هذا الباب القولُ فيما قسم اللهُ، عزَّ وجلَّ،
لبعض البقاع من التَّعْظِيمِ دون بعض، ولا فيما قسم من
السَّاعات والليالي، والأَيَّامِ والشُّهُورِ وأشباه ذلك، لأنَّه معنَى
يرجع إلى المختبرين بذلك، من الملائكة والجنِّ والآدميين.
فمن أبواب الكبار القول في فصل ما بين الذُّكُورَةِ والإِنَاثِ، وفي
فصل ما بين الرِّجْلِ والمرأة خاصَّةً.

وقد يدخل في القول في الإنسان ذكر اختلاف النَّاسِ في
الأعمار، وفي طول الأجسام، وفي مقادير العقول، وفي تفاضل
الصَّناعات، وكيف قال من قال في تقديم الأوَّل، وكيف قال من
قال في تقديم الآخر.

فأما الأبوابُ الأُخرى، كفضل الملكِ على الإنسان، وفضل الإنسان
على الجنِّ، وهي جملة القول في اختلاف جواهرهم، وفي أيِّ
موضع يتشاكلون، وفي أيِّ موضع يختلفون؛ فإن هذه من
الأبوابِ المعتدلة في القصر والطول. وليس من الأبوابِ بابُ إلا
وقد يدخله تُتْفُ من أبوابٍ أُخرى على قدر ما يتعلَّق بها من
الأسباب، ويعرض فيه من التضمين، ولعلك أن تكون بها أشدَّ
انتفاعاً.

وعلى أني ربما وشّخت هذا الكتاب وفصّلت فيه بين الجزء
والجزء بنوادر كلام، وطرف أخبار، وُغُرر أشعار، مع طرف
مضاحيك، ولولا الذي تُحاول من استعطاف على استتمام
انتفاعكم لقد كُنّا تسخّفنا وسخّفنا شأن كتابنا هذا.
وإذا علم الله تعالى موقع النية، وجهة القصد، أعان على
السّلامة من كلّ مخوف.

العله في عدم إفراد باب للسّمك

ولم نجعل لما يسكن المِلح والعدوبة، والأنهار والأدوية،
والمناقع والمياه الجارية، من السّمك ومّا يخالف السّمك، ممّا
يعيش مع السمك - باباً مجرّداً، لأنّي لم أجِد في أكثره شعراً
يجمع الشّاهد ويوثق منه بحسن الوصف، وينشّط بما فيه من
غير ذلك للقراءة، ولم يكن الشّاهد عليه إلاّ أخبار البحرّيين، وهم
قومٌ لا يعدّون القول في باب الفِعل، وكلّما كان الخبرُ أغرب
كانوا به أشدّ عُجْباً، مع عبارة غثّة، ومخارج سميّة.
وفيه عيبٌ آخر: وهو أنّ معه من الطّول والكثرة ما لا تحتملونه،
ولو غنّاكم بجميعة مُخارق، وضرب عليه زلزل، وزمر به برّصوماً،

فلذلك لم أتعرض له.

وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه.

ولقد قلت لرجل من البحرين: زعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعام أبداً إلاّ ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل، وشتر النفس، فكان من جوابه أن قال لي: ما يعلم هذا إلاّ من كان سمكة مرّة، أو أخبرته به سمكة، أو حدّثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى، فإنهم كانوا صيادين، وكانوا تلامذة المسيح. وهذا البحريُّ صاحبُ كلام، وهو يتكلّف معرفة العِلل، وهذا كان جوابه، ولكنني لن أدع ذكراً بعض ما وجدته في الأشعار والأخبار، أو كان مشهوراً عند من ينزل الأسيافَ وشطوط الأودية والأنهار، ويعرفه السّماكون، ويُقرُّ به الأطباء - بقدر ما أمكن من القول.

زعم إياس بن معاوية في الشُّبُوط وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار، أن إياس بن معاوية زعم أن الشُّبُوطَ كالبعُل، وأن أمّها بُنيّة، وأباها رَجْرُ، وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا في بطن شُّبُوطه قطّ بيضاً.

وأنا أخبرك أنّي قد وجدته فيها مراراً، ولكنّي وجدته أصغر جُثَّةً،
وأبعد من الطَّيِّب، ولم أجده عامّاً كما أجده في بطون جميع
السمك.

فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي،
وصاحب الإزكان، وأقوف من كرز بن علقمة، داهية مُضر في
زمانه، ومفخر من مفاخر العرب.

الشك في أخبار البحرين والسّماكين والمترجمين فكيف أسكُن
بعد هذا إلى أخبار البَحْرِيِّين، وأحاديث السّمَّاكين، وإلى ما في
كتابِ رَجُلٍ لعلّه أنْ لو وجد هذا المترجم أن يُقيمه على
المِصْطَبَةِ، ويبرأ إلى النَّاسِ من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه
بسوء ترجمته.

فصيلة الضب

والذي حضرني من أسماء الحشرات، ممّا يرجع عمود صورها
إلى قالبٍ واحد، وإن اختلفت بعد ذلك في أمور، فأوّل ما نذكر
من ذلك الضبّ.

والأجناسُ التي ترجع إلى صورة الضبّ: الورلُ، والحرباءُ،

والوحرة، والحُلْكة، وشحمة الأرض، وكذلك العطاء، والوزغ،
والحرذون، وقال أبو زيد: وذكر العظاية هو العَصْرُ فُوط، ويقال
في أمِّ حُبَيْن حُبَيْنَةٌ وأشباؤها مما يسكن الماء: الرَّقُّ،
والسُّلْحَفَاة، والغيلم، والتَّمْسَاح، وما أشبه ذلك.

الحشرات

ومما نحن قائلون في شأنه من الحشرات: الطربان، والعُتُّ والحُفَّات والعِرِيدُ، والعَصْرُ فُوط،
والوَبْر، وأم حبين، والجعل، والقرنبي والدَّسَّاس، والخنفساء، والحية، والعقرب، والشَّبَث
والرُّتِيلاء، والطَّبَّوع، والحرْفُوص، والدَّلم، وقملة النَّسْر، والمثل، والتَّبْر، وهي دويبة إذا دَبَّتْ
على جلد البعير توَزَّم، ولذلك يقول الشاعر، وهو يصف إبله بالسَّمْن:

من بُدْنٍ واستيقارٍ عليها ذربات الأنبارِ

وقال الآخر:

تحقنت النَّجِيلَ كأنما جلودهن مدارجُ الأنبارِ
والصَّمْج، والقنفذ، والتَّمْل، والذَّرِّ، والدَّسَّاس، ومنها ما تتشاكل
في وجوه، وتختلف من وجوه: كالفأر والجرذان والزباب، والخلد
واليربوع، وابن عرس، وابن مقرض ومنها العنكبوت الذي يقال
له منونة، وهي شرُّ من الجرَّارة والصَّمْج.

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

وسنقول في الأجناس التي يكون في الجنس منها الوحشيُّ والأهليُّ، كالفيلة، والخنازير، والبقر، والحمير، والسنانير. والظباء قد تَدْجُن وتُولد على صُعوبةٍ فيها، وليس في أجناس الإبل جنس وحشيُّ، إلا في قول الأعراب.

ما هو أهلي صرف أو وحشي صرف من الحيوانات

وممَّا يكون أهليًّا ولا يكون وحشيًّا وهو سبعُ - الكلاب وليس يتوحَّش منها إلا الكلب الكلب، فأما الصُّباع والدَّئاب، والأسد، والنمور، والبُبور، والثعالب، وبنات آوى، فوحشيَّة كلها، وقد يقلِّم الأسد وتُنزع أُنْيابه، ويطول ثواؤُه مع الناس حتى يهرم مع ذلك، ويحسُّ بعجزه عن الصَّيد، ثمَّ هو في ذلك لا يُؤتمن عُرامه ولا شروده، إذا انفرد عن سوَّاسه، وأبصر غيضة قُدَّامها صحراء.

قصة الأعرابي والذئب وقد كان بعض الأعراب ربَّى جرو ذئب صغيراً، حتَّى شبَّ، وظنَّ أنه يكونُ أغنى غناءً من الكلب، وأقوى على الذَّبِّ عن الماشية، فلمَّا قوي شيئاً وثب على شاةٍ

فذبها - وكذلك يصنعُ الدَّئِبُ - ثمَّ أكل منها فلمَّا أبصر الرَّجُلُ
أمره قال:

شَوَيْهَتِي وَرَبَيْتَ فِينَا أَنْبَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبٌ
وقد أنكر ناسٌ من أصحابنا هذا الحديث، وقالوا: لم يكن ليألفه
ويقيم معه بعد أن اشتدَّ عَظْمُهُ وَلِمَ لَمْ يذْهَبْ مَعَ الدَّئَابِ
والصُّبَاعِ، ولم تكن الباديةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْحَاضِرَةِ، والقفارُ أَحَبَّ
إِلَيْهِ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْمَأْنُوسَةِ.

كيف يصير الوحشيُّ من الحيوان أهلياً وليس يصير السبعُ من
هذه الأجناس أو الوحشيُّ من البهائم أهلياً بالمقام فيهم، وهو لا
يقدر على الصَّحَارِيِّ، وإنما يصير أهلياً إذا ترك منازل الوحش
وهي له مُعْرَضَةٌ.

ما يعتري الوحشي إذا صار إلى الناس وقد تتسافد وتتوالد في
الدُّور وهي بعد وحشيَّة، وليس ذلك فيها بعامٍّ، ومن الوحش ما
إذا صار إلى النَّاسِ وفي دُورهم ترك السَّفَادَ، ومنها ما لا يطعم
ولا يشربُ البتَّةَ بوجهِه من الوجوه، ومنها ما يُكره على الطَّعْمِ
ويدخل في حلقة كالحية، ومنها ما لا يسفد ولا يدجن، ولا يطعم
ولا يشرب، ولا يصيحُ حتى يموت وهذا المعنى في وحشيِّ الطَّيْرِ

أكثر.

السوراني ورياضته للوحوش والذي يحكى عن السوراني
القنَّاص الجبليّ ليس بناقضٍ لما قُلنا، لأنَّ الشَّيء الغريبَ،
والنادر الخارجيَّ، لا يقاس عليه، وقد زعموا أنَّه بلغ من حدِّقه
بتدريب الجوارح وتضريتها أنَّه ضرَّى ذئباً حتَّى اصطاد به الطَّباء
وما دونها، صيداً ذريعاً، وأنَّه ألفه حتَّى رجع إليه من ثلاثين
فرسخاً، وقد كان بعضُ العُمَّال سرقه منه، وقد ذكروا أنَّ هذا
الدَّئب قد صار إلى العسكر، وأنَّ هذا السُّوراني ضرَّى أسداً
حتَّى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً، وأنَّه ضرَّى الزَّنابيرَ
فاصطاد بها الدِّبَّان، وكلُّ هذا عجب، وهو غريبٌ نادرٌ، بديعٌ
خارجيٌّ وذكروا أنَّه من قيس عيلان، وأنَّ حليلة طئر النبي صلى
الله عليه وسلم قد ولدته.

الحيوانات العجيبة وليس عندي في الحمار الهنديّ شيء، وقد
ذكره صاحب المنطق، فأما الدِّباب، وفأرة المسك، والفنك،
والقائم، والسَّنْجَاب، والسَّمُور، وهذه الدوابُّ ذوات الفراء
والوبر الكثيف النَّاعم، والمرغوب فيه، والمنتفع به، فهي عجيبة.
وإنَّما نذكر ما يعرفه أصحابنا وعلمائنا، وأهلُ باديتنا، ألا ترى أنَّي

لم أذكر لك الحريش، والدُّخس، ولا هذه السُّباع المشتركة
الخلق، المتولِّدة فيما بين السُّباع المختلفة الأعضاء، المتشابهة
الأرحام، التي إذا صار بعضُها في أيدي القرَّادين والمتكسِّبين و
الطوَّافين، وضعوا لها أسماء، فقالوا: مقلّاس، وكيلاس،
وشلقطير، وخلقطير وأشباه ذلك، حين لم تَكُنْ من السُّباع
الأصلية والمشهورة النسب، والمعروفة بالنفع والضّرر.
وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضيع، والسَّمع، والعِسبار، إذ كانت
معروفةً عند الأعراب، مشهورة في الأخبار، منوَّهاً بها في
الأشعار.

الاعتماد على معارف الأعراب في الوحش وإنّما أعتمد في مثل
هذا على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يَعْرِفُوا شكل ما احتيج
إليه منها من جهة العناية والفلاية، ولا من جهة التذاكر
والتكسُّب، ولكن هذه الأجناس الكثيرة، ما كان منها سبعاً أو
بهيمةً أو مشترك الخلق، فإنّما هي مبثوثة في بلاد الوحش: من
صحراء، أو وادٍ، أو غائط، أو غيضة، أو رملية، أو رأس جبل، وهي
في منازلهم ومناشئهم، فقد نزلوا كما ترى بينها، وأقاموا معها،
وهم أيضاً من بين النَّاس وحشٌ، أو أشباه الوحش. وربّما؛ بلُ

كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب، وباللدغ واللَّسع، والعضّ
والأكل، فخرجتْ بهم الحاجة إلى تعرُّف حالِ الجاني والجرح
والقاتل، وحال المجنيِّ عليه والمجروحِ والمقتول، وكيف الطَّلَبُ
والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وُقوع
البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالدَّاء والدواء،

معرفة العرب للآثار والأنواء والنجوم

ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرَّمْل، وعرفوا الأنواء
ونجوم الاهتداء، لأنَّ كلَّ من كان بالصَّحاح الأماليس - حيث لا
أمارة ولا هادي، مع حاجته إلى بعد الشَّقَّة - مضطَّراً إلى التماس
ما ينجيه ويؤدِّيه.

ولحاجته إلى الغيث، وفراره من الجذب، وضنَّه بالحياة، اضطرتّه
الحاجة إلى تعرُّف شأن الغيث.

ولأنه في كلِّ حالٍ يرى السَّماء، وما يجري فيها من كوكب، ويرى
التَّعاقب بينها، والنَّجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً وما
يسير منها فardاً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً.

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

وسئلت أعرابيّة فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله
أما أعرف أشباحاً وُقوفاً عليّ كلّ ليلة.

وقال اليقطريّ: وصف أعرابيُّ لبعض أهل الحاضرة نجوم
الأنواء، ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات الليل والسُّعُودِ
والنُّحُوسِ، فقال قائلٌ لشيخ عباديٍّ كان حاضراً: أما ترى هذا
الأعرابيّ يعرف من النُّجُوم ما لا نعرف قال: ويل أمّك، من لا
يعرف أجداع بيته؟ قال: وقلت لشيخٍ من الأعراب قد خرفَ،
وكان من دُهاثهم: إني لا أراك عارفاً بالنُّجوم قال: أما إنّها لو
كانت أكثر لكنّك بشأنها أبصر، ولو كانت أقلّ لكنّك لها أدكر.
وأكثرُ سببٍ ذلك كلّهُ - بعد فَرَطِ الحاجة، وطول المدارس - رِقَّةُ
الأذهان، وجودة الحفظ، ولذلك قال مجنونٌ من الأعراب - لَمَّا
قال له أبو الأصبغ بن ربّعيّ: أما تعرف النجوم؟ قال: وما لي
أعرفُ من لا يعرفني؟ فلو كان لهذا الأعرابيّ المجنون مثلُ
عُقُول أصحابه، لعرف مثل ما عرفوا.

ما يجب في التعليم

ولو كان عندي في أبدان السمور، والفتك، والقائم، ما عندي في أبدان الأرنب والتعالب، دون فرائها، لذكرتها بما قلّ أو كثر، لكنّه لا ينبغي لمن قلّ علمه أن يدعّ تعليم من هو أقلّ منه علماً،

الدساس وعله اختصاصه بالذكر

ولو كانت الدساس من أصناف الحيّات لم نخصّها من بينها بالذكر، ولكنها وإن كانت على قالب الحيّات وخرطها، وأفرغت كإفراغها وعلى عمود صورها، فخصائصها دون خصائصها، كما يناسبها في ذلك الحفّات والعزّيد، وليس من الحيّات، كما أن هذا ليس من الحيّات، لأنّ الدساس ممسوحة الأذن، وهي مع ذلك ممّا يلد ولا يبيض، والمعروف في ذلك أنّ الولادة هي في الأشرف، والبيض في الممسوح.

وقد زعم ناس أنّ الولادة لا تُخرج الدساس من اسم الحيّة، كما أن الولادة لا تخرج الخفّاش من اسم الطير.

وكلّ ولد يخرج من بيضه فهو فرخ، إلا ولد بيض الدجاج فأبّه فرّوج.

والأصناف التي ذكرناها مع ذكر الصّبّ تبيض كلّها، ويسمى ولدها

بالاسم الأعم فرخاً.

وزعم لي ابنُ أبي العجوز، أنّ الدّسّاس تلد، وكذلك خبّرني به
محمد بنُ أيوبَ ابن جعفر عن أبيه، وخبّرني به الفضل بنُ
إسحاق بن سليمان فإن كان خبرهما عن إسحاق فقد كان
إسحاق من معادن العلم.

وقد زعموا بهذا الإسناد أنّ الأروية تَضَعُ مع كلِّ ولد وضعته أفعى
في مشيمةٍ واحدة.

وقال الآخرون: الأروية لا تعرف بهذا المعنى، ولكنه ليس في
الأرض نمرة إلا وهي تَضَعُ ولدها وفي عنقه أفعى في مكان
الطّوق، وذكروا أنّها تنهش وتعضّ، ولا تقتل.

ولم أكتب هذا لتقرّ به، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا
يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن
ليكن قلبك إلى إنكاره أميل.

الشك واليقين

وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف
بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشكّ في

المشكوك فيه تعلُّماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرُّف التوقف ثمّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه.

ثمّ اعلم أنّ الشكَّ في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقاتٌ في القوّة والضعف.

أقوال لبعض المتكلمين في الشكِّ ولما قال ابن الجهم للمكِّيّ:
أنا لا أكاد أشكُّ قال المكِّيّ: وأنا لا أكاد أوقن ففخر عليه المكِّيّ
بالشكِّ في مواضع الشكِّ، كما فخر عليه ابنُ الجهم باليقين في
مواضع اليقين.

وقال أبو إسحاق: نازعت من الملحدين الشاكِّ والجاحد فوجدتُ
الشُّكَّك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود.

وقال أبو إسحاق: الشاكُّ أقربُ إليك من الجاحِد، ولم يكن يقيئ
قط حتى كان قبله شكُّ، ولم ينتقل أحدٌ عن اعتقادٍ إلى اعتقاد
غيره حتّى يكون بينهما حالُ شكِّ.

وقال ابنُ الجهم: ما أطمعني في أوبة المتحيِّر لأنَّ كلَّ من
اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته التبيُّن، ومن وجد ضالته فريح
بها.

وقال عمرو بن عُبيد: تقرير لسانِ الجاحد أشدُّ من تعريفِ قلب

الجاهل.

وقال أبو إسحاق: إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم، وفي أي طبقة هو، وأردت أن تدخله الكور وتنفخ عليه، ليظهر لك فيه الصّحة من الفساد، أو مقدارُه من الصّحة والفساد، فكن عالماً في صورة متعلّم، ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه.

فصل ما بين العوام والخواص في الشك والعوام أقلُّ شكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقّفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدام على التصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشكّ التي تشتمل على طبقات الشكّ، وذلك على قدر سوء الظنّ وحسن الظنّ بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب. حرمة المتكلمين وسمع رجل، ممّن قد نظر بعض النظر، تصويب العلماء لبعض الشكّ، فأجرى ذلك في جميع الأمور، حتّى زعم أنّ الأمور كلها يُعرف حقها وباطلها بالأغلب. وقد مات ولم يخلف عقيباً، ولا واحداً يدينُ بدينه، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكنُ أسأت، ولكّني على حالٍ أكره

التنويه بذكر من قد تحرّم بحُرمة الكلام، وشارك المتكلمين في اسم الصّناعة، ولا سيّما إنّ كان ممّن ينتحل تقديم الاستطاعة. الأوعال والثياتل والأيايل فأما القولُ في الأوعال، والثياتل، والأيايل وأشباه ذلك، فلم يحضرنّا فيها ما إن نجعل لذكرها باباً مبوباً، ولكننا سنذكرها في مواضع ذكرها من تضاعيف هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

الضب

وأنا مبتدئٌ على اسم الله تعالى في القول في الضبّ، على أنّي أذمُّ هذا الكتابَ في الجملة، لأنّ الشواهد على كلّ شيء بعينه وقعت متفرّقة غير مجتمعة، ولو قدرتُ على جمعها لكان ذلك أبلغ في تزكية الشّاهد، وأنورَ للبرهان، وأملاً للنفس، وأمتع لها، بحسن الرّصف، وأحمده، لأنّ جملة الكتاب على حالٍ مشتملةٍ على جميع تلك الحجج، ومحيطة بجميع تلك البرهانات، وإن وقع بعضه في مكان بعضٍ، تأخّر متقدّم، وتقدّم متأخر.

جحر الضب وما قيل فيه من الشعر

وقالوا: و من كَيْس الصَّبِّ أَنَّهُ لَا يَتَخَذُ جُحْرَهُ إِلَّا فِي كُدْيَةٍ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الصُّلْبُ - أَوْ فِي ارْتِفَاعٍ
عَنِ الْمَسِيلِ وَالْبَسِيطِ، وَلِذَلِكَ تَوَجَّدُ بَرَاثَتُهُ نَاقِصَةً كَلِيلَةً، لِأَنَّهُ يَحْفَرُ فِي الصَّلَابَةِ، وَيَعْمَقُ الْحَفْرَ،
وَلِذَلِكَ قَالَ خَالِدُ بْنُ الطَّيْفَانَ:

وَمَوْلَى كَمَوْلَى الرَّبْرِقَانِ دُمِلَتْ سَاقٌ تَهَاضُ بِهَا
دَمَلْتَهُ
أَحَالَتْ وَالْجَبَائِرُ الْحَوْلُ لَا بُرْءٌ مُبِينٌ وَلَا
فَوْقَهَا
كَأَنَّ اللَّهَ يَجْدَعُ أَنْفُلَهُنَّ بِهِنَّ إِنْ مَوْلَاهُ ثَابَ لَهُ وَفُرُ
السَّرِّ قَدْ أَفْنَى دَوَائِرَ كَضْبِ الْكُدَى أَفْنَى بَرَاثَتِهِ
وَجْهَهُ
وَقَالَ كَثِيرٌ:

شئت قلت له صادقاً وجدتك بالقف صَباً جَحُولاً
اللاءِ يَحْفَرُونَ تَحْتَ الْكُدَى يَبْتَغِينَ الدَّمَاثَ السُّهُولاً
وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

أَبَا الْجَبَّارِ صَبّاً مَوْرَشَلِّي الصَّفَاةِ بُرْثُنٌ وَمَعَاوِلُ
كَدْيَةٌ أَعَيْتَ عَلَيَّ كُلِّ قَانِصِلٍ وَحَابِلٍ
كَانَ مِنْهُمْ حَارِشَانُ
ظَلَّلْتُ أَرَاعِي الشَّمْسَ لَوْلَا جَلْدِي عِنْدَهُ وَهُوَ قَائِلُ
مَلَاتِي
وَأَنشَدَ لِدُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ:

وَعُورَاءَ مِنْ قِيلِ امْرِيٍّ قَدْ بَسَالِمَةَ الْعَيْنِينَ طَالِبَةَ عُذْرَا
رَدَدْتُهَا
أَنْبِي إِذْ قَالَهَا قَلْتُ مِنْهَا أَوْرَثْتُ بَيْنَنَا
مِثْلَهَا
فَأَعْرَضْتُ عَنْهَا وَانْتظرتُ غَدَاً يُبْدِي لِمُنْتَظِرِ
غَدَاً
لَأُخْرِجَ صَبّاً كَانَ تَحْتَ أَظْفَاراً أَطَالَ بِهَا
ضَلُوعِهِ الْحَفْرَا
وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ، فِي أَكْلِ الصَّخْرِ لِلْأظْفَارِ:

فأشْرَطَ فِيهَا نَفْسُهُ وَهُوَ وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهٗ وَتَوَكَّلَا
مُعْصِمٌ

أَكَلَتْ أَظْفَارَهُ الصَّخْرَ عَلَيْهِ طَوْلٌ مَرْقَى تَوَصَّلَا

فقد وصفوا الصَّبَّ كما ترى، بأنه لا يحفرُ إلاَّ في كدية، ويطيلُ
الحفَرَ حتَّى تفنى برائته، ويتوخَّى به الارتفاع عن مجاري السَّيل
والمياه، وعن مدق الحوافر، لكيلا يَنْهَارَ عليه بيته.

الموضع الذي يختاره الضب لجحره

ولمَّا علم أَنَّهُ تَسَاءُ سَيِّئِ الْهَدَايَةِ، لم يحفر وجاره إلاَّ عند أكمة،
أو صخرة، أو شجرة، ليكون متى تباعد من جُحره لطلب الطُّعم،
أو لبعض الخوف فالتفت ورآه؛ أحسن الهداية إلى جحره، ولأنَّه
إذا لم يُقَمَّ عِلْمًا فلعله أن يُلجَّ على ظرَبَانٍ أو وَرَلٍ، فلا يكون
دون أكله له شيءٌ.

فقالَت العرب: خَبُّ ضَبٍّ؛ و: أَخْبُّ من ضَبٍّ؛ و أَخْدَع من ضَبٍّ؛
و: كُلُّ ضَبٍّ عِنْدَ مِرْدَاتِهِ.

وإذا خَدَع في زوايا حفيرته فقد تَوَتَّقَ لِنَفْسِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ.
حذر بعض الحيوان ولهذه العلة اتخذ اليربوع القاصعاء،
والنافقاء، والدَّامَاءَ، والزَّاهِطَاءَ، وهي أبوابٌ قد اتخذها لحفيرته،

فمتى أحسنَ بشرٌ خالف تلك الجهة إلى الباب.
ولهذا وشبهه من الحذر كان التوير من الأرناب وأشباهاها،
والتوير: أن تطأ على زمعاتها فلا يعرف الكلبُ والقائفُ من
أصحاب القنص آثار قوائمها.
ولما أشبه هذا التَّدبير صار الطَّيبي لا يدخل كناسه إلا وهو
مستدبر، يستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه.

شعر في حزم الضب واليربوع

وقد جمع يحيى بن منصور الدُّهليُّ أبواباً من حزم الضب، وخبثه وتدييره، إلا أنه لم يرد
تفصيل الضب في ذلك، ولكنه بعد أن قدَّمه على حمقى الرِّجال، قال: فكيف لو فكَّرتم في
حُرم اليربوع والضبِّ.
وأنشدني فقال:

وبعضُ النَّاسِ أنقصُ رأي حَزْمِ اليربوع والضبِّ المكونِ
مِرْدَاتُهُ مِنْ رَأْسِ مِوَالِمَنْ سَتِيلَ بَارِقَةٍ هَتُونِ
وَيَحْفِرُ فِي الكدى حَوْفَ وَيَجْعَلُ مَكْوَهُ رَأْسِ الوجينِ
انهيارِ
ويخدعُ إن أرذت له احتيالاً الفهدِ من أسدِ كمينِ
ويدخلُ عَقْرَباً تحت الدَّنْلويِعِ كيدِ ذي خِدَعِ طَبِينِ
مع اليربوعِ والدَّئِبِ
الضبُّ ليس بذي اللَّعِينِ

وقد ذكر يحيى جميع ما ذكرنا، إلا احتياله بإعداد العقرب لكفِّ
المحترش، فإنه لم يذكر هذه الحيلة من عمله، وسنذكر ذلك في

موضعه، والشَّعر الذي يُثبَّتُ له ذلك كثيرٌ.
فهذا شأنُ الصَّبِّ في الحفر، وإحكام شأن منزله.
الورل وعدم اتخاذه بيتاً ومن كلام العرب أنّ الورل إنّما يمنعه
من اتّخاذ البيوت أنّ اتخاذاها لا يكونُ إلاّ بالحفر، والورل يُبقي
على برائته، ويعلم أنّها سلاحه الذي به يقوى على ما هو أشدُّ
بدناً منه، وله ذنبٌ يؤكل ويُستطاب، كثيرُ الشَّحم.

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

والأعراب لا يصيدون يربوعاً، ولا قُنْفِذاً، ولا ورلاً من أول الليل،
وكذلك كل شيءٍ يكونُ عندهم من مطايا الجنّ، كالنَّعام والظُّباء.
ولا تكون الأرنبُ والصَّيغ من مراكب الجنّ، لأن الأرنب تحيض ولا
تغتسل من الحيض، والصَّبَّاع تركبُ أيورَ القتلى والموتى إذا
جِيَفَتْ أبدانهم وانتفخوا وأنعضوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة،
ولا حنابة إلا ما كان للإنسان فيه شِرْكٌ، ولا تمتطي القروود، لأن
القرد زان، ولا يغتسل من جنابة.

فإن قتلَ أعرابيٌّ قُنْفِذاً أو ورلاً، من أول الليل، أو بعض هذه
المراكب، لم يأمنُ على فحل إبله، ومتى اعتراه شيءٌ حكم بأنه

عقوبة من قبلهم.

قالوا: ويسمعون الهاتف عند ذلك بالتَّعْي، وبضروب الوعيد.
قول الأعراب في قتل الجان من الحيات وكذلك يقولون في
الجان من الحيات، وقتل الجان عندهم عظيم، ولذلك رأى رجلٌ
منهم جانا في قعر بئر، لا يستطيع الخروج منها، فنزل على خطر
شديد حتَّى أخرجها، ثم أرسلها من يده فانسابت، وغمَّض عَيْنَيْهِ
لكيلا يرى مدخلها كأنه يريد الإخلاص في التقرب إلى الجن.
قال المازني: فأقبل عليه رجلٌ فقال له: كيف يقدر على أذاك
مَنْ لم ينقذه من الأذى غيرك؟

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

وقال: ثلاثة أشياء لا يتمُّ لها التدبير إذا دخلت الأسراب، والأنفاق، والمكامن والتَّوَالج حتَّى
يغص بها الخرق.
- فمن ذلك: أن الظربان إذا أراد أن يأكل حِسلة الضب أو الضبِّ نفسه؛ اقتحم جُحر الضبِّ
مستدبراً، ثم التمس أضيّق موضع فيه، فإذا وجده قد عَصَّ به، وأيقنَ أنه قد حال بينه وبين
النسيم، فسا عليه، فليس يجاوز ثلاث فسوات حتَّى يُغشى على الضبِّ فيأكله كيف شاء.
والآخر: أن الرجل إذا دخل وجرَّ الضبع ومعه حَبْل، فإن لم يسُدِّ بدنه وبثوبه جميع المخارق
والمنافذ ثم وصل إلى الضبع من الضياء بمقدار سمِّ الإبرة، وثبَّت عليه، فقطَّعته، ولو كان أشدَّ
من الأسد.
- والثالث: أن الضب إذا أراد أن يأكل حُسوله وقف لها من جحرها في أضيّق موضعٍ من منفذه

إلى خارج، فإذا أحكم ذلك بدأ فأكل منها، فإذا امتلأ جوفه انحطَّ عن ذلك المكان شيئاً قليلاً، فلا يُقِلُّ منه شيءٌ من ولده إلا بعد أن يشبع ويزولَ عن موضعه، فيجد منفذاً.
وقال بعض الأعراب:

يُنْثَبُ فِي الْمَسَلِكِ عِنْدَ تَزَاوَمِ الضَّبِّ عَصَى فِي كُدَيْتِهِ
سَلْتِهِ

شعر في أكل الضبِّ ولده

وقال: الدليل على أن الضبَّ يأكلُ ولده قول عمَّس بن عقيل بن عُلقَةَ لأبيه:

بَنِيكَ أَكَلَ الضَّبُّ حَتَّى جَدَّتْ مَرَارَةَ الْكَلَا الْوَبِيلِ
أَنَّ الْأَوْلَى كَانُوا شَهُودًا فِنَاءَ بَيْتِكَ مِنْ بَجِيلِ

وأنشد لغيره:

بَنِيكَ أَكَلَ الضَّبُّ حَتَّى بَنِيكَ لَيْسَ لَهُمْ عَدِيدُ

وقال عمرو بن مسافر: عتبت على أبي يوماً في بعض الأمر، فقلت:

الْوَمُ أَبِي طَيْشًا لِيَزَحْمَنِي
الضَّبُّ لَمْ يَتْرِكْ لَهُ وَلدًا

وقال خدّاش بن زُهَيْر:

سَمِعْتُمْ بِجَيْشٍ سَالِكًا بَطْنَ قَوٍّ فَأَخْفُوا الْجَرَسَ
سَرَفًا وَاكْتَتَمُوا
أَرْجَعُوا فَأَكْبُوا فِي أَكْبِّ عَلَى ذِي بَطْنِهِ
بُيُوتِكُمْ الْهَرَمُ

جعله هَرَمًا لطول عمره، وذو بطنه: ولده.

وقال أبو بكر بن أبي قُحافة لعائشة، رضي الله عنهما: إني كنتُ

نحلتكِ سبعين وسقاً من مالي بالعالية، وإني لم تحوزيه، وإنما

هو مالُ الوارث، وإنما هو أخواك وأختاك، قالت: ما أعرفُ لي

أختاً غير أسماء، قال: إنّه قد ألقى في روعي أن ذا بطن بنت

خارجة جارية.

قال آخرون: لم يَغْنِ بذي بطنه ولده، ولكنَّ الصَّبَّ يرمي ما أكل،
أي يقيء؛ ثم يرجعُ فيأكله، فذلك هو ذو بَطْنه، فشَبَّهوه في ذلك
بالكلب والسُّنور.

وقال عمرو بن مسافر: ما عنى إلا أولاده، فكأنَّ خدشاً قال:
ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها، إلى أكل الدُّرْبَةِ والعيال.

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الصببة أولادها

قال: وقال أبو سليمان الغنوي: أبرأ إلى الله تعالى من أن تكون الصَّبَّةُ تأكل أولادها ولكنها
تدفنهنَّ وتطمُّ عليهنَّ الثُّراب، وتتعهدهنَّ في كلِّ يوم حتَّى يُخَرَّجن، وذلك في ثلاثة أسابيع، غير
أنَّ التَّعالب والظَّربان والطَّير، تحفر عنهنَّ فتأكلهنَّ، ولو أفلت منهنَّ كلُّ فراخ الصُّباب لَمَلَأَنَّ
الأرض جميعاً.

ولو أنَّ إنساناً نحل أمَّ الدَّرءاء، أو مُعَاذَةَ العَدْوِيَّة، أو رابعة القيسيَّة، أنهنَّ يأكلن أولادهنَّ، لما
كان عند أحدٍ من النَّاس من إنكار ذلك، ومن التَّكذيب عنهنَّ، ومن استعظام هذا القول، أكثر
مما قاله أبو سليمان في التَّكذيب على الصُّباب أن تكون تأكل أولادها.

قال أبو سليمان: ولكن الصَّبُّ يأكلُ بَعْره، وهو طيِّبٌ عنده، وأنشد:

في تَبِيْعِهِ حِدْثَانَ مَوْلِدِهِ أَسَنَّ تَغْدَى نَجْوَهُ كِلْفَا
قال: وقال أْفَار بن لقيط: التَّبِيْع: القيء، ولكنَّا رويناهُ هكذا،

إنما قال: يعودُ في رَجْعِهِ، وكذلك الصَّبُّ، يأكلُ رَجْعَهُ.

وزعم أصحابنا أَنَّ أبا المنجوف السِّدوسيَّ روى عن أبي الوجيه
العُكليِّ قوله:

وأفطنَ مِنْ صَبِّ إِذَا خَافَ لَهُ عِنْدَ التَّلْمُسِ عَقْرَبَا
حَارِشَا

في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

أوَّل ذلك طولُ الدِّماءِ، وهو بقيَّة النَّفسِ وشِدَّة انعقاد الحياة
والرُّوحِ بعد الذِّبحِ وهَسْمِ الرَّأسِ، والطَّعنِ الجائفِ النافذِ، حتَّى
يكون في ذلك أعجب من الخنزيرِ، ومن الكلبِ، ومن الخنفساءِ،
وهذه الأشياء التي قد تفرَّدت بطول الدِّماءِ.

ثمَّ شارك الصَّبُّ الوزغة والحية، فإن الحية تُقطعُ من ثلث
جسمها، فتعيش إن سلمت من الدَّرِّ، فجمع الصَّبُّ الخصلتين
جميعاً، إلا ما رأيت في دَحَّال الأذن من هذه الخصلة الواحدة،
فإني كنتُ أقطعهُ بنصفين، فيمضي أحدُ نصفيه يمنةً والآخر
يسرةً، إلا أنني لا أعرفُ مقدار بقائهما بعد أن فاتا بصري.
ومن أعاجيبه طولُ العمرِ، وذلك مشهورٌ في الأشعار والأخبار،
ومضروبٌ به المثلُّ، فشارك الحيات في هذه الفضيلة، وشارك
الأفعى الرَّمليَّة والصَّخرية في أنَّها لا تموتُ حتَّى أنفها، وليس إلا

أن تُقتل أو تصطاد، فتبقى في جُون الحوَّائين، تذيّلها الأيدي،
وُتكره على الطَّعم في غير أرضها وهوائها، حتى تموت، أو
تحتملها السُّيولُ في الشِّتاء وزمان الزَّمهرير، فما أسرع موتها
حينئذ، لأنّها صرّدة.

مثل في الحية

وتقول العرب: أصرد من حية؛ كما تقول: أعرى من حية، وقال
القشيري: والله لهي أصردُ من عنزٍ جرّباء.

خُوف الحيات

وختوفها التي تُسرّع إليها ثلاثة أشياء: أحدها مُرور أقاطيع الإبل والشّاء، وهي منبسطةٌ على
وجه الأرض، إما للتشرُّق نهاراً في أوائل البرد، وإما للتبرُّد ليلاً في ليالي الصَّيف، وإمّا لخروجها
في طلب الطَّعم.

والخصلة الثانية ما يسلِّط عليها من القنافذ والأوعال والورل، فإنها تطالبها مطالبة شديدة،
وتقوى عليها قوّة ظاهرة، والخنازير تأكلها . وقد ذكرنا ذلك في باب القول في الحيات.

والخصلة الثالثة: تكسُّب الحوَّائين بصيدها، وهي تموت عندهم سريعاً.

ما يشارك الضب فيه الحية والصَّبُّ يشاركها في طول العمر، ثمَّ الاكتفاء بالنسيم والتَّعيش
ببرد الهواء، وذلك عند الهرم وفناء الرُّطوبات، وتَقْصُ الحرارة، وهذه كلها عجب.

عود إلى أعاجيب الضب ثم اتخذه الجحر في الصَّلابة، وفي بعض الارتفاع، خوفاً من الانهدام،
ومسيل المياه، ثم لا يكون ذلك إلا عند عَمِّ يرجع إليه إنْ هو أضلَّ جُحره، ولو رأى بالقرب

تراباً متراكباً بقدر تلك المرداة والصخرة، لم يحفلُ بذلك، فهذا كله كئسٌ وحزم، وقال
الشاعر:

الله أرضاً يعلم الضب بطن القاع طيبه
البقل
بها بيتاً على رأس امرئ في حرفة العيش
عقل

وقال البطين:

شيء مصيب في تعيينه كالضب كالنون والإنسان
كالسبع
ومن أعاجيبه أن له أيرين، وللضبة حرين، وهذا شيء لا يُعرف
إلا لهما، فهذا قول الأعراب، وأما قول كثير من العلماء، ومن
نقب في البلاد، وقرأ الكتب، فإنهم يزعمون أن للسقنقور
أيرين، وهو الذي يتداوى به العاجز عن النكاح، ليورثه ذلك
القوة.

قالو: وإن للجرذون أيضاً أيرين، وإيهم عاينوا ذلك معاينة،
وآخر من زعم لي ذلك موسى بن إبراهيم.

والجرذون دويبة تشبه الجرباء، تكون بناحية مصر وما والاها،
وهي دويبة مليحة موشاة بألوانٍ ونقط.

وقال جالينوس: الضب الذي له لسانان يصلح لحمه لكذا وكذا،
فهذه أيضاً أعجوبة أخرى في الضب: أن يكون بعضه ذا لسانين
وذا أيرين.

ومن أعاجيب الصَّبَّةِ أنَّها تأكل أولادها، وتجاوز في ذلك خُلُقُ
الهَرَّةِ، حتَّى قالت الأعراب: أعقُّ من صَبٍّ.

احتيال الضب بالعقرب وزعمت العرب أنه يُعِدُّ العقربَ في
جُحره، فإذا سمع صوت الحَرَشِ استتفرها، فألصقها بأصل
عَجَبِ الدَّئِبِ من تحثُّ، وضمَّ عليها، فإذا أدخل الحارِشُ يده
ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب. وقال علماؤهم: بل
يهيئ العقارب في جحره، لتلسع المحترِشَ إذا أدخل يده.

وقال أبو المنجد بن رويشد: رأيت الضبَّ أخور دابَّة في الأرض
على الحر، تراه أبداً في شهر ناجر بباب جُحره، متدخلاً يخاف
أن يقبض قابضٌ بذنبه، فربُّما أتاه الجاهلُ ليستخرجه، وقد أتى
بعقرب فوضَّعها تحت ذنبه بينه وبين الأرض، يحبسها بعَجَبِ
الذنب، فإذا قبض الجاهلُ على أصلِ ذنبه لسعته، فَشغِلَ
بنفسه.

فأما ذو المعرفة فإنَّ معه عُوَيْداً يحركه هُناك، فإذا زالت
العقرب قبض عليه.

وقال أبو الوجيه: كذب والله من زعم أن الصَّبَّة تستتفر عقرباً،
ولكنَّ العقارب مسالمة للصَّباب، لأنها لا تعرض لبيضها

وفراخها، والضَّبُّ يأكل الجراد ولا يأكلُ العقارب، وأنشد قول
التميميّ الذي كان ينزل به الأزديُّ: إنه ليس إلى الطعام
يقصد، وليس به إلا أنه قد صار به إلفاً وأنيساً، فقال:

أتَأْسُنُ بي وَتَجْرُكُ غيرَ تَجْرِي بين العقاربِ والضَّبَابِ
وأنشد:

تَجَمَّعْنَ عند الضَّبِّ حتى كأنه ^{كُلُّ} حال أسودُ الجِلْدِ
خُنْفَسُ

لأن العقارب تألف الخنافس، وأنشدوا للحكم بن عمرو البهْراني:

والوَرَعُ الرُّقْطُ على ذُلِّها تُطَاعِمُ الحَيَّاتِ في الجحرِ
والخُنْفَسُ الأسودُ من تَجْرِهِ العقربُ في السِّرِّ
لأنك لا تراهما أبداً إلا ظاهرتين، يطأعمان أو يتسايران، ومتى رأيت مكنة أو اطلّعت على

جُحر فرأيت إحداهما رأيت الأخرى.

قال: ومما يؤكّد القول الأوّل قوله:

وَمُسْتَنْفِرٌ دون السَّوِيَّةِ جئتُ بجُرياً من الدَّهْرِ
عقرباً أعوجاً

يقول: حين لم تَرَضَ من الدَّهَاءِ والنكر إلا بما تخالف عنده النَّاسُ وتجوّزهم.

إعجاب الضب والعقرب بالتمر وأنشدني ابن داحة لحذيفة بن دأب عمّ عيسى بن يزيد، الذي
يقال له ابن دأب في حديث طويل من أحاديث العشّاق:

حُدِعتُ حُبِّي بِسَبِّ مَرَّعِفِرٍ يُحْدَعُ الضَّبُّ المخادِعِ
بالتَّمْرِ

لأن الضب شديد العُجْبِ بالتَّمْرِ، فضرب الضب مثلاً في الحُبِّ والخديعة.

والذي يدلُّ على أن الضب والعقرب يُعجبان بالتَّمْرِ عجباً شديداً، ما جاء من الأشعار في ذلك،
وأنشدني ابن الأعرابي، لابن دَعْمَاءِ العِجْلِي:

أنكم دَرَبْتُمْ فَجَرَيْتُمْ دُرْبِيَّةً والضَّبُّ يُحْبَلُ بالتَّمْرِ
فجعل صيده بالتَّمْرِ كصيده بالحبّالة، وأنشدني العُشَيْرِيُّ:

كنت ضباً يُخرج التمر

ممن يزدهيه وعود

وقال بشر بن المعتمر، في قصيدته التي ذكر فيها آيات الله عز ذكره، في صنوف خلقه، مع ذكر الإباضيّة، والرافضة والحشوية والناطقة فقال فيها:

وهقله ترتاع من ظلّها
المرو على شهوة
تأكل أولادها
بالطعم وتأذينه
وظبيّة تخصم في حنظل وعقرب
يُعجبها التمر
وقال أيضاً بشر، في قصيدة له أخرى:

تري الهقل وأمعاءه
بين الصخر والجمر
البيش على بيثها
أحرص من ضب على تمر
وقال أبو دارة - وقد رأيتُه أنا، وكان صاحب قنص:

التمر إلا آفة وبلية
جلّ هذا الخلق من
تساكن البحر
البر من ذئب وسمع وثرملة
تسعى وخنفسة
وعقرب
قيل في الأمثال إن كعخيرك
إن الصب يحبل
واعياً بالتمر
وسنفسر معاني هذه الأبيات إذا كتبنا القصيدتين على

وجوههما بما يشتملان عليه من ذكر الغرائب والحكم، والتدبير

والأعاجيب التي أودع الله تعالى أصناف هذا الخلق، ليعتبر

مُعتبر، ويفكر مفكر، فيصير بذلك عاقلاً عالماً، وموحّداً مخلصاً.

طول ذمّاء الضب والدليل على ما ذكرنا من تفسير قولهم:

الصب أطول شيء ذمّاء، قولهم: إنّه لأحيا من صب، لأنّ

حارشه ربّما ذبحه فاستقصى فزي الأوداج، ثم يدعّه، فربما
تحرك بعد ثلاثة أيام.

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

الورود بها وشاقى أمشؤماً وأقبل حينه يتتبعُ
فأبدّهنَّ حثوقهنَّ فهاربٌ بدمائه أو ساقطٌ متجعجِعُ
وكان الناس يروون: فهاربٌ بدمائه يريدون من الدم، وكانوا يكسرون الدال، حتى قال
الأصمعيّ: بدمائه معجمة الدال مفتوحة وقال كثير:

شهدت الخيل يحمل متلمّطُ خذم العنان بهيمُ
شيكتي
الذماء إذا ملكت مناقلُ جمعتُ به أجشُّ هزيمُ
خبث الضب والضب إذا خدع في جحره وُصف عند ذلك بالخبث والمكر، ولذلك قال الشاعر:

مُنينا بصَّبٍّ من بني جُمجِ
بالعسلِ
والخيانة مثل الماء
وأنشد أبو عصام:

شيخين لا ينفعاننا لا يجدي عَلَيْنَا غِنَاهُمَا
كأنَّهما ضَبَّانِ ضَبًّا مغارِعُ
كشاهُمَا
يُخَبِّلا لا يوجدان في حباله يُرصدان يوماً يخبُ
راضداهُمَا
ولذلك شبهوا الحقد الكامن في القلب، الذي يسري ضرره، وتدبُّ عقاربه بالضبِّ، فسمّوا
ذلك الحقد ضبًّا، قال معن بن أوس:

مَنْ لِمَوْلَى لا يزالُ كأنَّه
شاعِبُ
فيه صدعٌ لا يُدانيه
ضبابُ الغشِّ تحت
الندى من قومه
بالعقارب
ضلوعه
وقال أبو دهبيل الجمحيّ:

فاعلمْ بأني لِمَنْ عادتِ وإني عليك اليوم

مَحْسُودٌ

مَضْطَغْنٌ

وَأَنشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

مَوْلَى حَاسِدٍ مُبَاغِضٍ ذِي ضَغْنٍ وَضَبٍّ فَارِضٍ
قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

كَأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ حِقْدَهُ يَخْبُو تَارَةً ثُمَّ يَسْتَعْرِ، ثُمَّ يَخْبُو ثُمَّ يَسْتَعْرِ.

وَقَالَ ابْنُ مِيَادَةَ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِنَفْخِ الضَّبِّ وَتَوَهُُّبِهِ:

لَقَيْسٍ مِنْ بَغِيضٍ أَقَاصِيًّا أَسَدٌ كَشَّتْ لِفَخْرِ ضِبَابِهَا

وَقَالَ الْآخَرُ:

يَقْطَعُ اللَّهُ الْيَمِينَ الَّتِي جَاجَيْ مَنِيْعٍ بِالْقَنَا مِنْ دَمٍ
كَسَّتْ

ضَبَّ أَعْلَى ذِي دَمِيثٍ ظَلَّ يَمْطُو مِنْ حَبَالِكُمْ

حَبَلْتَمَا

وَالضَّبُّ يُوصَفُ بِشِدَّةِ الْكَبْرِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَحْصَبَ وَأَمِينَ وَصَارَ، كَمَا قَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبَّيبِ،

فَإِنَّهُ ضَرَبَ الضَّبَّ مِثْلًا حَيْثُ يَقُولُ لِيحْيَى بْنُ هَزَّالٍ:

لَأَعْرِفَنَّكَ يَوْمَ الْوَرْدِ ذَا لَعَطِ الْجُزَارَةِ بِالسَّلْمِينَ

مُؤْتَزِرًا الْوَلِيدَةَ وَالرُّعْيَانَ فَاحْلُبْ فَإِنَّكَ حَلَابٌ وَصَرَّارٌ

كُنْتُ أَوَّلَ ضَبِّ صَابٍ تَلَعَّتْهُ فَأَمْرَعُ وَاسْتَرَخْتُ بِهِ

وَقَالَ ابْنُ مِيَادَةَ:

الضَّبُّ أَنْ لَمْ يَرَهَبِ لَهُ مُسْتَكْبِرًا
الضَّبُّ غَيْرُهُ وَيُطَاوَلُهُ

وَقَالَ دَعْلُجٌ عَبْدُ الْمُنْجَابِ:

كَانَ بَيْتُ الضَّبِّ وَسَطَ تَطَاوُلٍ لِلشَّخْصِ الَّذِي هُوَ

الْمَضْبَّةُ: مَكَانٌ ذُو ضِبَابٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا تَكْثُرُ إِلَّا وَبِقَرَبِهَا حَيَّةٌ أَوْ وُورَلٌ، أَوْ ظَرِبَانٌ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَوْضِعٍ بَعِيدٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا أَمِنَ وَخَلَا لَهُ جُوهٌ، وَأَحْصَبَ، نَفَخَ وَكَشَّتْ نَحْوَ كُلِّ شَيْءٍ يُرِيدُهُ.

ما يوصف بالكِبْر من الحيوان ومما يوصف بالكِبْر التَّوْزُ في حال تَشْرُقِه، وفي حالِ مشيته
الجِلاء في الرِّياض، عند غَيْبِ ديمة، ولذلك قال الكُميت:

كشبوِبٍ ذي كِبِرياءٍ من الوَحِّ يَبْتَغِي عليها ظهيرا

وهذا كثيرٌ، وسيقع في موضعه من القول في البقر.

ومما يُوصف بالكِبْر الجملُ القَحْلُ، إذا طافت به نوق الهجمة، ومَرَّ نحو ماءٍ أو كلاً فتبعنه، وقال
الراجز:

تَشْرَدُنْ حِوَالِيهِ وَقَفُ الْجُرْفِ حِمْلَاقِيهِ فِي مِثْلِ
رُضٍّ لِحَدِّ عَيْنِيهِ لِمَا طَرَفُ وَإِعْجَاباً وَعِزّاً وَتَرَفُ
وَالنَّاقَةَ يَشْتَدُّ كِبْرُهَا إِذَا لَقِحَتْ، وَتُرْمُ بِأَنْفِهَا وَتَنْفِرُ عَنْ
صَحَابَاتِهَا، وَأَنْشِدُ الْأَصْمَعِيَّ:

إِذَا أَرَادَ مِنْهَا عِرْسَادَهُمَا مِزْبَاعَ اللَّقَاحِ جَلَسَا
بَعْدَ السَّنَانِ أَنْسَا تَلَقُّنَهُ مَخَاضاً قُعْسَا
اِحْتَشَتْ فِي كُلِّ نَفْسٍ الدَّوَامِ ضَامِرَاتٍ حُرْسَا

حُوصاً مُسِيرَاتٍ لِقَاحاً مُلْسَا
وَأَمَّا قَوْلُ السَّمَّاحِ:

جُمَالِيَّةٌ لَوْ يُجْعَلُ السَّيْفُ حَدَّهُ لاسْتَكْبَرْتُ أَنْ
عَرَضَهَا تَضَوَّرَا
فليس من الأوَّل في شيء.

المذكورون من الناس بالكبر والمذكورون من النَّاسِ بالكِبْرِ، تَمَّ من قريشٍ: بنو محزوم، وبنو
أُمِيَّة، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عُدس خاصة.

فَأَمَّا الْأَكَاسِرَةُ مِنَ الْفَرَسِ فَكَانُوا لَا يُعَدُّونَ النَّاسَ إِلَّا عِبِيداً، وَأَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَرْبَاباً.

ولسنا نُحِبُّ إِلَّا عَنِ دِهْمَاءِ النَّاسِ وَجُمْهُورِهِمْ كَيْفَ كَانُوا، مِنْ مَلُوكٍ وَسُوقَةٍ.

الكبر في الأجناس الذليلة والكبر في الأجناس الدَّليلة من النَّاسِ أَرْسَخَ وَأَعْمُ، وَلَكِنَّ الذِّلَّةَ

وَالقَلَّةَ مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إِلَّا أَهْلُ المَعْرِفَةِ، كعبيدنا من السِّنْدِ،

وَدَمَّتْنَا مِنَ الْيَهُودِ.

والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة، ظهر من كبره على من تحت قدرته، على مراتب القدرة، ما لا خفاء به، فإن كان ذمياً وحسن بما له في صدور الناس، تزيد في ذلك، واستظهرت طبيعته بما يظن أن فيه رفع ذلك الخرق، وحياص ذلك الفتق، وسد تلك الثلثة، فتفق ما أقول لك، فإنك ستجده فاشياً.

وعلى هذا الحساب من هذه الجهة، صار المملوك أسوأ ملكة من الحر.

وشيء قد قتلته علماء، وهو أنني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه.

كبر قبائل من العرب فأما بنو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدس، فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم، لكانوا كبنو هاشم في تواضعهم، وفي إنصافهم لمن دونهم.

وقد قال في شبيه بهذا المعنى عبده بن الطيب، حيث يقول:

الذِينَ تَرَوْنَهُمْ خَلَانِكُمْ
تَصْرَعُوا

فضلت عداوتهم على
أحلامهم

من عجائب الضب فأما ما ذكروا أن للضب أبرين، وللضبة جرين، فهذا من العجب العجيب، ولم نجدهم يشكون، وقد يختلفون ثم يرجعون إلى هذا العمود، وقال الفزاري:

المَالِ عُمَالُ الخِرَاجِ مُحَدِّفَةُ الأَذْنَابِ صُفْرُ
وَجِبُوتِي الشُّوَاكِلِ

الدَّبَابِ وَالبَقَلِ حَتَّى كَسَاهُنَّ سُلْطَانُ ثِيَابِ
كَأَنَّمَا المِرَاكِلِ

سِبْخَلٍ لَهُ نَزَكَانٍ كَانَا فَضِيلَةً
وَتَاعَلِ

كَلَّ ذِيَالٍ إِذَا الشَّمْسُ بَيْنَ عِرْسَيْهِ سُمُو
عَارِضَتْ المَخَايِلِ

واسم أيره الترك، معجمة الزاي والنون من فوق بوحدة، وساكنة الزاي، فهذا قول الفزاري،

وأنشد الكيساني:

تَفَرَّقْتُمْ لَا زِلْتُمْ قِرْنَ وَاحِدٍ أَيْرِ الصَّبِّ وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ
فهذا يؤكد ما رواه أبو خالد النميري، عن أبي حية النميري، قال

أبو خالد: سئل أبو حية عن ذلك، فزعم أن أير الصب كلسان
الحية: الأصل واحد، والفرع اثنان.

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

وبعض أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية - حين أدخلت إبليس في جوفها حتى
كلم آدم على لسانها - بعشر خصال، منها شق اللسان.
قالوا: فلذلك ترى الحية أبداً إذا ضربت لتقتل كيف تُخرج لسانها، تلويه كما يصنع المسترحم
من الناس بإصبعه إذا ترخم أو دعا، لترى الظالم عقوبة الله تعالى لها.
قول بعض العلماء في تناسل الصب قال أبو خالد: قال أبو حية: الأصل واحد، والفرع اثنان،
وللأنثى مدخلان، وأنشد لحي المدنية:

وَدِدْتُ بِأَنَّهُ صَبٌّ وَأَنِي كُذِيَّةٌ وَجَدْتُ خَلَاءَ

قال: قالت هذا البيت لابنها، حين عدلها، لأنها تزوجت ابن أم
كلاب، وهو فتى حدث، وكانت هي قد زادت على النصف،
فتمنت أن يكون لها حيران ولزوجها أيران.
وقال ابن الأعرابي: للأنثى سبيلان، ولرحمها قُرنتان، وهما
زاويتا الرحم، فإذا امتلأت الزاويتان أتامت، وإذا لم تمتلئ
أفردت.

وقال غيرُه من العلماء: هذا لا يكون لذوات البيض والفراخ،
وإنما هذا من صفة أرحام اللواتي يَحْبِلن بالأولاد، ويضعن خلقاً
كخلقهنَّ ويُرْضعن، وكيف تُفرد الضبَّة وهي لم تتئم قط، وهي
تبيض سبعين بيضةً في كلِّ بيضةٍ حِسْل.

قال: ولهذه الحشرات أيورٌ معروفة، إلاَّ أنَّ بعضها أحقر من
بعض، فأما الخصى فشيءٌ ظاهرٌ لمن شقَّ عنها.
تناسل الذباب وجسر أبو خالد، فزعم أنه قد أبصر أير ذباب
وهو يَكُوم ذبابة وزعم أن اسم أيره المُتْك، وأنشد لعبد الله بن
همام السَّلُولي:

رَأَيْتُ الْقَصَرَ عُلِقَ بِابْوَتَعَلَّقَتْ هَمْدَانُ بِالْأَسْبَابِ
أَيَقُنْتُ أَنَّ إِمَارَةَ ابْنِ مُضَارِبٍ يَبْقَ مِنْهَا قَيْسُ أَيْرِ ذُبَابِ
وهذا شعرٌ لا يدلُّ على ما قال.

وقال أصحابنا: إنّما المتك البظر، ولذلك يقال للعلاج: يابن
المتكاء كما يقال له: يابن البظراء.

فيمن استطاب لحم الضب ومن عافه

روى أنّه أتى به على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله، وقال: ليس من طعام
قومي، وأكله خالد بن الوليد فلم يُنكر عليه.
وروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أحلُّه ولا أحترمه، وأنكر ذلك ابنُ عباس وقال: ما

بعثه الله تعالى إلا ليحلّ ويحرّم.

وحرّمه قومٌ، ورووا أنّ أمّتين مُسختا، أخذت إحداهما في البرّ، فهي الصّباب، وأخذت الأخرى في طريق البحر، فهي الجرّيّ.

وروّوا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضبّ، فقال: اعلم أنّك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني إسرائيل.

وقال بعض من يعافه: الذي يدلّ على أنه مسخّ شبه كفه بكفّ الإنسان.

وقال العُدار الأبرص، نديم أيّوب بن جعفر، وكان أيّوب لا يرغب أكل الصّباب، في زمانها، ولها في المزيّد سوقٌ تقوم في ظلّ دار جعفر، ولذلك قال أبو فرعون، في كلمة له طويلة:

الصّباب خير سوق في العرب

وكان أبو إسحاق إبراهيم النّظام والعُدار، إذا كان عند أيّوب قاما عن خوانه، إذا وضع له عليه ضبّ، ومما قال فيه العُدار قوله:

كفُّ إنسانٍ وخلقٌ وكالقرد والخنزير في المسخّ عظاية والغضب

قول العوام في المسخّ والعوام تقول ذلك، وناسٌ يزعمون أن الحيّة مسخّ، والضبّ مسخّ، والكلب مسخّ، والإريبان مسخّ، والفأر مسخّ.

قول أهل الكتاب في المسخّ ولم أر أهل الكتاب يُقرّون بأنّ الله تعالى مسخّ إنساناً قط خنزيراً ولا قرداً، إلاّ أنهم قد أجمعوا أنّ الله تبارك وتعالى قد مسخّ امرأة لوطٍ حَجْرًا، حين التفتت.

وتزعم الأعراب: أنّ الله عزّ ذكره قد مسخّ كلّ صاحب مكّس وجابي خراج وإتاوة، إذا كان ظالماً، وأنه مسخّ ماكسين، أحدهما ذئباً والآخر ضبعاً.

شعر الحكم بن عمرو في غرائب الخلق وأنشد محمّد بن السّكن المعلّم النحويّ، للحكم بن عمرو البهراني، في ذلك وفي غيره شعراً عجباً، وقد ذكر فيه ضرباً كلّها طريف غريب، وكلها باطل، والأعراب تؤمن بها أجمع.

وكان الحكم هذا أتى بني العنبر بالبادية، على أنّ العنبر من بهراء، فنفوه من البادية إلى الحاضرة، وكان يتفقّه ويفتي فتياً الأعراب، وكان مكفوفاً ودهريّاً عُذْمليّاً، وهو الذي يقول:

رَبِّي لِمَا يَشَاءُ قَدِيرٌ لَشَيْءٍ أَرَادَهُ مِنْ مَفَرٍّ
الْمَاكِسِينَ ضَبْعًا وَذَنْبًا تَنَاجَلًا أُمَّ عَمْرٍو
النَّمْلَ وَالْجَرَادَ وَقَفَى الرَّعَافِ فِي حَيِّ بَكْرِ
خَرَقَتْ فَارُهُ بِأَنْفِ ضَيْلٍ مُحَكَّمِ الْأَسَاسِ بِصَخْرِ
فَجَّرْتَهُ وَكَانَ جِيلَانِ عَنْهُ عَاجِزًا لَوْ يَرُومُهُ بَعْدَ دَهْرٍ
الضَّبِّ فِي الْجِدَالَةِ قَسْمَهَيْلِ السَّمَاءِ عَمْدًا بِصَغْرِ
وَالَّذِي كَانَ يَكْتَنِي اللَّهُ قَبْرَهُ شَرَّ

بِرْغَالٍ
كُلُّ ذِي سَفِينٍ وَمَكُوسٍ وَكُلُّ صَاحِبِ

وَمُخْرَجٍ عَشْرٍ
مَنْكَبٍ كَافِرٍ وَأَشْرَاطٍ عَرِيفٍ جَزَاؤُهُ حُرٌّ

وَنَزُوجَتْ فِي الشَّبِيهِ عِزَالٍ وَصَدَقْتِي زُقٌّ
جَمْرٍ

إِنْ هُوَيْتُ ذَلِكَ شِئْتُ لَمْ أَجِدْ غَيْرَ
مِنْهَا

عَمْرٍو وَخَالَهَا مَسْوَعًا خَالِي هَمِيمٌ صَاحِبٌ

خَطَّةٌ بِأَرْضِ بِنَارٍ مَسْحُوهَا فَكَانَ لِي نَصْفٌ

حَوْشٍ وَجَامِلٍ وَعُرُوجٍ مِنَ الْمُؤَبَّلِ دَثِيرٍ
عَكْنَانٍ

الْجَنِّ لَيْسَ فِيهَا تَاجِرٌ وَأَخْرَ مَكْرٍ
الْجِ

عَنْ حَرِيمِهَا كُلِّ سَرَقٍ السَّمْعَ كُلَّ لَيْلَةٍ

فَتَوْ مِنْ الشَّنَقْنِاقِ وَنِسَاءٍ مِنَ الزَّوَابِعِ زَهْرٍ

الْقَوْلُ ذَا الْبَسَاطَةِ رُوثِ الْحِمَارِ فِي كُلِّ
مَسِيًّا

اللَّهُ ذَلِكَ الرَّوْثُ أَنْوَقٍ وَمِنْ طَرُوقَةٍ

بيضا نسر
ضربت فردةً فصارتُ محاق القمير آخر
 شهر
عبدلاً ثمالاً وأخوه مزاحم كان
 بكرى
اليتامى نساء في أهلها غير
وضعتُ تسعةً وكانت نزورا
غلبتني على النجابهِ ما طار في النجابهِ
عرسى
فيهمُ شمائلَ أن النجار صورهُ

كنتُ راكباً ملجماً قنفذاً ومسرج
 حشرات
لا أركبُ الأرانب ولا الضبع أنها ذاتُ
 للحي
المقعصَ المجيفو تدعو الضباع من كلِّ
 النع
للبحار أهدى مجتنى وهضمة
 لعرسى
وأحلى هريزٍ من صدقٍ وأسقى العيالَ من نيلِ

ويسنى المعقودَ نفثى بخفى على السَّواحر
 سحري
وأجوب البلادَ تحتى ضاحكُ سنهُ كثيرُ
 التمرى
ظبيُّ
دبرهُ خواية مكو بالليلِ في العفاريت
 يسرى
يحسبُ الناظرون أئى ابن عشهُ بصفةٍ نهر
 ونمر
يوم أكلت من كبدٍ وأعقبثُ بين ذئبٍ
 اللي
ذا كم كمن يبيتُ شواءٍ ومن قليةٍ

بطيناً
 لاحظتُ خَلَّتِي فِي عيني وعينها السُّمُّ
 يجرى
 أصبحتُ بعد خفضٍ مفرداً محالفَ
 ولهوٍ غَسِرٍ
 أتراني مقتُّ من ذبحٍ وعاديتُ من أهَابِ
 بصقِرِ
 وسمعتُ النقيقَ في ظلمِ فجأوبته بسِرٍ وجهِرِ
 اللي
 يرمي بي الجحيمُ خمير وفي دراهم
 جهاراً
 الإله يرحمُ كبرتي ويقبلُ
 عذري ضعفي

في حل الضب واستطابته

وسنقول في الذين استحلوه واستطابوه وقدموه.

قالوا: الشيء لا يحرم إلا من جهة كتابٍ، أو إجماعٍ، أو حجة عقلٍ، أو من جهة القياس على أصل في كتاب الله عز وجل، أو إجماعٍ، ولم نجد في تحريمه شيئاً من هذه الخصال، وإن كان إنما يُترك من قبل التقزز؛ فقد أكل الناس الدجاج، والشبائط؛ ولحوم الجلالة، وأكلوا السراطين، والعقصور، وفراخ الزنابير، والصحناء والرّيثا فكان التقزز مما يغتذي العذرة رطبةً وبابسة، أولى وأحقّ من كل شيء يأكل الضروب التي قد ذكرناها وذكرها الزجاج حيث يقول:

ضَبٌّ بَيْنَ أَكْنَافِ اللَّوَى الْمُرَارِ وَالْكَبَّاتِ وَالذَّبَّاءِ
 إِذَا مَا نَاصِلِ الْبُهِمَى وَأَجْفَنَتْ فِي الْأَرْضِ أَعْرَافُ
 ارتمى

يباري هُبَّصاً وَسَطَ بَعِيَّتِي قَانِصٍ
 بِالْمَرْتَبَا
 إِذَا أَحْفَقَ مِنْ غَيْرِ بِالْأَكْبَادِ مِنْهَا
 وَالْكُشَى

فإن عفتموه لأكل الدَّبا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا بيضه.
وقد قال أبو حجين المنقريُّ:

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَّ لِأَيْلَقِ فُلٍ وَادٍ لَيْسَ فِيهِ أَذَانُ
أَكَلْنُ صَبًّا بِأَسْفَلِ تَلْوَعِيهِ فُجْ أَكْمَاعِ الْمَدِيدِ خِوَانِي
إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ وَرِيحُهُ لَمْ أَغْسِلْهُمَا بِشُتَانِ
أَشْرَبَنْ مِنْ مَاءِ لَيْنَةٍ عَطَشٍ مِنْ سِوَرِ أُمَّ أَبَانِ

وقال آخر:

لَعَمْرِي لَصَبُّ بِالْعُنَيْزَةِ صَلَافٌ تَضْحَى عَرَاداً فَهُوَ يَنْفَخُ
كَالْقَرْمِ
إِلَيْنَا أَنْ يَجَاوَرَ أَرْضَ صَبَا السَّمَكِ الْبَيْيِّ وَالسَّلْجَمِ
الْوَحْمِ

وقال آخرُ في تفضيل أكل الصَّبِّ:

له يوماً وقد راح
صُحْبَتِي
أبغى صَيْدَهُ وَأَخَاتِلُهُ
التَّقْتُ كَفِّي عَلَى فِضُولِ شَالَتْ شِمَالِي زَائِلَ الصَّبِّ
فَأَصْبَحَ مَحْنُوداً نَضِيجاً تَمَشَّى عَلَى الْقِيْزَانِ حَوْلًا
وَأَصْبَحْتُ حَلَائِلُهُ
اصْفِرَارِ الْكُشَيْتَيْنِ
كَأَمَّا
أَشْهَى عِنْدَنَا مِنْ
بِيَا حِكْمِ
اللَّهِ شَارِيهِ وَقُبْحِ آكِلِهِ
بِوَرْسِ بَطْنِهِ وَشِوَاكِلِهِ

وقال أبو الهندي، من ولد سَبْتِ بْنِ رُبْعِيِّ:

الصَّبَابَ فَمَا عَفْتَهَا
وَرَكَبْتُ زُبْدًا عَلَى تَمْرَةٍ
وَسَمْنِ السَّلَاءِ وَكَمَاءِ الْقَصِيصِ
الْخُرُوفِ حَنِيذًا وَقَدْ
لَأَهْوَى قَدِيدَ الْغَنَمِ
الطَّعَامِ وَنِعْمَ الْأَدْمُ
بِهِ فَائِرًا فِي الشَّبْمِ
زِلْتُ مِنْهَا كَثِيرَ السَّقْمِ

نَلْتُ ذَاكَ كَمَا نَلْتُمْ أَرِ فِيهَا كَصَبِّ هَرَمٍ
فِي الْبُيُوضِ كَبَيْضِ الدَّجَاجِ الْجِرَادِ شِفَاءُ الْقَرَمِ
وَمَكْنُ الصَّبَابِ طَعَامُ الْعُرَيْبِ شَتَّهِهِ نُفُوسُ الْعَجَمِ
وإلى هذا المعنى ذهب جرّان العود، حين أطعم ضيفه صبّاً، فهجاه ابن عمّ له كان يُعْمَرُ في
نسيه، فلما قال في كلمة له:

وَتُطْعِمُ صَيْفَكَ الْجَوْعَانَ صَبّاً دُونَهُ تَمْرًا بَزْبِدٍ
وقال في كلمة له أخرى:

وَتُطْعِمُ صَيْفَكَ الْجَوْعَانَ صَبّاً الصَّبَّ عِنْدَهُمْ عَرِيبٌ
قال جرّان العود:

أَنَّ أَصْلَكَ فَارِسِيٌّ عِبْتُ الصَّبَابَ وَمَنْ قَرَاهَا
الصَّيْفَ مِنْ حُبِّي كَشَاهِلِ الْوَيْةِ إِلَّا كُشَاهَا
وَاللَّوِيَّةُ: الطُّعْمُ الطَّيِّبُ، وَاللَّطْفُ يَرْفَعُ لِلشَّيْخِ وَالصَّبِي، وَقَدْ قَالَ الْأَخْطَلُ:

لَهُمْ هَاتُوا لَوِيَّةَ مَالِكٍ كَانَ قَدْ لَاقَى لَبُوساً
وَمَطْعَمَا

بزماورد الزّنابير وقال مُويس بن عمران: كان بشر بن المعتمر
خاصّاً بالفضل بن يحيى، فقدم عليه رجلٌ من مواليه، وهو أحد
بني هلال بن عامر، فمضى به يوماً إلى الفضل؛ ليكرمه بذلك،
وحضرت المائدة، فذكروا الضب ومن يأكله، فأفرط الفضلُ في
ذمّه، وتابَعَهُ القومُ بذلك ونظر الهلاليُّ فلم ير على المائدة عربياً
غيره، وغازله كلامهم، فلم يلبث الفضل أن أتى بصحفة ملآنة من
فراخ الزّنابير، ليأخذ له منها بزماورد - والدّبر والنحل عند العرب
أجناسٌ من الدّبان - فلم يشك الهلاليُّ أن الذي رأى من دبان
البيوت والحشوش، وكان الفضلُ حين ولي خراسان استظرف
بها بزماورد الزّنابير، فلما قدم العراق كان يتشهاها فتطلبُ له
من كلِّ مكان، فشمت الهلاليُّ به وبأصحابه، وخرج وهو يقول:

يَارِي هُبَّصاً وَسَطَ الْمَلَا بَعَيْتِي قَانِصَ بِالْمُرْتَبَا
إِذَا أَحَقَّقَ مِنْ غَيْرِ الرِّعَا بِالْأَكْبَادِ مِنْهَا وَالْكُشَى

فإن عفتموه لأكل الدّبا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا بيضه.

وقد قال أبو حنين المنقريُّ:

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لِأَيْلِقْفَلٍ وَادٍ لَيْسَ فِيهِ أَذَانٌ
أَكَلَنْ صَبًّا بِأَسْفَلٍ تَلْوَعِيْرٍ فَجْ أَكْمَاعِ الْمَدِيدِ خِوَانِي
إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ وَرِيحُهُ لَمْ أَغْسِلْهُمَا بِشُتَّانِ
أَشْرَبَنْ مِنْ مَاءِ لَيْنَةٍ عَطَشٍ مِنْ سِوَرِ أُمَّ أَبَانِ

وقال آخر:

لَعْمَرِي لَصَبُّ بِالْغُنَيْرَةِ صَلَافٌ تَضْحَى عَرَاداً فَهُوَ يَنْفَخُ
كَالْقَرْمِ
إِلَيْنَا أَنْ يَجَاوَرَ أَرْضَ صَنْبَلِ السَّمَكِ الْبَيْيِّ وَالسَّلْجَمِ
الْوَحْمِ

وقال آخر في تفضيل أكل الصَّبِّ:

لَهُ يَوْمًا وَقَدْ رَاحَ صُحْبَتِي
أَبْغِي صَيْدَهُ وَأَخَاتِلُهُ
التَّقْتُ كَفِّي عَلَى فِضُولِ شَالَتْ شِمَالِي زَائِلَ الصَّبِّ

فَأَصْبَحَ مَحْنُودًا نَضِيجًا تَمَشَّى عَلَى الْقِيْزَانِ حَوْلًا
وَأَصْبَحْتُ حَلَائِلُهُ
اصْفِرَارِ الْكُشَيْتَيْنِ كَأَنَّمَا
بِوَرْسِ بَطْنِهِ وَشِوَاكِهُ
أَشْهَى عِنْدَنَا مِنْ بِيَاكِكُمْ
اللَّهُ شَارِيهِ وَقُبْحِ آكِلُهُ

وقال أبو الهندي، من ولد سَبْتِ بْنِ رُبْعِيَّ:

الصَّبَابَ فَمَا عَفْتَهَا لَأَهْوَى قَدِيدِ الْعَنَمِ
وَرَكِبْتُ زُبْدًا عَلَى تَمْرَةٍ الطَّعَامِ وَنِعْمَ الْأَدْمُ
وَسَمْنِ السَّلَاءِ وَكَمَاءِ الْقَصِيصِ السَّدِيفِ كِبُودُ النَّعَمِ
الْخُرُوفِ حَنِيذًا وَقَدْ بِهِ فَائِرًا فِي الشَّبْمِ
الْبَهْطِ وَحِيَتَائِكُمْ زِلْتُ مِنْهَا كَثِيرَ السَّقَمِ
نِلْتُ ذَاكَ كَمَا نِلْتُمْ أَرِ فِيهَا كَصَبِّ هَرَمِ
فِي الْبُيُوضِ كَبِيضِ الدَّجَاجِ الْجِرَادِ شِفَاءُ الْقَرْمِ
وَمَكْنُ الصَّبَابِ طَعَامُ الْعُرَيْبِ شُتْهِهِ نُفُوسُ الْعَجْمِ

وإلى هذا المعنى ذهب جران العود، حين أطمع ضيفه صباً، فهجاه ابن عم له كان يُغمز في نسيه، فلما قال في كلمة له:

وَتُطْعِمُ صَيْفَكَ الْجَوْعَانَ صَبًا دُوْتَهُ تَمْرًا بَزْبِدٍ

وقال في كلمة له أخرى:

وَتُطْعِمُ صَيْفَكَ الْجَوْعَانَ صَبًا الصَّبَّ عِنْدَهُمْ عَرِيبٌ

قال جران العود:

أَنَّ أَصْلَكَ فَارِسِيٌّ عِبْتِ الصَّبَابَ وَمَنْ قَرَاهَا

الضَيْفَ مِنْ حُبِّي كُشَاهَلَوِيَّةٍ إِلَّا كُشَاهَا

واللَّوِيَّةُ: الطُّعْمُ الطَّيِّبُ، واللُّطْفُ يرفع للشيخ والصبي، وقد قال الأخطل:

لَهُمْ هَاتُوا لَوِيَّةَ مَالِكٍ كَانَ قَدْ لَاقَى لَبُوسًا
وَمَطْعَمَا

بزماورد الزنابير وقال موبس بن عمران: كان بشر بن المعتمر خاصاً بالفضل بن يحيى، فقدم عليه رجل من مواليه، وهو أحد بني هلال بن عامر، فمضى به يوماً إلى الفضل؛ ليكرمه بذلك، وحضرت المائدة، فذكروا الضب ومن يأكله، فأفرط الفضل في ذمه، وتابعه القوم بذلك ونظر الهلالي فلم ير على المائدة عربياً غيره، وغاظه كلامهم، فلم يلبث الفضل أن أتى بصحفة ملآنة من فراخ الزنابير، ليأخذ له منها بزماورد - والدبر والتحل عند العرب أجناس من الذبان - فلم يشك الهلالي أن الذي رأى من ذبان البيوت والحشوش، وكان الفضل حين ولي خراسان استظرف بها بزماورد الزنابير، فلما قدم العراق كان يتشهاها فتطلب له من كل مكان، فشمت الهلالي به وبأصحابه، وخرج وهو يقول:

يَعَافُ الصَّبُّ لَوْمًا وَبَعْضُ إِدَامِ الْعِلْجِ هَامٌ دُبَابٍ
وَبَطْنَةٌ

أَنْ مَلَكًا فِي الْمَلَانَاكِ أُمَّه لَقَدْ أُوتِيَتْ قَصَلَ خَطَابٍ

شعر أبي الطروق في مهر امرأة لما قال أبو الطروق الضبي:

يَقُولُونَ أَصْدِقُهَا جَرَادًا جَرَدَتْ بَيْتِي وَبَيْتِ
وَصَبَّةً عِيَالِيَا

وَأَبْقَتْ ضِبَاباً فِي الصُّدُورِ لَكَ مِنْ دَعْوَى تُصِمُّ
جَوَاثِمًا
وَعَادِيَتْ أَعْمَامِي وَهَمْ شَيْدُبُونِ شَطَرَ اللَّيْلِ نَحْوِي
الْأَفَاعِيَا
كَانَ فِي قَعْبٍ وَقَوْسٍ وَإِنْ لَأَقُطَ مَا بَلَّغَنِي فِي الْمَهْرِ

فقال أبوها:

كَانَ قَعْبًا رَضَّ قَعْبُكَ جَنْدَلٌ كَانَ قَوْسًا كَانَ لِلنَّبْلِ

فقال عمُّها: دعوني والعبد.

شعر في الضبِّ

وأنشد للدُّبَيْرِي:

عَبِدِ اللَّهِ إِنِّي وَجَدْتُكُمْ هَرَجَةَ الضَّبِّ الَّذِي يَتَذَلُّ
قال: هي لينة، وعودها لين، فهو يعلوها إذا حضروا بالقيظ، ويتشوف عليها، ولست ترى
الضبَّ إلا وهي سامية برأسها، تنظر وترقب، وأنشد:

يَكُونُ الْحَيْمَ أَطْلَالَ أَهْلِهَا حَضَرُوا بِالْقَيْظِ وَالضَّبِّ

وقال عمرو بن خويلد:

حُسَيْلُ أَشْهَرَ الصَّيْفِ عَمْرٍو مَا يُحَلُّ لَهَا رَحْلُ
ابْتِنَيْتَا بَيْنَنَا لِمَعِيشَةٍ لَمَّا نَبْنِي فِيهِدْمُهُ حِسْلُ
ويزعم حِسْلُ أَنَّهُ فَرَعُ قَوْمِهِ أَنْتَ فَرَعُ يَا حُسَيْلُ وَلَا

بِحَادِي النَّجْمِ تَسْعَى وَلَدَتْ بِالنَّحْسِ دِيَانَهَا

بسعيه

استطرد لغوي وهم يسمون بحسل وحسيل: وضبّ وضبة، فمنهم ضبة بن أدّ، وضبة بن محض، وزيد بن ضبّ، ويقال: حفرة ضب، وفي قريش بنو حسل، ومن ذلك ضبة الباب،

ويسمى حَلْبُ الناقة بخمس أصابع ضَبًّا، يقال ضَبَّها يضَبُّها ضَبًّا: إذا حلبها كذلك، وضَبَّ الجرح
وَبَضَّ: إذا سال دماً، مثل ما تقول: جذب وجذب، وإِنَّه لَحَبُّ ضَبِّ، وإِنَّه لأخْذع من ضَبِّ،
والضَبُّ: الحقد إذا تمكَّن وسرَّت عقاربُه، وأخفى مكانه، والضَّبُّ: ورمٌ في خفِّ البعير، وقال
الترّاجز:

بذي عرك ولا ذي ضبِّ

ويقال ضَبُّ حَدِغٌ، أي مراوغٌ، ولذلك سموا الخزانة المَخْدَع، وقال راشد بن شهاب:

فلم تَحْدَعْ بعينيَّ نَعْسَةً
ووالله ما دَهْرِي بعشوق ولا

وقال ذو الرُّمَّة:

مناسِمها حُثْمٌ صِلابٌ كأظْهائِ
الضُّبابِ استخرَجَتْها

شعر فيه ذكر الضبِّ وبدلُّ على كثرةِ تصرّفهم لهذا الاسم ما أنشدناه أبو الرُّدَيْنِي:

يَعْقِرُ التَّقْبِيلَ إِلا رُبِّي
والضَّبُّ فِي صَوَانِهِ مُجَبِّ

وأنشدنا أبو الرُّدَيْنِي العُكَلِيّ، لطارق وكنيته أبو السَّمَّال:

سَمَّالٌ أَلَمَّا تَدْرِي
يَكْفِيكَ رِفْدِي رَجلاً دَا وَفَرِ
عَلَى مَيَّاسِرِي وَعَسْرِي
تَعْدَى قَالَ تَمْرِي تَمْرِي
المِثَالِيثِ صَغِيرِ الأَيْرِ
بَيْنِ الدَّرِي وَالكِسْرِ
تَصَحَّى بِمَكَانٍ قَفْرِ

وقال أعرابي:

اصطدثُ يا يقظان ضَبًّا
يَكُنُ
لِيُضْطادَ ضَبُّ مِثْلُهُ بِالْحَبَائِلِ
رِغَاءُ الشَّاءِ يَرْتَمِضُونَهُ
عَظِيمُ الكَشَى مِثْلُ الصَّيِّ إِذَا
السَّحَابِ
الضُّبابِ جِسْلُهُ فِي

وقال العماني:

لأرْجُو مِن عَطَايَا رَبِّي
رُومِيَّةٌ أَوْلَجُ فِيهَا صَبِّي
وَلِيَّ العَهْدِ بَعْدَ الغِبِّ
حُرٌّ مُسْتَهْدِفٌ كَالقَبِّ

مُسْتَحِصِفُ نِعْمِ قَرَابِ الرُّبِّ

وقال الآخر:

اصْطَلَحُوا عَلَى أَمْرٍ تَوَلَّوْا أَجْوَاهِمُ مِنْهُ صِبَابٌ
وقال الزُّبْرَقَانُ بْنُ بَدْرٍ:
المَوَالِي صَبَّ جَنْدَلِيَّةٍ المَرْوَّةُ نَاقِصُ الشَّيْبِ
فَالأَوَّلُ جَعَلَ أَيْرَهُ صَبَّأً، وَالثَّانِي جَعَلَ الحَقْدَ صَبَّأً.

وقال الخليل بن أحمد، في ظهر البصرة مما يلي قَصْرِ أُنْسٍ:

وَادِي الْقَصْرِ نِعْمَ الْقَصْرُ مِنْ زُورَةٍ عَنِ غَيْرِ
وَالوَادِي مِيعَادِ
بِهِ السُّفْنُ كَالظُّلْمَانِ الصَّبِّ وَالنُّونُ وَالْمَلِاحُ
وَاقِفَةٌ وَالْحَادِي

وقال في مثل ذلك ابنُ أَبِي عُيَيْنَةَ:

فَاتَتْ الْجَنَانَ فَمَا فَاتَتْهَا وَطَنًا
فَاتَتْهَا الصَّبَابَ بِهَا
قِيمَةٌ وَلَا تَمَنُّ قَوَادِي لِأَهْلِهَا وَطَنُ
كَتَنَةٌ وَذَا خَتَنُ الأَرِيْبِ المِفْكَرُ القَطِرُ
سُفْنٌ كَالنَّعَامِ مَقْبَلَةٌ نَعَامٌ كَأَنَّهَا سُفْنُ

وقال عقبه بن مُكَدَّمٍ فِي صِفَةِ القَرَسِ:

مَنْخِرٌ إِذَا رَفَعَنَّهُ المُّجَارَاةُ مِثْلُ وَجْرِ
الصَّبَابِ

وَأَنشَد:

لَوْ دُقَّتِ الكُشَى بِالأكْبَائِرِ كَتَّ الصَّبِّ يَسْعَى بِالوَادِ

وقال أَبُو حَيَّةِ التُّمَيْرِي:

وَقَرَّبُوا كُلَّ قِنَعِاسٍ قُرَاسِيَّةٍ لَيْسَ بِهِ صَبٌّ وَلَا سَرُّ

وقال كثير:

وَمَحْتَرِشُ صَبِّ العَدَاوَةِ الرَّقِي حَرِشُ الصَّبَابِ
مِنْهُمْ الخَوَادِيعُ

وقال كَثِيرٌ أَيْضاً:

زالت رُقالك تَسُلُّ ضِعْفِي خَرَجٌ مِنْ مِضَائِبِهَا ضِبابي

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

فأما الذين ذمُّوا الضب وأكَّله، وضربوا المثل به وبأعضائه وأخلاقه وأعماله، فكما قال التميمي:

لِكِشْرِي كَانَ أَغْقَلَ مِنْ تَمِيمٍ قَرَّ مِنْ أَرْضِ الضَّبَابِ
فَأَنْزَلَ أَهْلَهُ بِبِلَادِ رَيْفٍ وَأَشْجَارِ وَأَنْهَارِ عِذَابِ
بَنُو بَنِيهِ بِهَا مَلُوكًا وَصَرْتًا نَحْنُ أَمْثَالُ الْكِلَابِ
رَجِمَ إِلَهُ صَدَى تَمِيمٍ أُرْرِي بِنَا فِي كُلِّ بَابِ

وقال أبو نواس:

تَمِيمِيُّ أَتَاكَ مُفَاخِرًا عَدُّ عَنِّ دَا كَيْفَ أَكَّلَكَ
لِلضَّبِّ
أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً وَبَوْلِكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاكِلِكَ
وَالْكَعْبِ

وقال الآخر:

هَمْ وَرَوَى اللَّهُ أَرْضَهُمْ كُلُّ مُنْهَمِرِ الْأَحْشَاءِ ذِي
سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا غَنِيثٌ قَلَجٍ عَلَى الْيَنْسُوعِ
فَالْعُقْدِ
مُوَاطِنٌ مِنْ تَمِيمٍ غَيْرِ مَعْجِبَةٍ الْجَفَاءِ وَعَيْشِ الْبُؤْسِ
وَالضَّرْدِ
تَفَعَّلُهُ الْكِرَامِ كَرِيمِ الْأَمْرِ سَعْدٌ بِمَا تُلْقِي إِلَى
الْمَعْدِ
أَصْحَابِ ضَبٍّ وَيَرْبُوعِ وَعَيْشَةٍ سَكَنُوا مِنْهَا عَلَى
وَحْنِظَلَةٍ صَمَدِ
يَأْكُلُوا الضَّبَّ بَاتُوا مُخَوِّبِينَهَا الْجُوعُ إِنْ بَاتَتْ وَلَمْ

سَعْدًا لَهَا رَيْفٌ لَقَدْ كَمَا دُفِعَتْ عَنْ صَالِحِ
دُفَعَتْ الْبَلَدِ

يقارع سعداً عن مفازتها
ينافسها في عيشها النكد

وقال في مثل ذلك عمرو بن الأهتم:

وتركتنا عميرهم رهن صبغسلحبا ورهن طلس الدئاب
منزل الصيافة منا فقرى القوم غلمة الأعراب
ورددتاهم إلى حرثيهم لا يأكلون غير الصباب

وقالت المرثية:

بحارشة الصباب كأنما بنت الحارث بن عباد

وقائلة هذا الشعر امرأة من بني مرّة بن عباد.

وقال الحارث الكندي:

لعمرك ما إلى حسن أنحنّا جئنا حسينا يا بن أنس
ضب جندلة أتينا في مضابئها يفسني
أن أتيناه وقلنباجتنا تلون لون ورس
بكفه يحتك صرسا أته وجع بصرس
لصاحبي أبه كزار أسره أتراه يمسي
هارين معا جميعا أن نرن بقتل نفس
وقالت عائشة ابنة عثمان، في أبان بن سعيد بن العاص، حين

خطبها، وكان نزل أيلة وترك المدينة:

بيت الصب لا أنت ضائر ولا مستنفعاً أنت نافع

وقال جرير:

بيت صبة في تميم الصب ليس له سوارى

وقال آخر - وهذا الشعر يقع أيضاً في الصباع كما يقع في الصباب -:

صبع الأكهاف ذات الشعولوثب للعنز وغير الوثب
ولا تخشين إلا سبفلسط بالطب ولا ابن الطب
أدع بيتك بيت الصب عند ذي القرد المكب

وقال الفرزدق:

الله ماء حبل خير أهله صبة عند الصفاة مكون

عَلِمَ الْحَجَّاجُ عِلْمَكَ لَمْ تَبِعْ مَاءً مُسْلِمًا بِيَمِينِ

وأنشد:

زَعَمْتَ أَنَّ الضَّبَّ أَعْمَى وَوَلَمْ يَأْخُذْ بِأَعْمَى وَلَكِنْ فَاتَ وَهُوَ بَصِيرٌ

الضَّبُّ أَعْمَى يَوْمَ يَخِينُ بِصَحْرَاءِ الْبِياضِ غَرِيبٌ

وقالت امرأة في ولدها وتهجو أباه:

مَنْ ذِي تُفَالٍ خَبٌّ بِمَعشُوقٍ وَلَا مُحَبٌّ عَيْنًا مِثْلَ عَيْنِ الضَّبِّ

وقال رجلٌ من فزارة:

وَجَدْنَاكُمْ رَأْبًا بَيْنَ أُمَّ قِرْكَلَيْسَانَ حِسْلٍ لَا وَفَاءً وَلَا عَدْرٌ

وأنشد:

ثَلَاثُونَ رَأْبًا أَوْ تَزِيدَ ثَلَاثَةً يِقَاتِلُنَا بِالْقَرْنِ أَلْفٌ مَقْتَعٌ

والرأب: السواء، والمعنى الأول يشبه قوله:

سَوَاسٍ كَأَسْنَانَ الْحَمَارِ فَلَا شَيْبَةَ مِنْهُمْ عَلَى نَاشِيٍّ

وأنشد ابنُ الأعرابي:

قُبِّحَتْ مِنْ سَالِقَةٍ وَمِنْ صُدْعٍ كُشِيَةَ ضَبٌّ فِي صُقْعٍ

أراد صُقْعٌ بالعين فقلب، وقال الآخر:

مِنْ ضَبٍّ وَأُفْسَى مِنْ ظَرْبٍ

وأنشد:

فَجَاءَتْ تَهَابَ الدَّمِّ لَيْسَتْ سَلْفِعٌ يَلْقَى مِرَاسًا زَمِيلُهَا

يقول: لا تخدع كما يخدع الضَّبُّ في جُحْرِهِ.

وأنشد ابنُ الأعرابي لحَيَّانَ بنِ عبيدِ الرِّبَعِيِّ جدِ أبي محضَةَ:

سَهْلٌ لَوْ رَأَيْتَهُ يَوْمَ الْجُفْرِ يَسْعَى يَسْتَجِيرُ لِلْسُّوْرِ

عَنْ الصَّفْوِ وَيَرْضَى لِأَزْدَدَتْ مِنْهُ قَدْرًا عَلَى قَدْرٍ

بِالْكَدْرِ

كَأَنَّهَا سَيْرٌ حَوْرٌ

يضحك عن ثغر ذميم
المُكْتَشَّرُ

وعارضٍ كعارضِ الصَّبِّ الذَكَرِ

وأنشد السُّدْرِي:

الْقَرْنَبِيُّ وَمَشِيُّ الضَّبِّ وَخُصِيَّتَا صَرَصْرَانِي مِنَ الْإِبِلِ
تعرفهُ

وَالْخَالُ ذُو فُحْمٍ فِي الْجَزْيِ عَاتِقٌ يَتَعَقَى مَائِضَ الرَّجْلِ
صادقة

واعلم، حفظك الله تعالى، أنه قد أكتفي بالشاهد، وتبقى في الشعر فصلة، مما يصلح

لمذاكرة، ولبعض ما بك إلى معرفته حاجة، فأصله به، ولا أقطعه عنه.

وأنشد لابن لجأ:

وَعَتَوِي يَزْتَمِي بِأَسْنُهُمْ يَلْصِقُ بِالصَّخْرِ لَصُوقَ الْأَرْقَمِ
سئَمَ الضَّبُّ بِهَا لَمْ يَسَامَ

وقال أعرابيٌّ من بني تميم:

تَسَخَّرُ مِنِّي أَنْ رَأَيْتَنِي أَحْتَرِشُ
حَرَشْتِ لَكَشَفْتِ عَنِ
حِرْشِ

يريد عن حرك.

قال: وقال أبو سعنة:

قَلَهْرَمَانٍ جَعَدُهُ لِحَاهُمَا عَادَاهُمَا اللَّهُ وَقَدْ عَادَاهُمَا
كُدِّي قَدْ غَمَّرَتْ كَشَاهُمَا

وأنشد الأصمعي:

وَجَدْتُكَ يَا جُرْثُومُ مِنْ نَهْرِ
جِرْثُومَةُ اللَّوْمِ لَا جُرْثُومَةَ
الْكِرْمِ

وَجَدْنَا بَنِي جَلَانَ كُلَّهُمْ
كَيْسَاعِدِ الصَّبِّ لَا طَوْلُ وَلَا

وقال ابن ميادة:

لَقَيْسٍ مِنْ بَغِيضٍ لِنَاصِرٍ أَسْدُ كَشَّتْ لِفَخْرِ ضِبَابِهَا

وفي هذه القصيدة يقول:

أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ الشَّمْسِ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْكَ
أَقْسَمْتُ حَجَابُهَا

وهذا من شكل قول بشّار:

غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْرِبِيَّةً حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ
مُضْرَتْ دَمَا

وأنشد لأبي الطَّمْحَانِ:

تَمِيرُ فَإِنَّكُمْ أَمْسِيْتُمْ بَتَّغْرَ تَنِيَّةٍ لَمْ تَسْتَرِ
كَأَنَّكُمْ ذَنَابُ خَطِيئَةِ الْبِلَادِ وَجِزْمُهَا لَمْ يُمَطِّرِ
يَحْبُونَ بَيْنَ أَجَاً وَبُرْقَةٍ عَالِجِ الصَّبَابِ إِلَى أَصُولِ
السُّخْبَرِ
وَتَرَكْتُمْ قَصَبَ الشُّرَيْفِ تَنِيْتُهُ كَعَيْنِ الْأَعُورِ
طَوَامِيَا

مفاخرة العُتِّ للضبِّ

وقال العُتِّ، واسمه زيد بن معروف، للضب غلام زُبَيْلِ بْنِ عَلَاقٍ: وقد رأيت من سَمِي عَنزاً
وثوراً، وكلباً، وبربوعاً، فلم نر منهم أحداً أشبهه العنز ولا الثَّور، ولا الكلب، ولا اليربوع، وأنت قد
تَقَيَّلْتَ الصَّبَّ حَتَّى لَمْ تَغَادِرْ مِنْهُ شَيْئاً، فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَلَمَّا قَالَ:

كَانَ يَدْعِي بِاسْمِي لَا يَنَاسِبُهُ وَالْإِسْمُ شَنٌّْ فَوْقَهُ طَبَقُ
فَقَالَ صَبُّ لَعْتٍ:

كُنْتُ صَبًّا فَإِنَّ الصَّبَّ وَالضَّبُّ ذُو تَمَنٍ فِي السُّوقِ
مُحْتَبَلٌ مَعْلُومٌ
وَلَيْسَ لِلْعُتِّ حَبَالٌ يُرَاوِجُهُ وَلَيْسَتْ شَيْئاً سِوَى قَرْضِ
وَتَقْلِيمِ

وما أكثر ما يجيء الأعرابي بقربةٍ من ماء، حتى يفرغها في جحره، ليخرج فيصطاده، ولذلك
قال الكميت في صفة المطر الشديد الذي يستخرج الصَّبَابَ مِنْ جِحْرَتِهَا، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَتَّخِذُهَا
إِلَّا فِي الْإِرْتِفَاعِ - فَقَالَ:

بَتْرَكْهَا تَحْفَشُ الْأَكُّ وَيَكْفِي الْمَضْبَبَ التَّفْجِيرُ
وَالْمَضْبَبُ هُوَ الَّذِي يَصِيدُ الصَّبَابَ.

القول في سن الضب وعمره

أنشد الأصمعي وغيره:

تعلقت واتصلت بعكلى خطبي وهزرت رأسها تستبلي
تسألني من السنين كم لي لو عمرت عمر الحسل
عمر نوح زمن الفطخلو الصخر مبتل كطين الوحل
صرت رهين هرم أو قتل

وهذا الشعر يدل على طول عمر الحسل؛ لأنه لم يكن ليقول:

عمر نوح زمن الفطخلو الصخر مبتل كطين الوحل
إلا وعمر الحسل عنده من أطول الأعمار.

وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن بين الضب واحدة

أبدأ، وعلى حال أبدأ، قال فكأنه قال: لا أفعله ما دام بينها

كذلك، لا ينقص ولا يزيد.

وقال زيد بن كثوة: سن الحسل ثلاثة أعوام، وزعم أن قوله ثمّة:

لا أفعله سن الحسل غلط، ولكن الضب طويل العمر إذا لم

يعرض له أمر.

وسن الحسل مثل سن القلوص، ثلاث سنين، حتى يلقح؛ ولو

كانت سن الحسل على حال واحدة أبدأ لم تعرف الأعراب

الفتي من المدكي.

وقد يكون الضب أعظم من الضب وليس بأكبر منه سناً.

قال: ولقد نظرتُ يوماً إلى شيخٍ لنا يُفَرُّ صَبًّا جَحَلًا سَبَحَلًا قد اصطاده، فقلت له: لم تفعل ذلك؟ فقال: أرجو أن يكون هرماً.

بيض الضب

قال: وزعم عمرو بن مسافر أن الصَّبَّة تبيض سَتِّين بيضة، فإذا كان ذلك سَدَّت عليهن باب الجحر، ثم تدعهن أربعين يوماً فيتفكَّص البيض، ويظهر ما فيه، فتحفر عنهنَّ عند ذلك، فإذا كَشَفَتْ عنهنَّ أَحْضَرْنَ وأحْضَرَتْ في أثرهن تأكلهن، فيحفر المنفلت منها لنفسه جُحراً وَيَزْعَى من البقل.

قال: وبيض الضبِّ شبيهُ ببيض الحمام، قال: وفرخه حين يخرج يُخْرَج كَيْسًا كاسيًّا، خبيثًا، مُطِيقًا للكسب، وكذلك ولد العقرب، وفراخ البطِّ، وفراريج الدجاج، وولد العناكب.

سنّ الضب

وقال زيد بن كَنُوة، مَرَّةً بعد ذلك: إنَّ الضب ينبت سِنُّهُ معه وتكبر مع كِبَر بدنه، فلا يزال أبدأً كذلك إلى أن ينتهي بدُّهُ مُتَّهَاه قال: فلا يُدعى جِسلاً إلا ثلاثَ ليالٍ فقط. وهذا القول يخالف القول الأوَّل، وأنشَد:

مَهْرُهَا بعد المِطَالِ صَبَّيْنِ الضبابِ سَحْبَتَيْنِ سَبَطَيْنِ
لِعَمْرِ اللهِ مَهْرُ العِرْسَيْنِ

أنشدني ابن فَصَّال: أمَّهَرْتَهَا وزعم أنه كذلك سَمِعَهَا من
أعرابيِّ.

وقد يكون أن يكون الحسل لا يُتْنِي ولا يُزْبِع، فتكون أسنائه أبداً
على أمر واحد، ويكون قول رؤبة بن العجاج في طول عمره
حَقًّا.

ويدلُّ على أن أسنائه على ما ذكروا قولُ الفزاريِّ:

وجدناكم رباباً بني أمِّ قِرْكَلِيسانِ حِسلٍ لا وَفَاءٌ ولا غَدْرٌ
يقول: لا زيادة ولا نقصان.

قصة في عمر الضب

وقال زيد بن كَثَّوة المزني: قال العنبريِّ، وهو أبو يحيى: مكثتُ
في عنفوان شَبِيبَتِي، ورِيعانٍ من ذلك، أُرْبِعُ صَبًّا، وكان ببعض
بلادنا في وِشاز من الأرض، وكان عظيماً منها مُنْكَراً، ما رأيتُ
مِثْلَهُ، فمكثتُ دَهْرًا أُرْبِعُهُ ما أقدر عليه، ثم إني هبطت إلى
البصرة، فأقمت بها ثلاثين سنةً، ثمَّ إني واللَّهِ كَرَرْتُ راجعاً إلى
بلادِي، فمررتُ في طريقي بموضع الصَّبِّ، معتمداً لذلك،
فقلت: واللَّهِ لأعلمنَّ اليومَ عِلْمَهُ، وما دَهْرِي إلا أن أجعل من

جلده عُكَّة؛ للذي كان عليه من إفراط العِظَم، فوجَّهت الرّواحل نحوه، فإذا أنا به والله مُخْرِبُناً على تَلعة؛ فلما سمع حِسَّ الرّواحل، ورأى سواداً مقبلاً نحوه، مرَّ مسرعاً نحو جحره، وفاتني والله الذي لا إله إلا هو.

مكن الصَّبة

وقال ابن الأعرابي: أخبرني ابن فارس بن ضَبْعان الكلبي، أن الصَّبة يكون بيضها في بطنها، وهو مَكْنها، ويكون بيضها مَنَسِقاً، فإذا أرادت أن تبيضه حفرت في الأرض أدحياً مثل أدحِيٍّ النعام، ثم ترمي بمكنها في ذلك الأدحِيٍّ ثمانين مَكْنة، وتدفنه بالتراب، وتدعه أربعين يوماً، ثم تجيء بعد الأربعين فتبحث عن مَكْنها، فإذا حسَّلتها يتعادين منها، فتأكل ما قدرت عليه، ولو قدرت على جميعهن لأكلتهن، قال: ومَكْنها جلد لِيْن، فإذا يبست فهي جلد، فإذا شوَّيَّتها أو طبختها وجدت لها مُحَّا كَمَحِّ بيض الدجاج.

عداوة الصَّبة للحية

قال: والصَّبَّةُ تقاتل الحية وتضربها بَدَنبها، وهو أخشن من السَّقَن وهو سلاحها، وقد أُعْطيت فيه من القُوَّة مثل ما أُعْطيت العُقَاب في أصابعها، فربما قطعها بضربة، أو قتلها، أو قَدَّتْها، وذلك إذا كان الصَّبُّ دَيَّالاً مَذْبَباً وإذا كان مرائساً قتلته الحية. والتذنيب: أن الصَّبَّ إذا أرادت الحية الدُّخول عليه في جُحره أخرج الصَّبُّ ذنبه إلى فم جُحره، ثم يضرب به كالمخراق يميناً وشمالاً، فإذا أصاب الحية قطعها، والحية عند ذلك تهزُّبُ منه، والمرءسة: أن يُخْرِج الرَّأس ويدعَّ الدَّئب ويكون عُمرأ فتعضُّه الحية فتقتله.

استطرد لغوي قال: وتقول: أمكنت الصَّبَّة والجرادة فهي تمكن إمكاناً: إذا جمعت البَيضَ في جوفها، واسم البَيض المَكْن، والصَّبَّة مَكُون، فإذا باضت الصَّبَّة والجرادة قيل قد سرأت، والمكن والسَّرء: البيض، كان في بطنها أو بعد أن تبيضه، وصَبَّة سَرُوء، وكذلك الجرادة تسرأ سرءاً، حين تُلقِي بيضها، وهي حينئذ سِبْلقة.

وتقول: رَزَّت الجرادة ذنبها في الأرض فهي ترزُّ رزاً، وضربت بذنبها الأرض ضرباً، وذلك إذا أرادت أن تلقي بيضها.

المضافات من الحيوان ويقولون: ذئب الخمر، وشيطان الحماسة، وأرنب الخلة، وتيس الرّبل، وضبّ السّحا، والسّحا: بقلة تحسّن حاله عنها.

ويقال: هو قنفذ بُرّقة، إذا أراد أن يصِفَه بالحُبث.

ذكر الشعراء للضب في وصف الصيف

وما أكثر ما يذكرون الضبّ إذا ذكروا الصيف مثل قول الشاعر:

أبو مسلمٍ عنها والضبُّ في الجحر والعصفورُ
بصرمته مُجمَعُ
وكما قال أبو زبيد:

ساعٍ سَعَى ليقطع لاحت للصّباح الجوزاءُ
شربِي واستكنَّ العصفور كرهاً مع
وأوفى في عُوده الجرباءُ

وأنشد الأصمعيّ:

تجاوَزْتُ والعصفور في الجحلصِّبِّ والشَّقْدَانُ تَسْمُو
صدورها
قال: والشَّقْدَانُ: الحرّابيّ، قوله: تسمو: أي ترتفع في رؤوس
العيدان، الواحد من الشَّقْدَانِ، بكسر الشين وإسكان القاف،
شَقْد بتحرك القاف.

أسطورة الضب والصفدع

وتقول الأعراب: خاصم الضبُّ الضفدعُ في الظلِّمَ أَيْهُمَا أصبر،
 وكان للضفدع ذئب، وكان الضبُّ ممسوحَ الذئب، فلما غلبها
 الضبُّ أخذ ذئبها فخرجا في الكلاء، فصبرت الضفدع يوماً ويوماً،
 فنادت: يا ضبُّ، ورداً ورداً فقال الضبُّ:

قَلْبِي صَرِدَا يَبْشَتَهِي أَنْ يَرِدَا
 عَرَاداً عَرِدَا وَصَلِيَانَا بَرِدَا
 فلما كان في اليوم الثالث نادت: يا ضبُّ، ورداً ورداً قال: فلماً لم يُجِبها بادرتُ إلى الماء،
 وأتبعها الضبُّ، فأخذ ذئبها، فقال: في تصدقِ ذلك ابن هزيمة:

تَأْرَقُ لَضَوْءِ الْبَرِّ	فِي أَسْحَمَ لَمَّاحِ
كَأَعْنَاقِ نِسَاءِ الْهِنِّ	شَيَّبَتْ بِأَوْضَاحِ
الْوَدْقِ كَالرَّاحِ	يُرْجَى خَلْفَ أَطْلَاحِ
الْعَازِفِ الْجَنِّ	أَصْوَاتِ أَنْوَاحِ
أَرْجَائِهَا الْعُرِّ	تَهْدِّيْهَا بِمُضْبَاحِ
الضَّبِّ لِلضَفْدِ	بَيْدَاءِ قِرْوَاحِ
كَيْفَ تَنْجُو الْيَوْمِ	كَرْبِ وَتَطْوِاحِ
سَبَاحِ نَاجِ	أَنْتِ بِسَبَّاحِ
دِقِ أَنْفِ الْمَرِّ	أَبْدَى خَيْرِ إِرْوَاحِ
الْمَاءِ مِنْ مُسْتَحِ	بِالْمَاءِ سَحَّاحِ
الضَّبِّ مِنَ الضَفْدِ	عَوْمًا غَيْرِ مَنجَاحِ
الْعُضْمِ يُهْوِيْهَا	غَيْرِ تَشَّاحِ
الْمَشْيِ كَالسَّكْرَا	يَمْشِي خَلْفَهُ الصَّاحِي

ثم قال في شأن الضفدع والضب، الكميثُ بن ثعلبة:

أَحْذِهَا يَوْمَ غِبِّ الْوُرُودِ الْحُكُومَةَ أَذْتَابَهَا

وقال عبيد بن أيوب:

ظَلَلْتُ وَنَاقَتِي نِضْوِي فَلَإِ الضَّبُّ لَا يَبْغِي وَرُودَا

وقال أبو زياد: قال الضبُّ لصاحبه:

أَهْدَمُوا بَيْتَكَ لَا أَبَالَكَا وَزَعَمُوا أَنَّكَ لَا أَخَالَكَا
أَمْشِي الْحَيْكِي حَوَالِكَا

قول العرب أروى من الضب

وتقول العرب: أَرَوَى من ضَبٍّ؛ لأن الضب عندهم لا يحتاج إلى شرب الماء، وإذا هَرِمَ اكتفى بَبَرْدِ التَّسِيمِ، وعند ذلك تَفْنَى رطوبته فلا يبقى فيه شيءٌ من الدَّم، ولا مما يُشْبِه الدَّم، وكذلك الحَيَّة، فإذا صارت كذلك لم تَقْبَلُ بلعاب، ولا بمَجَاج، ولا بمخالطة ريق؛ وليس إلا مخالطة عظم السِّنِّ لدماء الحيوان، وأنشدوا:

من حَنَسَ أَعْمَى أَصَمَّ عَاشَ حَتَّى هُوَ لَا يَمْشِي

أَقْصَدَ مِنْهُ الْجَوْعُ شَمَّ

وأما صاحبُ المنطق فإنه قال: باضطرار إنه لا يعيش حيوانٌ إلا

وفيه دُمٌّ أو شيء يشاكل الدم،

إخراج الضب من جحره

والضبُّ تَذْلُقُهُ من جُحْرِهِ أمور، منها السَّيْلُ، ورَبَّمَا صَبُّوا فِي جَحْرِهِ قَرَبَةً من ماءٍ فَأَذْلَقُوهُ بِهِ، وأنشد أبو عبيدة:

الضَّبُّ وَيَخْفِيهِ كَمَا السَّيْلُ يَرَابِيعَ النَّقْوِ

يَخْفِيهِ مَفْتُوحَةَ الْبِئَاءِ، وَتَذْلُقُهُ وَقَعُ حَوَافِرِ الْخَيْلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ:

حَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاهُنَّ كَأَنَّ مَرَكِبَ حَفَاهُنَّ وَدَقُّ مِنْ سَحَابٍ

تقول: حَفَيْتُهُ أَخْفِيهِ حَفِيًّا؛ إِذَا أَظْهَرْتَهُ، وَأَخْفَيْتُهُ إِخْفَاءً؛ إِذَا سَتَرْتَهُ، وَقَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِيهِ تَبِعْتُوا الْحَرْبَ لَا نَقَعِدِ

ولا بدُّ من أن يكونَ وَقَعُ الحَوَافِرِ هَدَمَ عَلَيْهَا، أو يكونَ أَفْرَعَهَا فخرَجَتْ، وأهلُ الحجاز يسمُّون

التَّبَاشَ الْمُخْتَفِي؛ لِأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ الْكَفَنَ مِنَ الْقَبْرِ وَيُظْهِرُهُ.

وحكوا عن بعض الأعراب أنه قال: إنَّ بني عامر قد جعلوني على جنديرة أعينها، تريد أن تختفي دمي أي تظهره وتستخرجه، كأنها إذا سفحت وأراقته فقد أظهرته.
قول أبي عبيدة في تفضيل أبيات لامرئ القيس وأنشد أبو عبيدة:

هَطْلَاءُ فِيهَا وَطْفُ الْأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدْرُ
الضَّبَّ إِذَا مَا أَشْجَذُوشُواريه إِذَا مَا تَعْتَكُرُ
الضَّبَّ ذَفِيفاً مَاهِراً بُرْتُهُ مَا يَنْعَفِرُ
وكان أبو عبيدة يقدّم هذه القصيدة في الغيث، على قصيدة
عبيد بن الأبرص، أو أوس بن حجر، التي يقول فيها أحدهما:

مُسِيفٌ فَوْيَقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ
بَنَجْوَتِهِ كَمَنْ بَعْفَوْتِهِ وَالْمُسْتَكُّ كَمَنْ يَمْشِي
بِقِرْوَاكِ
وأنا أتعجب من هذا الحكم.

قولهم: هذا أجلُّ من الحرش ومما يضيفون إلى هذه الضباب
من الكلام، ما رواه الأصمعيّ في تفسير المثل، وهو قولهم: هذا
أجلُّ من الحرش - أن الضبَّ قال لابنه: إِذَا سَمَعْتَ صَوْتَ
الْحَرْشِ فَلَا تَخْرُجَنَّ قَالَ: وَالْحَرْشُ: تحريكُ اليدِ عند جُر
الضب؛ ليخرج ويرى أنه حيّة، قال: فسمع الجسئل صوت الحفر،
فقال للضبِّ: يا أبت هذا الحرش؟ قال: يا بُنَيَّ، هذا أجلُّ من
الْحَرْشِ فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

الضب والصفدع والسمة

وقال الكميت:

بَيْنَ ضِفْدِعةٍ وَصَبٍّ وَيَعَجَبُ أَنْ تَبَرَّ بِنِي أَيْبِنَا

وقال في الصَّبِّ والنُّون:

أَنَّهُمْ جَاؤُوا بِشَيْءٍ مُقَارِبٍ لِشَيْءٍ وَبِالشُّكْلِ الْمُقَارِبِ
وَلَكِنَّهُمْ جَاؤُوا بِحَيْتَانِ لُجَّةٍ لِقَوَامَسٍ وَالْمَكْنِيِّ فِينَا أبا
حَسَلٍ

وقال الكميت:

خَلْتُ الصَّبَابَ مُعْطَفَاتِ الحَيْتَانِ مِنْ شَبِّهِ
الحَسُولِ

وقال آخر: والعَرَبُ تقولُ في الشَّيْءِ المُمْتَنِعِ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى يَرِدَ الصَّبُّ، وَفِي تَبْعِيدِ مَا

بَيْنَ الجِنْسَيْنِ: حَتَّى يُؤَلَّفَ بَيْنَ الصَّبِّ والنُّونِ.

استطرد لغوي قال: ويقال أَصَبَّتْ أَرْضُ بَنِي فلانٍ: إِذَا كَثُرَتْ ضِيابُها، وَهَذِهِ أَرْضٌ مَصَّبَةٌ، وَأَرْضٌ

بَنِي فلانٍ مَصَّبَةٌ، مِثْلُ قَيْدَةٍ مِنَ الفَأْرِ، وَجَرْدَةٍ مِنَ الجُرْدانِ، وَمَحْوَاةٌ وَمَحْيَاةٌ مِنَ الحَيَّاتِ،

وَجَرْدَةٍ مِنَ الجرادِ، وَسَرِيفَةٌ مِنَ السُّرْفَةِ، وَمَأْسَدَةٌ مِنَ الأَسودِ، وَمَتَعَلَةٌ مِنَ التُّعالبِ؛ لِأَنَّ التُّعَلْبَ

يَسْمَى ثَعَالَةً، وَالذُّئْبُ دُؤَالَةٌ.

ويقال أَرْضٌ مَذْبَةٌ مِنَ الذُّبابِ، مَذَابَةٌ مِنَ الذُّبابِ.

ويقال فِي الصَّبِّ: وَقَعْنَا فِي مَصَابٍ مَنْكَرَةٍ، وَهِيَ قِطْعٌ مِنَ الأَرْضِ تَكْثُرُ ضِيابُها.

قال: ويقال أَرْضٌ مَرْبَعَةٌ، كَمَا يُقالُ مَصَّبَةٌ، إِذَا كَانَتْ ذَاتَ يَرايِعٍ وَضِيابٍ، وَاسْمُ بِيضِها المَكْنُ،

وَالوَاحِدَةُ مَكْنِيَةٌ.

ويقال لِفَرْخِهِ إِذَا خَرَجَ حِسْلٌ، وَالجَمِيعُ حَسَلَةٌ، وَأَحْسالٌ، وَحُسُولٌ، وَهُوَ حِسْلٌ، ثُمَّ مُطَبَّحٌ ثُمَّ

عِيداقٌ، ثُمَّ جَحْلٌ، وَالسَّحْبَلُ: مَا عَظُمَ مِنْها، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ صَبٌّ.

وبعضُهم يقول: يَكُونُ عِيداقاً، ثُمَّ يَكُونُ مُطَبَّحاً، ثُمَّ يَكُونُ جَحْلاً، وَهُوَ العَظِيمُ، ثُمَّ هُوَ حُصْرَمٌ، ثُمَّ

يَكُونُ صَبًّا، وَهَذَا خَطَأٌ، وَهُوَ صَبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ الرَّاجِزُ:

الغِيادِيقَ عَنِ الطَّرِيقِ عَنهُ بِيضُهُ فِي نِيقِ

ما يوصف بسوء الهداية من الحيوان ويقال: أَضَلُّ من ضَبٍّ،
والضلال وسوء الهداية يكونُ في الضَبِّ، والورل، والدَّيْكَ.

الضب وشدة الحر

وإذا غيّر الحُرُّ لون جلدِ الضبِّ فذلك أشدُّ ما يكون من الحر، وقال الشَّاعر:

وهَا جَرَةٌ تُنْجِي عَنِ الضَّبِّ قَطَعْتُ حَشَاهَا بِالْغُرَيْرِيَّةِ
الصُّهْبِ

أمثال في الضب

وفي المثل: خَلَّ دَرَجِ الضَّبِّ، وفي المثل: تَعْلِمَنِي بِضَبِّ أَنَا حَرَّشْتُهُ؛ و: هذا أَجَلُّ من الحَرَشِ،
و: أَضَلُّ من ضَبٍّ و: أَحَبُّ من ضَبِّ، و: أَرَوَى من ضَبِّ، و: أَعَقُّ من ضَبِّ، و: أَحْيَا من ضَبِّ، و:
أَطْوَلُ دَمَاءَ من ضَبِّ، و: كُلُّ ضَبِّ عِنْدَ مِرْدَاتِهِ، ويقال: أَقْصَرُ من إِبْهَامِ الضَّبِّ كما يقال: أَقْصَرُ
من إِبْهَامِ القِطَاةِ، وقال ابن الطُّرَيْبِ:

كإبهام القطة

ومن أمثالهم: لَا آتِيكَ سِنَّ الحِجْلِ، وقال العجاج:

لا آتية بين الحسبل

كأنه قال، حَتَّى يَكُونَ مَا لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ الحِجْلَ لَا يَسْتَبْدِلُ بِأَسْنَانِهِ أُسْنَانًا.
أَسْنَانِ الذَّنْبِ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ أُسْنَانَ الذَّنْبِ مَمْطُولَةٌ فِي فَكِّهِ، وَأَنْشَدَ:

ممطولة في فكين

وليس في هذا الشعر دَلِيلٌ عَلَيَّ مَا قَالَ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يُشْبِعُ

الصفة إذا مَدَحَ أو هَجَا، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ حَقًّا.

ما قيل في عبد الصمد بن علي فأما عبد الصمد بن علي فإنه

لم يُثَغِر، ودخل القبر بأسنان الصِّبَا.

استطرد لغوي وقد يقال للصَّبِّ والحِيَّةِ والوَرَلِ، وما أشبهَ

ذلك: فَحٌّ يَفْحُ فحياً، والفحیح: صوت الحية من جَوْفِهَا،

والكشيش والقشيش: صوت جُلْدِهَا إذا حَكَّتْ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وليس كما قال، ليس يُسْمَعُ صوت احتكاك الجلد بالجلد إِلَّا

للأفعى فقط، وقال رؤبة:

فلا أفرق أن تفحِّي تُرْحِي كَرَحِي المرْحِي

وقال ابنُ ميادة:

الصَّبُّ إن لم يرهب له مستكبراً
الصَّبُّ غيرُه ويطاولُه

حديث أبي عمرة الأنصاري

ويُكْتَبُ في باب حبِّ الصَّبِّ للثَّمر حديث أبي عمرة الأنصاري

رووه من كلِّ وجه، أنَّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قالَ

لرجل من أهل الطائف: الحُبْلَةُ أفضل أم النخلة؟ قال: بل

الحُبْلَةُ، أتزيبها وأشَمِّسها، وأستظل في ظلِّها، وأصلح بُرْمَتِي

منها، قال عمر: تأبى ذاك عليك الأنصار.

ودخل أبو عمرة عبد الرحمن بن مَحْصَن النجَّاري فقال له عمر:

الحبلة أفضل أم النَّخْلة؟ قال: الزبيب إنْ آكله أضرس، وإنْ

أَثْرُكَ أَغْرَثَ لَيْسَ كَالصَّقْرِ فِي رُؤُوسِ الرَّقْلِ، الرَّاسَخَاتِ فِي
الْوَحْلِ، الْمَطْعَمَاتِ فِي الْمَحَلِّ، حُرْقَةَ الصَّائِمِ وَتُخْفَةَ الْكَبِيرِ،
وَصُمَّتَةَ الصَّغِيرِ وَحُرْسَةَ مَرْيَمَ، وَيُحْتَرَسُ بِهِ الصَّبَابُ مِنَ الصَّلْعَاءِ
يَعْنِي الصَّحْرَاءَ.

دية الضب واليربوع

قال: ويقال في الضب حُلَامٌ، وفي اليربوع جَفْرَةٌ، والجفرة: التي قد انتفخ جنبها وشدنت،
والحُلَامُ فوق الجدي وقد صلح أن يُذبح للشسك، والحُلَانُ، بالنون: الجدي الصغير الذي لا يصلح
للشسك.

وقال ابن أحرمر:

إِلَيْهِ ذِرَاعُ الْجَدْيِ تَكْرِمَةً دَبِيحاً وَإِمَّا كَانَ حُلَاناً
وَالْحُلَانُ وَالْحُلْوَانُ جَمِيعاً: رَشْوَةُ الْكَاهِنِ، وَقَدْ نَهَى عَنْ رَبِّدِ الْمُشْرِكِينَ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ، وَقَالَ
مَهْلَهُ:

قَتِيلٌ فِي كَلْبِ حُلَامٍ يَنَالُ الْقَتْلُ آلَ هَمَامٍ
أقوال لبعض الأعراب وقال الأصمعي: قال أعرابي يهراً بصاحبه: اشتر لي شاة قفعاء، كأنها
تضحك: مندلقه خاصرتها، كأنها في محمل، لها ضرع أرقط، كأنه ضب، قال: فكيف العقول؟
قال: أو لهذه عقول؟! قال: وسأل مدني أعرابياً قال: أناكلون الضب؟ قال: نعم، قال:
فاليربوع؟ قال: نعم، قال: فالورل؟ قال: نعم، قال: أفتأكلون أم حبين؟ قال: لا، قال: فليهن
أم حبين العافية.

شعر في الضب وقال فراس بن عبد الله الكلابي:

حَثِيثِ الْجُوعِ وَالْإِرْمَالَا أَجْدُ بِشَوْلِهَا بِلَالَا
أَبْصَرْتُ صَبًّا دَجِنًا مُخْتَالَا فَوْقَ جُحْرِهِ وَذَالَا
لِي يَخْتَلِنِي اخْتِيَالَا رَأَيْتُ دُونِي الْقَذَالَا

ما ملئتُ حينَ مالا فدهشتُ كفاي فاستطالا
فلا نزعَ ولا إرسالا فحازرا وبترأ الأوصالا
ولم أرفعُ بذاك بالاً رأثُ عيني كُشِّي خِذالا
وثبَّيتُ له الأكبالا وُرحت منه دحناً دالاً
أسماء لعب الأعراب البُقير، وعُظيْم وصاح، والخطرة،
والدَّارة، والشَّحمة والحلق، ولعبة الصَّبِّ.

فالبُقير: أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله، ثم
يقول لصاحبه: اشته في نفسك، فيصيبُ ويخطئ.

وعُظيْم وصاح: أن يأخذ بالليل عظماً أبيض، ثم يرمي به واحداً
من الفريقين، فإنَّ وجدَهُ واحداً من الفريقين ركب أصحابه
الفريق الآخر من الموضع الذي يجدونه فيه إلى الموضع الذي
رموا به منه.

والخطرة: أن يعملوا محراقاً، ثم يرمي به واحداً منهم من خلفه
إلى الفريق الآخر، فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم، فإن
أخذوه ركبوهم.

والدَّارة، هي التي يقال لها الخراج.

والشَّحمة: أن يمضيَ واحداً من أحد الفريقين بسلام فيتنحون
ناحية ثم يقبلون، ويستقبلهم الآخرون؛ فإن متعوا الغلام حتى
يصيروا إلى الموضع الآخر فقد غلبوه عليه، ويُدفع الغلام

إليهم، وإن هم لم يمنعوه ركبوهم، وهذا كله يكون في ليالي الصيف، عن غب ربيع مُخصب، ولعبة الضب: أن يصوروا الضب في الأرض، ثم يحول واحد من الفريقين وجهه، ثم يضع بعضهم يده على شيء من الضب، فيقول الذي يحول وجهه: أنف الضب، أو عين الضب، أو ذنب الضب، أو كذا وكذا من الضب، على الولاء، حتى يفرغ؛ فإن أخطأ ما وضع عليه يده ركب وركب أصحابه، وإن أصاب حوّل وجهه الذي كان وضع يده على الضب، ثم يصير هو السائل.

ويقول: الأطباء: إن حُرء الضب صالح للبياض الذي يصير في العين.

والأعراب ربّما تداووا به من وجع الظهر.

وناس يزعمون أنّ أكل لحمان الحيوان المذكور بطول العمر،

يزيد في العمر، فصدّق بذلك ابن الخاركي وقال: هذا كما

يزعمون أن أكل الكلية جيّد للكلية، وكذلك الكبّد، والطّحال،

والرّئة، واللّحم ينبت اللّحم، والشّحم ينبت الشّحم، فعبر سنة

وليس يأكل إلاّ قديد لحوم الحمر الوحشية، وإلا الورشان

والصّباب، وكلّ شيء قدر عليه مما يقضي له بطول العُمر،

فانتقض بدنه، وكاد يموت، فعاد بعدُ إلى غذائه الأوّل.
تفسير قصيدة البهراني نقول في تفسير قصيدة البهراني، فإذا
فرغنا منها ذكرنا ما في الحشرات من المنافع والأعاجيب
والروايات، ثم ذكرنا قصيدتي أبي سهل بشر بن المعتمر في
ذلك، وفسرناهما وما فيهما من أعاجيب ما أودع الله تعالى هذا
الخلق وركبهُ فيهم، إن شاء الله تعالى، وبالله تبارك وتعالى
أستعين.
أما قوله:

الماكِسِينِ صَبْعاً وَذُبَا تَنَاجِلَا أُمَّ عَمْرُو
فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التُّجَّار في البرِّ والبحر، وفي أسواقهم، المكس، وهو ضريبة
كانت تؤخذ منهم، وكانوا يظلمونهم في ذلك، ولذلك قال التَّغَلبي، وهو يشكو ذاك في الجاهلية
ويتوعد وهو قوله:

تَسْتَحِي مَنَا مُلُوكٌ وَتَتَّعَلِيْنَا لَا يَبُؤُوا الدَّمَ بِالدَّمِ
كُلُّ أَسْوَاقِ الْعِرَاقِ إِتَاوَةٌ مَا بَاعَ أَمْرٌ مَكْسٌ

والإتاوة والأربان والخزج كله شيءٌ واحد، وقال الآخر:

ابنِ الْمُعَلَّى خِلْتَنَا أُمَّ صِرَارِي نَعْطِي الْمَاكْسِينَ
حَسِبْتَنَا مَكُوسَا

وقال الأصمعي، في ذكر المكس والسفن التي كان تُعشَر، في قصيدته التي ذكر فيها من
أهلك الله عز ذكره، من الملوك، وقصم من الجبابرة، وأباد من الأمم الخالية - فقال:

أَعْلَقْتُ ثُبْعاً جِبَالُ الْمَنُوفِ اتَّحَتْ بَعْدَهُ عَلَي ذِي جُدُونِ
وَأَصَابَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ آلَ هِرْمَاوَعَاتٍ مِنْ بَعْدُ

للسَّاطِرُونَ

الحضر والفُراتِ إلى دِجْشَرَقاً فالطور من عَبْدِينِ
حِمْلٍ يَمُرُّ فَوْقَ بَعِيرٍ مَكْسُهُ وَمَكْسُ السُّفِينِ

والأعراب يزعمون أن الله تعالى عز وجل لم يدع ماكساً ظالماً إلا أنزل به بليّة، وأنه مسح

منهم ضبعاً وذنباً، فهذه القرابة تسافدا وتناجلا، وإن اختلفا في سوى ذلك، فمن ولدهما
السَّمع والعسبار، وإنما اختلفا لأن الأمّ ربما كانت ضبعاً والأب ذنباً، وربما كانت الأمّ ذنباً والأب
ذيقاً، والذّيق: ذكر الضباع.

ذكر من أهلك الله من الأمم وأما قوله:

الذّرّ والجراد وقفّي الرّعاف في حيّ بكر

فإن الإعراب تزعم أن الله تعالى قد أهلك بالذرّ أمما، وقد قال أمية بن أبي الصلت:

أرسل الذّرّ والجراد عليهموسنياً فأهلكتهم ومورا

الذّرّ إنّه يفعل الشّ الجرادَ كان ثورا

وأما قوله: وقفّي بنجيع الرّعاف في حيّ بكر فإنّه يريد بكر بن عبد مناة، لأنّ كنانة ينزولها

مكّة كانوا لا يزالون يصيبهم من الرّعاف ما يصير شبيهاً بالموتان، ويجارف الطاعون، وكان
آخِر من مات بالرّعاف من سادة قُريش هشام بن المغيرة.

وكان الرّعاف من منايا جرهم أيام جرهم، ولذلك قال شاعر في الجاهلية، من إباد:

ونحنُ إبادُ عبادُ الإله ورهطُ مُناجِيهِ في سُلْمِ

ولاةُ حجابِ العتيق الرّعافِ على جرهم

ولهذا المناجي الذي كان يناجي الله، عز وجل، في الجاهلية

على سُلْم - حديث.

سيل العرم فأما قوله:

حَرَقَتْ فَارَةً بِأَنْفِ ضَيْلٍ مُحَكَّمِ الْأَسَاسِ بِصَخْرٍ

فقد قال الله عز وجل: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ" والعرم: المسناة التي كانوا أحكموا

عملها لتكون حجازاً بين ضياعهم وبين السيل، ففجرته فارة، فكان ذلك أعجب وأظهر في

الأعجوبة كما أثار الله تعالى عز وجل ماء الطوفان من جوف ثور، ليكون ذلك أثبت في

العبرة، وأعجبَ في الآية.

ولذلك قال خالدُ بنُ صفوان لليمانِيّ الذي فخر عليه عند المهدِيّ وهو ساكت، فقال المهدِيّ:
وما لك لا تقول؟ قال: وما أقول لقوم ليس فيهم إلا دابُّ جلد، وناسخُ بُردٍ، وسائسُ قرد،
وراكب عَرْد، غرقتهم فارة، وملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هدهد.
وأما قوله:

فَجَرَّتْهُ وَكَانَ جِيلَانُ عَنْهُ عَاجِزاً لَوْ يَرُومُهُ بَعْدَ دَهْرٍ
فإنَّ جيلانَ فَعَلَةَ الملوكِ، وكانوا من أهل الجَبَل، وأنشد الأصمعي:

أرسلَ جِيلَانُ يَنحَتونَ له سائِداً بالحديدِ فانصدعا
وأنشد:

له جِيلَانُ مِنْ تَحْتِهَا فُصُوراً تُعَالَى بالصَّفِيحِ
وَتُكَلِّسُ

وأنشد لامرئ القيس:

له جِيلَانُ عِنْدَ جَدَاذِهِ فِيهِ الطَّرْفُ حَتَّى تَحْيَّرَا
يقول: فَجَرَّتْهُ فارةٌ، ولو أنّ جيلانَ أرادت ذلك لامتنعَ عليها، لأنَّ الفارةَ إنما خرقتها لما سحرَّ
الله عز ذكره لها من ذلك العَرم وأنشدوا:

سَبَأُ الحَاضِرِينَ مَأْرَبُ إِذْ مِنْ دُونِ سَبِيلِهِ العَرِمَا
ومأرب: اسمٌ لقصر ذلك الملك، ثم صارَ اسماً لذلك البلد، ويدلُّ على ذلك قول أبي الطَّمحان
القيني:

تري مَأْرَباً ما كان أَحَصَّتْهُ حَوَالِيهِ مِنْ سُورٍ وَبُنْيَانِ
العِبَادِيُّ يُسْقَى فَوْقَ قُلَّتِيهِمْ رَيْبَ دَهْرٍ حَقَّ حَوَّانِ
تناوله من بعد ما هَجَعُوا إِلَيْهِ عَلَى أَسْبَابِ كَثَّانِ
وقال الأعشى:

ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أَسْوَأَ مَأْرَبُ قَفَى عَلَيْهِ العَرِمُ
بَنَتْهُ لَهُ حِمِيرٌ جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمُ
فَأرَوَى الحُرُوتَ وَأَعْنَابَهَا سَاعَةَ مَاؤُهُمْ إِذْ قَسِمُ
الفُيُولُ وَقِيَالَهَا بَيْنَهُمَا فِيهَا سَرَابٌ يَطِمُ
فكأثوا بذلك حِقْبَةَ بِهِمْ جَارِفٌ مُنْهَدِمُ

فَطَارُوا سِرَاعًا وَمَا يَقْدِرُوا مِنْهُ لِشُرْبِ صَبِيٍّ فُطِمَ

مسخ الصَّبِّ وسهيل

وأما قوله:

الصَّبُّ فِي الْجَدَالَةِ قَسْمٌ هَيْلِ السَّمَاءِ عَمْدًا بَصُغْرٍ
فإنهم يزعمون أنّ الصَّبَّ وشهياً كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله عز وجل أحدهما في

الأرض، والآخر في السماء، والجدالة: الأرض، ولذلك يقال: ضربه فجذله أي ألزقه بالأرض، أي بالجدالة، وكذلك قول عنتره:

وحليل غانية تركتُ مجدلاً فريصته كشدقِ الأعلمِ
وأنشده أبو زيدٍ سعيدٌ بن أوسٍ الأنصاري:

أركب الحالة بعد الحالو أترك العاجز بالجداله
أبو رغال وأما قوله:

والذي كان يكتني برغال الله قبره شرّ قبر
كلُّ ذي سفين وخرمكوس وكلُّ صاحب عُشر
فإنما ذكر أبا رغال، وهو الذي يرمم الناس قبره إذا أتوا مكة، وكان وجهه صالح النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يزعمون، على صدقات الأموال، فخالف أمره، وأساء السيرة، فوثب عليه ثقيف، وهو قسيُّ بن مُنَّبه، فقتله قتلاً شنيعاً، وإنما ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة، وذكر قسوة أبيه على أبي رغال:

قسيُّ وقسا أبونا
وقال أمية بن أبي الصلت:

عن أرضهم عدنان طررنا للقائل قاهرينا
قتلوا الرئيس أبا رغال إذ يسوق بها الظعينا
وقال عمرو بن دَرَّاكِ العبدي، وذكر فجور أبي رغال وحُبَّته، فقال:

إن قطعت جبال قسيف المزون على تميم
لأعظم فجرة من أبي رغال
سَدُومِ

وقال مسكينُ الدارميّ:

وَأَرْجُمُ قَبْرَهُ فِي كُلِّ عَامٍ رَجَمَ النَّاسِ قَبْرَ أَبِي رِغَالٍ

وقال عُمرُ بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، لَعِيلَانَ بن سلمة، حين أعتق عبده، وجعل ماله

في رِثَاجِ الكَعْبَةِ: لئن لم تَرْجِعْ في مالِكَ ثمَّ مُتَّ لأَرْجَمَنَّ قَبْرَكَ، كما رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وكلاماً غير هذا قد كلّمه به.

المنكب والعريف وأما قوله:

مَنْكِبٌ كَافِرٌ وَأَشْرَاطُ سَوْءٍ وَعَرِيفٌ جَزَاؤُهُ حَرٌّ جَمْرٍ

فإنما ذهب إلى أحكام الإسلام، كأنه قد كان لقي من المَنْكِبِ والعَرِيفِ جهداً، وهم ثلاثة:

مَنْكِبٌ، ونقيب، وعريف، وقال جُبَيْهَاءُ الأشجعيّ:

عَاوَنَتْ بَكَرًا عَلَيْهِ جُعِلَ الْعَرِيفُ عَلَى النَّقِيبِ

الغول والسعلاة وأما قوله:

وَتَرْوَجْتُ فِي الشَّبِيبةِ عُولًا غَزَالٍ وَصَدَقْتِي زُقٌّ حَمْرٍ

فالغول اسمٌ لكلِّ شيءٍ من الجن يعرضُ للسُّقَّارِ، ويتلَوُّونُ في صُرُوبِ الصُّورِ والنِّيَابِ، ذكراً

كان أو أنثى، إلا أنّ أكثر كلامهم على أنه أنثى.

وقد قال أبو المطرَبِ عُبيدُ بن أيُّوبَ العنبريّ:

وَحَالَفَتِ الْوَحُوشَ وَحَالَفْتَنِي عُهودهنّ وبالبعارِ
وَأَمْسَى الدَّئِبُ يَرْضُدُنِي ضربتني ولضعف آدي
مِخْشًا

قَفْرَةٌ ذَكَرٌ وَأَنْثَى عَلَيْهِمَا قِطْعَ الْبَجَارِ

فجعل في الغيلان الذَّكَرَ والأنثى، وقد قال الشَّاعرُ في تلُّونها:

تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا تَلَوُّنٌ فِي أَثْوَابِهَا الْعُورُ

فالغول ما كان كذلك، والسَّعْلَةُ اسمُ الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغَوَّلْ لِنَفْتِنِ السُّقَّارِ.

قالو: وإنما هذا منها على العَبَثِ، أو لعلّها أن تفرَّعَ إنساناً جميلاً فتغيَّرَ عقله، فتداخَلَه عند ذلك،

لأنهم لم يُسَلِّطُوا على الصَّحيحِ العقلِ، ولو كان ذلك إليهم لبدؤوا بعليّ بن أبي طالب، وحمرة

بن عبد المطلب وبأبي بكر وعُمر في رَمَانِهِم وبغيلان والحسن في دهرهما وبواصل وعمرو

في أيامهما.

وقد فرّق بين الغول والسّعلاة عُبيدُ بن أيّوب، حيث يقول:

وساخرة منّي ولو أنّ عَيْنَهَا ما أَلَقِيهِ مِنَ الْهُولِ جُنَّتِ
وسعلاةٌ وغولٌ بقفرةِ الليلِ وارى الجنّ فيه أرئتِ

وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والدّهن، سريعة الحركة، ممشوقة مُمّحّصة قالوا: سعلاة

وقال الأعشى:

ورجال قَتَلِي بِجَنَبِي أَرِيكِ وَنَسَاءٍ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِي

تزاوج الجن والإنس

ويقولون: تزوّج عمرو بن يربوع السّعلاة، وقال الرّاجز:

قاتلَ اللهُ بني السّعلاة بن يربوعٍ شِرارَ النَّاتِ
وفي تلّون الغول يقول عَبَّاسُ بنُ مرداسٍ السّلميّ:

أصابت العام رِعلاً غولٌ البُيوتِ ولوْ نُ الغولِ
قومهم

وهم يتأولون قوله عز ذكره: "وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ".

وقوله عز وجل: "لَمْ يَطْمِئِنِّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"، قالوا: فلو

كان الجانّ لم يُصِبْ مِنْهُنَّ قَطُّ، ولم يأتِهِنَّ، ولا كان ذلك مما

يجوز بين الجن وبين النساء الأدميات - لم يقل ذلك.

وتأولوا قوله عز وجل: "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ

بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ" فجعل منهنّ النّساء، إذ قد جعل منهم الرّجال،

وقوله تبارك وتعالى: "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي".

وزعم ابنُ الأعرابيِّ قال: دعا أعرابيُّ ربّه فقال: اللهمّ إني أعودُ

بك من عفاريت الجن اللهم لا تُشركهم في ولدي، ولا جسدي،
ولا دمي، ولا مالي، ولا تُدخلهم في بيتي، ولا تجعلهم لي شركاء
في شيءٍ من أمر الدنيا والآخرة.

وقالوا: ودعا زهير بن هنيذة فقال: اللهم لا تُسلطهم على
نطفتي ولا جسدي. قال أبو عبيدة: ف قيل له: لم تدعو بهذا
الدُّعاء قال: وكيف لا أدعو به وأنا أسمعُ أيُّوبَ النبي واللَّه تعالى
يخبر عنه ويقول: "واذكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ
الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ" حتى قيل له: "اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا
مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"، وكيف لا أستعيز بالله منه وأنا أسمع الله
يقول: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ
الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ"، وأسمعه يقول: "وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ"،
فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، كما قال الله عز ذكره:
"فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي
أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ"، وقد جاءهم في صورة الشيخ النجدي، وكيف لا
أستعيز بالله منه، وأنا أسمع الله عز ذكره يقول: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا
فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبِّنَاهَا لِلنَّاطِقِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ

رَجِيمٍ، إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ"، وكيف لا
أستعيز بالله منه وأنا أسمع الله تعالى يقول: "وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ
عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ" ثم قال: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ
مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلَ وَجَفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ"، وكيف لا
أدعو بذلك وأنا أسمع الله تعالى يقول: "قال عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ
أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، وَإِنِّي عَلِيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ".
وكيف لا أقول ذلك وأنا أسمع الله عز وجل يقول: "رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، فسَخَّرْنَا
لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَعَوَّاصٍ، وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ".

تزيد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

والأعراب يتزيدون في هذا الباب، وأشباه الأعراب يغلطون
فيه، وبعض أصحاب التأويل يجوز في هذا الباب ما لا يجوز فيه،
وقد قلنا في ذلك في كتاب النبوات بما هو كافٍ إن شاء الله
تعالى.

مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن

وسيقع هذا الباب والجواب فيه تامةً إذا صرنا إلى القول في الملائكة، وفي فرق ما بين الجن والإنس، وأما هذا الموضوع فإنما مَعَزَانَا فِيهِ الْإِخْبَارُ عَنْ مَذَاهِبِ الْأَعْرَابِ، وَشِعْرَاءِ الْعَرَبِ، وَلَوْلَا الْعِلْمُ بِالْكَلَامِ، وَبِمَا يَجُوزُ مِمَّا لَا يَجُوزُ، لَكَانَ فِي دُونَ إِطْبَاقِهِمْ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَا يَغْلَطُ فِيهِ الْعَاقِلُ.

قال عُبيدُ بنِ أُيُوبَ، وَقَدْ كَانَ جَوَّالًا فِي مَجْهُولِ الْأَرْضِ، لَمَّا اشْتَدَّ خَوْفُهُ وَطَالَ تَرُدُّدُهُ، وَأَبْعَدُ فِي الْهَرَبِ:

خِيفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيْعَةٌ مَعْشَرٍ
قِيلَ أَمِنْ قَلْتُ هَذِي قِيلَ خَوْفٌ قَلْتُ حَقًّا
خَدِيْعَةٌ فَشَمَّرِ
وَخِيفْتُ خَلِيْلِي ذَا الصَّفَاءِ فَلَانَ أَوْ فَلَانَةَ فَاحْذِرِ
وَرَابِنِي
دَرُّ الْعُوْلِ أَيُّ رَفِيْقٍ صَاحِبٍ قَفْرٍ خَائِفٍ مَتَقَرِّ
بَلْحَنَ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَحَوْلِي نِيرَانًا تَلُوحُ وَتَزْهَرُ
وَأَصْبَحْتُ كَالْوَحْشِيِّ يَتَّبِعُ مَا وَيَتْرِكُ مَا أُبُوسَ الْبِلَادِ الْمَدْعَرِّ

وقال في هذا الباب في كلمة له، وهذا أولها:

أَذِقْنِي طَعْمَ الْأَمْنِ أَوْ سَلِّ فَإِنْ قَامَتْ فَفَصِّلِ
حَقِيْقَةً بِنَانِيَا
خَلَعْتَ فُوَادِي فَاسْتُطِيرَ تَرَامِي بِي الْبِيْدُ الْقِفَارُ
فَأَصْبَحْتُ تَرَامِيَا
وَأَجَالَ الطُّبَّاءَ بِقَفْرِ قَسْبٍ نَرَعَاهُ أَصْبَحَ دَانِيَا
ضَنْيَلِ الشَّخْصِ يَظْهَرُ وَيُخْفَى مَرَارًا ضَامِرَ الْجِسْمِ

فَأَجْفَلَنَ نَفْرًا ثُمَّ قُلْنَ ابْنُ الْأَذَى أَمْسَى لَكُنَّ
مُصَافِيَا
طُبَّاءَ الْوَحْشِ لَا وَأَخْفِينَنِي إِذْ كُنْتُ فِيكَ
تُشْهَرُنَنِي خَافِيَا

عُرُوقُ الشَّرِي بِحَلْقِي تَوْرُ القَفْرِ حَتَّى
 مَعَكَنَّ وَالتَّوَى وَرَانِيَا
 لَقِيْتُ مِنِّي السَّبَاعُ لَاقَتْ الغِيلَانُ مِنِّي
 الدَّوَاهِيَا
 وَمَنَّهُنَّ قَدْ لَاقِيْتُ ذَالجَبَانَا إِذَا هَوُلُ الجَبَانِ
 أَكُنُّ اعْتَرَانِيَا
 المَنَايَا بَعْضَهُنَّ وَقَدَّزْنَ لِحَمِي
 بِأَسْهَمِيَّ وَامْتَشَقْنَ رَدَائِيَا
 ضَجِيعَ الأَسْوَدِ وَأَثْنَاءَ الحَشَاشِ
 الجَّوْنَ فِي الهَوَى وَسَادِيَا
 هَجَنَ بِي فِي جُحْرِهِنَّ سُلَيْمَانَ بَنَ وَبِرِّ
 اكَتَفَنَنِيَّ
 زِلْتُ مُذْ كُنْتُ ابْنَ الحَرْبِ مَجْنِيًّا عَلَيَّ
 عَشْرِينَ حِجَّةً وَجَانِيَا
 وَمَا ذَكَرَ فِيهِ الغِيلَانُ قَوْلُهُ:

وَقَدْ أَلَمَمْتُ بِالْإِنْسِ مُخَصَّبَةُ الأَطْرَافِ حُرْسُ
 الخَلَائِلِ
 خَلِيلُ العُؤْلِ وَالذَّبُّ يَرَبَّاتِ الجِجَالِ
 وَالذِّي الكَوَاهِلِ
 خَلَقَ الأَدْرَاسَ أَشْعَتَ الجَدْبَ بَسَامًا كَرِيمَ
 الشَّمَائِلِ شَاحِبًا
 مَنَ آبَائِهِ فَتَكَاتِهِمْ وَإِطْعَامَهُمْ فِي كُلِّ غَبْرَاءِ
 شَامِلِ
 صَادَ صَيْدًا لَفَّهُ بِضْرَامِهِ وَلَمْ يَنْظُرْ لِنَصَبِ
 المَرَاجِلِ
 وَنَهَسًا كَنَهَسَ الصَقْرُ ثَمَ رَأْسَ الشَّيْخَةِ
 مِرَاسُهُ المَتْمَائِلِ
 يَسْحَبُ المِنْدِيلَ بَيْنَ فَارِدًا مَذْ صَاحَ بَيْنَ
 القَوَابِلِ جَمَاعَةٍ

ومما قال في هذا المعنى:

تَرَى لَيْلَى تَعْدَبُ قَفَرَاتِ كَانِ
بِالْمُنَى بِالذُّنْبِ يَأْنَسُ
خَلِيلَ الْعُؤْلِ بَعْدَ عِدَاوَةٍ
وَرَبَّتَهُ الْقَفَارُ الْبَسَابِسُ

وقال في هذا المعنى:

رَجَالٌ يَا مَنِيْعُ رَأَيْتَهُمْ خُلِقُوا عِنْدَ الْجَوَارِ حَمِيْدٌ
لِنَالِكُمْ مِنِّي نَكَالٌ وَغَارَةٌ ذَنْبٌ لَمْ تَدْرِكُوهُ بَعِيْدٌ
بَنُو الْإِنْسَانِ حَتَّى أَغْرَتُمْ مِنْ يَثِيْرِ الْجِنِّ وَهِيَ هَجُوْدٌ

أخبار وطرف تتعلق بالجن

وقال ابن الأعرابي: وعدت أعرابيَّة أعرابياً أن يأتيها، فكمِن في عُشْرَةٍ كانت بقربهم، فنظر
الروحُ فرأى سَبْحاً في العُشْرَةِ، فقال لامرأته: يا هَتَّاهُ إِنَّ إِنْسَاناً لَيُطَالِعُنَا مِنَ الْعُشْرَةِ قَالَتْ:
مَهْ يَا شَيْخُ، ذَاكَ جَانُّ الْعُشْرَةِ إِلَيْكَ عَنِّي وَعَنْ وَلَدِي قَالَ الشَّيْخُ: وَعَنِّي يَرْحَمُكَ اللَّهُ قَالَتْ:
وَعَنْ أَبِيهِمْ إِنْ هُوَ غَطَّى رَأْسَهُ وَرَقَدَ، قَالَ: وَنَامَ الشَّيْخُ، وَجَاءَ الْأَعْرَابِيُّ فَسَقَعَ بِرَجْلَيْهَا ثُمَّ
أَعْطَاهَا حَتَّى رَضِيَتْ.

وروى عن محمَّد بن الحسن، عن مُجَالِدٍ أَوْ عَنْ غَيْرِهِ وَقَالَ: كُنَّا عِنْدَ الشَّعْبِيِّ جُلُوساً، فَمَرَّ
حَمَّالٌ عَلَى ظَهْرِهِ دَنْ حَلٌّ، فَلَمَّا رَأَى الشَّعْبِيَّ وَضَعَ الدَّنَّ وَقَالَ لِلشَّعْبِيِّ: مَا كَانَ اسْمُ امْرَأَةٍ
إِبْلِيسَ؟ قَالَ: ذَاكَ نَكَاحٌ مَا شَهِدْنَاهُ .

وأبو الحسن عن أبي إسحاق المالكِي قال: قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص: أخبرني
عبدُ الله بن هلال صديق إبليس، أنَّكَ تشبه إبليس قال: وما ينكر أن يكون سيد الإنس يُشبهه
سيد الجنِّ وروى الهيثم عن داود بن أبي هند، قال: سئل الشَّعْبِيُّ عَنْ لَحْمِ الْفِيلِ، فَتَلَا قَوْلَهُ عَرَّ
ذَكَرَهُ: "قُلْ لَا أَجِدُ فِيْمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا
أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ" إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَسُئِلَ عَنْ لَحْمِ الشَّيْطَانِ فَقَالَ: نَحْنُ نَرْضَى مِنْهُ بِالْكَفَافِ، فَقَالَ
لَهُ قَائِلٌ: مَا تَقُولُ فِي الدُّبَانِ؟ قَالَ: إِنْ اشْتَهَيْتَهُ فَكُلْهُ.

وأنشدوا قول أعرابي لامرأته:

تَمُوتِينَ إِنْ نَبْتَعِي

بدلان اللواتي يموتن
الميامين

يَعْمَرُ إِبْلِيسُ
الشَّيَاطِينَ

أنت لازلت في
مَعْمَرَةَ

وقال أبو الحسن وغيره: كان سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسيد
تصيبه مَوْتة نصف سنة، ونصف سنة يصح، فيحبو ويُعطي، ويكسُو
ويَحْمِل، فأراد أهله أن يعالجوه، فتكلمت امرأة على لسانه
فقالت، أنا رُقِيَّة بنت ملحان سيِّد الجنِّ، والله أن لو علمتُ مكانَ
رجل أشرف منه لعلقته والله لئن عالجتموه لأقتلنه فتركوا
علاجه.

وتقول العرب: شيطان الحمّاطة، وغول القفّرة، وجانُّ العُشّرة،
وأنشد:

فانصَلتْ لي مِثْلَ سَعلاةِ
العُشْرُ

بالوَيْلِ وتَعْدُو بالغيَرِ

وأنشد:

الضاغِب بالعمْلُولِ عُولٌ ولدَتَكَ غُولُ
العمْلُول: الخمر من الأرض اختبأ فيه هذا الرجل، وضغِب ضغبة

الأرنب، ليفزعه ويوهمه أنه عامر لذلك الخمر.

رؤية الغيلان وسماع عزيف الجان

من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان

ويسمعون عزيف الجان

وما يشبهون بالجن والشياطين، وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم.

وأنشد:

لَمَّا تَدانى مَقْرُبُهُ وانقطعت أودامُه وكُرْبُهُ

وجاءت الخيلُ جميعاً تذبذبُ شيطان جنِّ في هواء يرقبُه
فانقضَّ عليه كوكبُه

وأُشِد:

العُقَيْلِيَّ لَا تَلْقَى لَهُ شَيْبَةً صَبْرَتْ لِتَلْقَاهُ عَلَى
العِيسِ
تَرَاهُ عَلَيْهِ الْخَزُّ مَتَّكِبَةً يَهْدَجُ فِي خَيْشِ
الْكَرَابِيْسِ
تَكْتَفُهُ غُرَّامُهُ زَمَنًا إِبْلِيْسِ
جِنِّ عَكُوفٍ حَوْلِ
المَفَالِيْسِ يَوْمًا حَارَبُوا العُقَيْلِيَّ مِنْهُمْ فِي
كَرَادِيْسِ

وهو الذي يقول:

أَصْبَحْتَ مَا لَكَ غَيْرُ جِلْدِكَ السَّمَاءُ وَأَنْتَ عَارٍ مُفْلِسٌ

وقال الخطفي:

يَرْفَعَنَّ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أَسْدَقَا جِنَانٍ وَهَامًا رُجَّفَا
بعد الرسيم خيطفا

وأُشِد ابنُ الأعرابي:

كَلِيبِيًّا تَرَى الْجِنَّ تَبْتَغِي إِذَا مَا آبَ لِلْجَشَنِ آيْبُ

وقال الحارث بن حلزة:

وَابْنَا وَأَفْضَلُ مَنْ يَمُ وَمَنْ دُونَ مَا لَدَيْهِ الشَّنَاءُ
بِمَثَلِهِ جَالَتْ الْجِ فَابَتْ لِحْصَمِهَا الْأَجْلَاءُ

وقال الأعشى:

وَمَا كَلَّفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ مِنْ أَمْسَى أَعَقَّ وَأَحْوَبَا
لِكَالْتُّورِ وَالْجَنِيِّ يَضْرِبُ ظَهْرَهُ ذَبُّهُ أَنْ عَاقَتِ الْمَاءُ
مُسْتَرِبَا

وقال الزَّفِيَانُ العُوفِيُّ وَاسْمُهُ عَطَاءُ بْنُ أَسِيدٍ أَحَدُ بَنِي عُوَافَةَ بْنِ سَعْدٍ:

اللَّهِ مِنْهُ إِذَا مَا مَدَّا عَزِيفَ الْجِنِّ هَدَّتْ هَدًّا

وقال ذو الرُّمَّة:

أَعْسِفُ النَّارَ الْمَجْهُولَ ظلُّ أَعْصَفِ يَدْعُو هَامَهُ
مَعْسِيفُهُ

بالليل في حافاتها تناوَحَ يوم الريح عيشومُ
وُدَجَى ليل كَأَتَهُمَا تراطَنُ في حافاته الرُّومُ

وقال:

عَرَّسْتُ بعد السُّرى منمن كلام الجن أصواتُ
مُعَرَّسِ سامِرِ

وقال:

جُبْتُ دُونَكَ من يَهْمَاءِ إذا ما مُعْتَبِي جِنَّةٍ سَمَرَا
مُظْلَمَةٍ

وقال:

عزيف الجنِّ في عَقْدَاتِهِ كتضرابِ المغنِّينِ
بِالطَّبْلِ

وقال:

خَبَطْنَا عَوَّلَهَا وارتمى البعد من أرجائها
المتطاوُحُ

لِصوتِ الجنِّ في وللابوام فيها نوائِحُ
مُنْكَرَاتِهَا
وطولُ اغتماسي في الدُّجَى اللَّيلُ أصداءُ المِثَانِ
الصوائِحُ دعت

وقال ذو الرِّمة:

يببئُ البومُ يدْعُو بناتِهِ ومن الأصداءِ والجنِّ سامرُ

وقال ذو الرمة:

وللوحشِ والجِنِّانِ كُلِّ عشيةٍ خَلْفَهُ من عازِفٍ وُبْغامِ
وقال الراعي:

ودَاوِيَّةٍ غبراءِ أَكْثَرُ أَهْلِها عَزِيفُ وِبُومُ آخِرَ الليلِ صائِحُ
بها جأشِي تَأوُلُ آيَةٍ وَمَاضِي الحسامِ غَمِدُهُ
مَتصايِحُ

لطيم الشيطان

ويقال لمن به لقوة أو شتر، إذا سُبَّ: يا لطيم الشيطان.
وكذلك قال عبيد الله بن زياد، لعمر بن سعيد، حين أهوى
بسيفه ليطعن في خصرة عبد الله بن معاوية، وكان
مستضعفاً، وكان مع الصَّحَّاحِ فَأَسِيرَ، فلما أهوى له السيفَ وقد
استردفه عبيدُ الله، واستغاث بعبيد الله، قال عبيد الله لعمر:
يدك يا لطيمَ الشيطان. قولهم: ظل النعامة، وظل الشيطان
ويقال للرجل المفرط الطول: يا ظلَّ النُّعَامَةِ وللمتكبر الضخم:
يا ظلَّ الشيطان كما قال الحجاج لمحمد بن سعد بن أبي
وقاص: بينا أنت، يا ظلَّ الشيطان، أشدُّ النَّاسِ كِبْرًا إِذْ صِرْتَ
مؤدِّناً لفلان.

وقال جرير في هجائه شبة بن عقال، وكان مُفْرَطَ الطُّولِ:

المنابرُ يَوْمَ يَسْلُحُ قائماً النُّعَامَةَ شَبَّةُ بنُ عِقالِ

قولهم: ظل الرمح فأما قولهم: مُنينا بيوم كظلَّ الرمح فإيهم ليس يريدون به الطول فقط،

ولكنهم يريدون أنه مع الطول ضيق غير واسع.

وقال ابن الطَّرية:

كظلَّ الرُّمَحِ قَصَّرَ طُولِهِمُ الرِّقِّ عَنَّا واصطِفاقُ
المزاهرِ

قال: وليس يوجد لظلَّ الشخص نهاية مع طلوع الشمس.

التشبيه بالجن

قال: وكان عمر بن عبد العزيز أول من نهى الناس عن حمل الصبيان على ظهور الخيل يوم
الخلبة، وقال: تحملون الصبيان على الجنان؟
وأشدد في تشبيه الإنس بالجن لأبي الجويرية العبدي:

إذا أمنوا جنُّ إذا فزع عوارزُّونَ بهاليلُ إذا حشدوا

وأشددوا:

والله لترحلنا قلائصاً تحسبهنَّ جنا

وقال ابن ذي الروائد:

وحولي الشَّوْلُ رُزْحاً شُسْباً الدَّرَّ حِينَ تُمْتَصَّرُ
بي الكلبُ لا يُبَاحُ له مُخْرَجِماً وِينَجِحُرُ
خَفْضٍ لِمَنْ أَلَمَّ بِهِمْ بَأْرِمَاجِهِمْ إِذَا خَطَرُوا

وأشددوا:

امرؤُ تابَعني شَيْطَانِيَه عُمْرِي وَقَدْ آخَانِيَه
يَشْرَبُ فِي قَعْبِي وَقَدْ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِيَه
سَقَانِيَه
وَخُرْقاً فِي حُدُودِ تَرْبَعَتْ فِي عُقْدِ فَالْمَاوِيَه
وَاضِيَه
بِقَلِّاً تَضِيداً فِي تِلَاعِ إِذَا مَا الشَّمْسُ مَرَّتْ
حَالِيَه مَاضِيَه
إِلَيْهَا فَتِيَةٌ ثَمَانِيَه فَتَوَّرُوا كُلَّ مَرِيٍّ سَاجِيَه
أَخْلَافُهَا لِذِي الْأَكْفِ مَالِيَه

جبل الجن

وقال ابنُ الأعرابي: قال لي أعرابي مرّة من غنيّ وقد نزلت به،
قال: وهو أخفُّ ما نزلتُ به وأطيُّه، فقلت: ما أطيّب ماءكم

هذا، وأَعْدَى منزلكم قال: نعم وهو بعيدٌ من الخَيْرِ كله، بعيد من العراق واليمامة والحجاز، كثير الحيات، كثير الجنان فقلت: أترَوْنَ الجنَ؟ قال: نعم مكائهم في هذا الجبل - وأشار بيده إلى جبل يقال له سُواج قال: ثمَّ حَدَّثَنِي بأشياء.

شعر فيه ذكر الجن

وقال عبيد بن أوس الطائي في أخت عدي بن أوس:

جاءَ أوساً ليلتي ونعيمُها ^{ومقامُ أوسٍ في الخِباءِ}
المشْرِجِ
زِلْتُ أطوي الجنَّ أسمع ^{دَفَعْتُ إلى ربيبة هودجٍ}
حِسَّهمُ
فوضعت كفي عند مقطع ^{فَتَنَفَّسْتُ بُهْرًا ولَمَّا تنهَجِ}
حَصْرُها
فتناولتُ رأسي لِتَعرَفَ ^{بمخَصَّبِ الأَطرافِ غيرِ مُشَنِّجِ}
مَسَّهُ
بَعِيشِ أخِي وحرمة ^{لأنَّهنَّ الحيَّ إن لم تخرجِ}
والدي
فخرجتُ خيفة قومها ^{فعلمتُ أن يمينها لم تلججِ}
فتبسَّمتُ
فلثمتُ فاهاً قابضاً بقُرُونِها ^{بُشْرِبِ التَّزيفِ ببزْدِ ماءِ}
الحَشْرِجِ

وأنشدني آخر:

فَعُدْتُمْ بِالأميرِ ^{أحاديثاً ولحمًا}
وَقُلْتُمْ ^{مُوضِعًا}
رَادَنِي إِلَّا سِنَاءً ^{زادكم في القوم إلا}
وَرَفِعَهُ ^{نخشعا}

نَفَرْتُ جَنِّي وَلَا فُلَّ
أَصْبَحْتَ طَيْرِي مِنْ
مِبْرِدِي
الْخَوْفِ وَقَعَا

وقال حسبان بن ثابت، في معنى قوله: ولله لأضربته حتى أنزع من رأسيه شيطانه، فقال:

وداوية سبب سملق
البيد تغزف جنائها
قطعت بعيرانية كالفني
يمرخ في الآل شيطانها
فجمع في هذا البيت تشبث عذيف الجن، وأن المراح والنشاط
والخلاء والغرب هو شيطانها، وأبين من ذلك قول منظور بن
رواحة:

وأهلي بالدماح فغمرة مسب عوف اللوم حي بني
أتاني ما يقول ترقصت
الخمير
شياطين رأسي وانتشين من

من المثل والتشبيه بالجن

ومن المثل والتشبيه قول أبي النجم:

جني السنام الأميلوامتهد الغارب فعل الدمل
وقال ابن أحرر:

من قساً ذفر الخزاعلى الجرباء به الحنينا
فوقه القلع السواري الخازباز به جنونا
وقال الأعشى:

الغيث صوبه وضع القذ وجن التلاع والآفاق
يزدهم سفاهة شرب الخم اللهو بينهم والسباق
وقال النابغة:

وحيس الجن إني قد أذنت لهم تدمر بالصفاح والعمد

ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهلُ تدمُر يزعمون أنّ ذلك البناء بُنيَ قبل زمن سليمان، عليه السلام، بأكثر مما بيننا اليوم وبين سليمان بن داود عليهما السلام قالوا: ولكتكم إذا رأيتم بنياناً عجيباً، وجهتم موضع الجيلة فيه، أضفتموه إلى الجنِّ، ولم تعانوه بالفكر.
وقال العَرَجِيُّ:

سَدَّتْ مَسَامِعَهَا بَفْرَجِ مَرَاجِلِ نَسْجِ جِنِّ مِثْلِهِ لَا يُنْسَجُ
وقال الأصمعيُّ: السيوف المأثورة هي التي يقال إنها من عمل الجن والشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام، فأما القوارير والحمامات، فذلك ما لا شك فيه، وقال البعيث:

**زِيَادُ لِدِكْرِ اللَّهِ مَصْنَعَةٌ الْجِجَارَةِ لَمْ تُعْمَلْ مِنْ
الطِّينِ**
غير أنّ الإنسَ ترفَعُها بنتُ لسليمانَ الشياطينُ
وقال المقنَّبُ الكِنْدِيُّ:

**الظُّعَائِنِ وَالْأَخْدَاجِ أَمْلَحُ الْعِرَاقِ وَحَلَّ الشَّامِ
وَاليَمَنَا**
مِنْ نِسَاءِ الْإِنْسِ أَحْسَنُ مَسِ النَّهَارِ وَبَدْرِ اللَّيْلِ لَوْ
مَكْتَوْمَةٌ الذِّكْرِ عِنْدِي مَا حَبِيبُ الْعَمْرِ مَلِثُ الصَّرَمِ
وَالْحَرَّتَا

وقال أبو التَّجَم:

**عَقْلًا وَالرَّهَانَ عَمَلُهُ تُرَبَّ الْقَاعِ حِينَ تَسَحَّلُهُ
شَيَاطِينِ رَفَنُهُ شَمَالُهُ**
وقال الأعشى في المعنى الأوَّل، من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام:

**عَارِيَا لَمْ يَمْنَعِ الْمَوْتَ رَبُّهُ بَتِيمَاءِ الْيَهُودِيِّ أْبَلِقُ
سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ حِقْبَةً جَنْدَلُ صُمُّ وَطِيُّ مَوْتِقُ**

مواضع الجن

وكما يقولون: قنفذ بُرْقة، وضُبُّ سحَا، وأرنب الخَلَّة، وذئب حَمْر فيفرون بينها وبين ما ليست كذلك إمَّا في السُّمن، وإمَّا في الحُبث، وإمَّا في القوة - فكذلك أيضاً يفرون بين

مواضع الجن، فإذا تَسَبَّوا الشُّكْلَ منها إلى موضعٍ معروف، فقد حَصُّوه من الحُبث و القُوَّة
والعرامة بما ليس لجملتهم وجمهورهم، قال لبيد:

تَشَدَّرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا البَدِيَّ رَوَاسِيَا أَقْدَامُهَا

وقال النَّابِغَةُ:

سَهْكِينَ مِنْ صَدَا الحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البَقَّارِ

وقال زهير:

عَلَيْهِنَّ فَيُيَانُ كَجِنَّةِ عَبَقْرِ جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يُنِفُوا
هَيَسْتَعْلُوا

وقال حاتم:

عَلَيْهِنَّ فَيُيَانُ كَجِنَّةِ عَبَقْرِ يَهْزُونَ بِالأَيْدِي الوَشِيحِ
المَقُومَا

ولذلك قيل لكلِّ شيءٍ فائق، أو شديدٍ: عبقرى.

وفي الحديث، في صفة عمر رضي الله عنه فلم أر عبقرياً يفري

قَرِيَّه، قال أعرابي: ظلمني والله ظلماً عبقرياً.

مراتب الجن والملائكة

ثمَّ ينزلون الجن في مراتب، فإذا ذكروا الجَنِّيَّ سالماً قالوا:

جني، فإذا أرادوا أَنَّهُ ممن سكن مع النَّاسِ قالوا: عامر،

والجميع عُمَّار، وإنْ كان ممن يعرض للصبيان فهُمُ أرواح، فإن

حُبث أحدهم وتعزَّم فهو شيطان، فإذا زاد على ذلك فهو مارد،

قال الله عز ذكره: "وَجِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ" فإن زاد

على ذلك في القوّة فهو عفريت، والجميع عفاريت، قال الله تعالى: "قال عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ".

وهم في الجملة جنٌّ وخوافي، قال الشاعر:

يُحَسُّ سِوَى الْخَافِي بِهَا أَثْرُ

فإن طهرَ الجني وتطف وتقي وصار خيراً كله فهو ملك، في قول من تأول قوله عز ذكره: "كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" على أن الجنَّ في هذا الموضع الملائكة.

وقال آخرون: كان منهم على الإضافة إلى الدار والديانة، لا على أنه كان من جنسهم، وإنما ذلك على قولهم سليمان بن يزيد العدوي، وسليمان بن طرخان التيمي، وأبو علي الحرمازي، وعمرو بن فائد الأسواري، أضافوهم إلى المحال، وتركوا أنسابهم في الحقيقة. استطراد لغوي وقال آخرون: كلُّ مُسْتَجِنٍّ فهو جِنِّيٌّ، وجانٌّ، وجنين، وكذلك الولدُ قيل له جنينٌ لكونه في البطن واستجنانه، وقالوا للميت الذي في القبر جنين، وقال عمرو بن كلثوم:

شَمَطَاءُ لَمْ تَدْرِعِ الْمَنَايَا مِنْ تِسْعَةِ إِلَّا جَنِينَا
يُخْبِرُ أَهْلَهَا قَدْ دَفَنَتْهُمْ كُلَّهُمْ.

قالوا: وكذلك الملائكة، من الحَقَظَة، والحَمَلَة، والكَرْوَبِيَّيْنِ، فلا بدُّ من طبقات، وربُّما فُرِّقَ بينهم بالأعمال، واشتُقَّ لهم الاسمُ من السَّببِ كما قالوا لواحدٍ من الأنبياء: خليل الله، وقالوا لآخر: كلِّم الله، وقالوا لآخر: روح الله.

مراتب الشجعان

والعرب تُنزل الشُّجعاء في المراتب، والاسم العامُّ شجاع، ثمَّ بطلًا، ثمَّ بُهمة، ثم أليس، هذا قول أبي عبيدة.

فأمَّا قولهم: شيطان الحماطة، فإنهم يعنون الحيَّة، وأنشد الأصمعي:

تُلاعبُ منِّي حَصْرَمِيَّ كَأَنَّهُ شيطان يذِي خِرْوَعٍ قَفْرٍ
وقد يُسمُّون الكبر والطغيان، والحُزْوانة، والغضبَ الشَّدِيدَ شيطانًا، على التَّشْبِيهِ، قالَ عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: والله لأنزِعَنَّ نُعْرَتَهُ، ولأضربنَّه حتى أنزع شيطانه من نخرته.

مراتب الجن والأعراب تجعل الخوافي والمستجئات، من قبل أن ترتب المراتب، جنسين، يقولون جنَّ وحنَّ، بالجيم والحاء، وأنشدوا:

أهوي في شياطينٍ تُهَجَّتْ لِي نِجَواهُمُ جِنٌّ وَجِنٌّ
ويجعلون الجنَّ فوق الحنَّ، وقال أعشى سليم:

أنا من جنِّ إذا كنتُ ولستُ من النَّسَاسِ في خافياً
عنصر البشرُ
ذهب إلى قول من قال: البشر ناسٌ ونسناس، والخوافي حنَّ وحنَّ، يقول: أنا من أكرم الجنسين حيثما كنت.

شيطان ضعفه التُّسَاك والعباد وصَعَفَةُ النَّسَاك وأغبياءُ العُباد، يزعمون أنَّ لهم خاصَّة شيطاناً قد وُكِّلَ بهم، ويقال له المذهب يُسْرِجُ لهم النَّيران، وُضِيءَ لهم الظُّلْمَةُ ليفتنهم وليريهم العجب إذا طُنُّوا أنَّ ذلك من قِبَلِ الله تعالى.

شيطان حفظة القرآن وفي الحديث أنَّ الشَّيْطَانَ الذي قد تفرَّد بحفظة القرآن يُنْسِيهِم القرآن، يسمى حَنْرَب، وهو صاحب عثمان بن أبي العاص. الخابل والخبيل قال: وأما الخابل والخبيل، فإنما ذلك اسمٌ للجنِّ الذين يخلون النَّاسَ بأعيانهم، دون غيرهم، وقال

جِنَّانَ بَهَنَ وَخَبَلُ
كأنه أخرج الذين يخلون ويتعرَّضون، ممَّن ليس عنده إلاَّ العزيف والنُّوح، وفصل أيضاً لبيدُ بينهم فقال:

أعاذلُ لو كان التَّداد لُقوتلوا أتانا كُلُّ جِنِّ وخابلٍ

وقد زعم ناسٌ أنّ الخبلَ والخابلَ ناس، قالوا: فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يقول أوس بن حجر:

جِنَانٌ بهنِ وَحُبْلٌ

استطراد لغوي

قالوا: وإذا تعرّضت الجنّة وتلوّنت وعيثت فهي شيطانة، ثم عُول، والعُول في كلام العرب الدّاهية، ويقال: لقد غالتهُ غول، وقال الشاعر:

بيتي في عِرٍّ وفي سَعَةٍ صدقت ولكن أنت
مدحُولٌ بأسَ بالبيتِ إلا ما وتهدّمه هدّاً له
صنعت به

وقال الرّاجز:

والحربُ غولٌ أو كيشبه العُولِ بالراياتِ والطُّبولِ
للأوتارِ والدُّحُولِ جِملَاقٍ عَيْنٍ ليس بالمكحُولِ

زواج الأعراب للجن

ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم، ويكلمونهم، ويناكحونهم، ولذلك قال شمر بن الحارث الصّبي:

قد حضأتُ بُعَيْدَ هَدْعٍ لا أريدُ بها مُقاماً
تَحليلِ راحلةٍ وعيرٍ كالثُّها مخافة أن تناما
تأري فقلبتُ منونَ قالوا الجنُّ قلتُ عموا ظلاما
إلى الطَّعامِ فقال نحسد الإنسان الطَّعاما

وذكر أبو زيدٍ عنهم أن رجلاً منهم تزوج السّعلاة، وأنها كانت عنده زماناً، وولدت منه، حتّى رأّت ذات ليلةٍ بَرَقاً على بلاد السّعالِي، فطارثُ إليها، فقال:

بَرَقاً فأوضَعَ فوقَ بَكْرِ بِكِ ما أسال وما أغاماً

فمن هذا التَّنَاجِ المشترك، وهذا الخُلُقِ المرَكَّبِ عندهم، بنو السُّعْلاة، من بين عمرو بن يربوع، وبلقيسُ ملكة سبأ، وتأوَّلوا قول الشاعر:

إِنَّ جُرْهُمًا عِبَادُكَ النَّاسَ طِرْفٌ وَهُمْ تِلَادُكَ
فَرَعَمُوا أَنْ أَبَا جُرْهِمٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا إِذَا عَصُوا فِي
السَّمَاءِ أَنْزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ، كَمَا قِيلَ فِي هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَجَعَلُوا
سُهَيْلًا عَشْرًا مُسِيخَ نَجْمًا، وَجَعَلُوا الزُّهْرَةَ امْرَأَةً بَغِيًّا مُسِيخَتْ
نَجْمًا، وَكَانَ اسْمُهَا أَنَاهِيدَ.

وتقول الهند في الكوكب الذي يسمَّى عُطَارِدَ شَبِيهًا بهذا.
المخدومون ويقول الناس: فلانٌ مخدومٌ يذهبون إلى الله إذا عَزَمَ
على الشَّيَاطِينِ والأرواحِ والعُمَّارِ أَجَابُوهُ وَأَطَاعُوهُ، منهم عبد
الله بن هلال الحميريِّ، الذي كان يقال له صديق إبليس، ومنهم
كرباش الهنديِّ، وصالح المديبري.

شروط إجابة العامر للعزيمة وقد كان عبید مُجَّ يقول: إن العامر
حريصٌ على إجابة العزيمة، ولكنَّ البدنَ إذا لم يصلح أن يكون له
هيكلًا لم يستطع دخوله، والحيلةُ في ذلك أن يتبخَّرَ باللبن
الذَّكَرِ، ويراعي سَيْرَ المشتري، ويغتسلَ بالماء القراح، ويدع
الجماعَ وأكلَ الزُّهُوماتِ، ويتوحَّش في الفيافي، ويكثر دخول
الخراباتِ، حتى يرقَّ ويلطف ويصفو ويصير فيه مشابهُ من

الجنّ، فإن عزم عند ذلك فلم يُجب فلا يعودنّ لمثلها فإنه ممّن لا يصلح أن يكون بدنه هيكلًا لها، ومتى عاد حُبط فر بما جنّ، وربما مات.

قال: فلو كنت ممّن يصلح أن يكون لهم هيكلًا لكنت فوق عبد الله بن هلال.

رؤية الجن

قال الأعراب: وربما نزلنا بجمع كثير، ورأينا خياماً وقباباً، وناساً، ثم فقدناهم من ساعتنا. والعوام ترى أنّ ابن مسعود، رضي الله عنه، رأى رجالاً من الرُّطّ فقال: هؤلاء أشبه من رأيت بالجنّ ليلة الجنّ.

قال: وقد روي عنه خلاف ذلك.

وتأولوا قوله تعالى: "وأنّه كان رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً"، ولم يهلك الناس كالتأويل.

ومما يدلُّ على ما قلنا قولُ أبي التّجم، حيث يقول:

تُستنُّ مع الجنّ العولُ

فأخرج الغول من الجنّ، للذي بانّت به من الجنّ.

وهكذا عادتهم: أن يُخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك

الشيء في الجملة، فيظهر لأمر خاصّ.

وفي بعض الرّواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف

الأوثان همهمة، وأن خالد بن الوليد حين هدم العُزّي رمته

بالشَّرِّ حتى احترق عامَّةُ فخذِه، حتى عادهُ النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وهذه فتنةٌ لم يكن الله تعالى ليمتحنَ بها الأعرابَ وأشباه الأعراب من العوامِّ، وما أشكُ أنه قد كانتْ للسَّدنة حِيْلٌ وألطف لمكان التكبُّب.

ولو سمعت أو رأيت بعض ما قد أعدَّ الهنْدُ من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم، لعلمت أنَّ الله تعالى قد مَنَّ على جملة الناس بالمتكلمين، الذين قد نشؤوا فيهم.

افتتان بعض النصارى بمصايح كنيسة قمامة وقد تَعْرِف ما في عجايز النصارى وأغمارهم، من الافتتان بمصايح كنيسة قمامة، فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الكذب الصِّرف، والجرأة على البُهتان البَحْت، وقد تَعَوَّدُوا المكابرة حتى دربوا بها الدَّرب الذي لا يفطن له إلا ذو الفِراسة الثَّابتة، والمعرفة الثَّابتة.

إيمان الأعراب بالهواتف

والأعرابُ وأشباهُ الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون ممن ردَّ ذلك، فمن ذلك حديث الأعشى بن نباش بن زرارة الأسدي، أنه سمع هاتفاً يقول:

هَلَكَ الْفِيَاضُ غَيْثُ بَنِي الْبَاعِ وَالْمَجْدُ الرَّفِيعُ وَذُو

قال: فقلتُ مجيباً له:

**أَيُّهَا النَّاعِي أَخَا الْجُودِ الْمَرْءُ تَنْعَاهُ لَنَا مِنْ بَيْنِ
وَالنَّدَى**

فقال:

**ابن جَدْعان بن عمرو الحسب القُدْموس
النَّدَى
وهذا الباب كثير.**

قالوا: ولتقل الجنُّ الأخبارَ علمَ الناس بوفاة الملوك، والأمور المهمة، كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة في اليوم الذي تُوفي فيه بقرب مكة، وهذا الباب أيضاً كثير.

من له رئيُّ من الجن

وكانوا يقولون: إذا ألف الجنِّي إنساناً وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار، وجد حسه ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئيُّ من الجن، وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لُحيِّ بن قَمعة، والمأمور الحارثي، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، في ناسٍ معروفين من ذوي الأقدار، من بين فارس رئيس، وسيِّد مُطاع.

فأما الكهَّان: فمثل حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وعُزَّى سلمة، ومثل شوقٍ، وسطيح، وأشباههم، وأما العرَّاف، وهو دون الكاهن، فمثل الأبلق الأسدي، والأجلح الزهري، وعروة ابن زيد الأسدي، وعرَّاف اليمامة رياح بن كحلَّة، وهو صاحب بنت المستنير البلتعي، وقد قال الشاعر:

لعراف اليمامة داووني إِنَّ أَبْرَأْتَنِي لَطَيْبٌ

وقال جُبَيْهَاءُ الْأَشْجَعِيُّ:

هَوَى صَفِيَّةً فِي فَوَادِي سَيَّرْتُ كُلَّ هَوَى حَبِيبِ
الْخِيَرَاتِ كَيْفَ مُنِحَتْ وَدِّي أَنَا مِنْ هَوَاكِ بِذِي تَصِيبِ
وَعَرَوْهُ الْأَسَدِيُّ يُرْقِي بَرْقِيَةَ الْمَلِيقِ الْكَذُوبِ
لَعَمْرُكَ مَا التَّثَاؤُبُ يَا ابْنَ بَنِي شَيْفٍ مِنْ رُقَاكَ وَلَا مُجِيبِ
النَّاعِجَاتِ أَظُنُّ أَشْفَى بِي مِنْ طَبِيبِ بَنِي الذَّهَبِ

وليس البابُ الذي يدَّعيه هؤلاء من جنس العيافة والرَّجْر، والخطوط، والنظر في أسرار

الكفِّ، وفي مواضع قرص الفار، وفي الخيلان في الجسد، وفي النظر في الأكتاف، والقضاء
بالنجوم، والعلاج بالفكر.

وقد كان مُسَيْلِمَةُ يدَّعي أن معه رثياً في أوّل زمانه، ولذلك قال الشَّاعر، حين وَصَفَ مَخَارِقَهُ
وَحُدَّعَهُ:

قَارُّورٍ وَرَايَةَ شَادِنٍ جِنِّيَّ وَتَوْصِيلِ طَائِرِ
أَلَا تَرَاهُ ذَكَرَ خُلَّةَ الْجَنِيِّ.

ظهور الشق للمسافرين

ويقولون: ومن الجنِّ جنسٌ صورُهُ الواحدِ منهم على نصف صورة الإنسان، واسمه شِقٌّ، وإِنَّهُ
كثيراً ما يعرض للرجل المسافر إذا كان وَحْدَهُ، فربَّما أَهْلَكَه فزعاً، وربما أَهْلَكَه ضرباً وقتلاً.
قالوا: فمن ذلك حديثُ علقمة بن صَفْوَانَ بن أميَّة بن محرَّث الكناني، جدُّ مروان بن الحكم،
خرج في الجاهلية، وهو يريد مالاً له بمكة، وهو على حمار، وعليه إزارٌ ورداء، ومعه مِقْرَعَةٌ،
في ليلةٍ إِضْحِيَانَةٍ، حتى انتهى إلى موضعٍ يقال له حائط حزمان، فإذا هو بشقٍّ له يدٌ ورجل،
وعينٌ، ومعه سيف، وهو يقول:

إِنِّي مَقْتُولٌ
أَصْرُبُهُمْ بِالْهَدْلُولِ
الذَّرَاعِ بُهْلُولِ
لِحَمِي مَأْكُولِ
ضَرَبَ غَلَامٍ شُمَّلُولِ

فقال علقمة:

عَنِّي مُنْصَلِكٌ

شَقَّهَا مَالِي وَلَكِ
مَنْ لَا يَقْتُلُكَ

فقال شقُّ:

أَتَيْحَ مَقْتَلُكَ

لَكَ عَبِيْتُ لَكَ
فَاصْبِرْ لِمَا قَدْ حُمَّ لَكَ

قال: فضرب كل واحدٍ منهما صاحبه، فخرًّا ميتين، فممن قتلت الجنُّ علقمة ابن صفوان هذا، وخرَّب بن أمية.
قالوا: وقالت الجنُّ:

خَرَّبَ بِمَكَانٍ قَفَرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ خَرَّبٍ قَبْرٌ
قالوا: ومن الدليل على ذلك، وعلى أن هذين البيتين من أشعار

الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدهما ثلاث مرات متصلة، لا

يتتبع فيها، وهو يستطيع أن ينشد أثقل شعر في الأرض وأشقاه

عشر مرات ولا يتتبع.

ذكر من قتله الجن أو استهوته

قال: وقتلت مرداس بن أبي عامر، أبا عباس بن مرداس، وقتلت الغريص خنفاً بعد أن عني بالغناء الذي كانوا نهوه عنه، وقتلت الجنُّ سعد بن عبادة بن دليم، وسمعوا الهاتف يقول:

سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ

قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْرِ

نُحِطُ فُؤَادَهُ

رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ

واستهوا سنان بن أبي حارثة ليستفحلوه، فمات فيهم،

واستهوا طالب بن أبي طالب، فلم يوجد له أثر إلى يومنا هذا.

واستهوا عمرو بن عدي اللخمي الملك، الذي يقال فيه: شب

عمرو عن الطوق، ثم ردوه على خاله جذيمة الأبرش، بعد سنين

وسنين .

واستهووا عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونفخوا في إحليله فصار مع الوحش .

ويروون عن عبد الله بن فائد بإسنادٍ له يرفعه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: خرافة رَجُلٍ من عُذْرَةِ استهوته الشَّيَاطِينُ، وأَنَّهُ تَحَدَّثَ يَوْمًا بِحَدِيثٍ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ من نَسَائِهِ: هَذَا من حَدِيثِ خُرَافَةٍ قَالَ: لا، وَخُرَافَةٌ حَقٌّ.

طعام الجن

وروا عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّهُ سَأَلَ المَفْقُودَ الَّذِي اسْتَهَوْتَهُ الجِنُّ: ما كان طعامهم؟ قال: الفول، قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف.

وروا أَن طعامهم الرِّمَّة وما لم يذكر اسمُ الله عليه .
وروا عن النبي صلى الله عليه وسلم - والحديث صحيح - أَنَّهُ قَالَ: حَمَّرُوا آئِنْتِكُمْ، وَأَوْكِنُوا أَسْقِيَتِكُمْ وَأَجِيفُوا الأبوابَ، وَأَطْفَأُوا المصابيحَ، وَاكْفُفُوا صَبِيانِكُمْ، فَإِنَّ للشَّيَاطِينِ انْتِشاراً وَخَطْفَةً،

رؤوس الشياطين

وقد قال الناس في قوله تعالى: "إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الجحيم، طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ"، فزعم ناس أن رُؤُوس
الشَّيَاطِينِ ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن، لها منظر كريحه.
والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عنى إِلَّا رُؤُوس
الشَّيَاطِينِ المعروفين بهذا الاسم، من قَسَقَةِ الجن وَمَرَدَتِهِمْ،
فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء
لم نَرَهُ فنتوهّمه، ولا وُصِفَتْ لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر
صادق، ومخرج الكلام يدلُّ على التخويف بتلك الصُّورة، والتفزيح
منها، وعلى أَنَّهُ لو كان شيءٌ أبلغ في الرَّجْرَجِ من ذلك لذكره،
فكيف يكون الشَّان كذلك، والناس لا يفزعون إِلَّا من شيء هائل
شنيع، قد عاينوه، أو صوّره لهم واصفٌ صدوق اللسان، بليغ في
الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صوّرها لنا صادق، وعلى أَن أكثر
الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن
من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهّمون ذلك، ولا يقفون
عليه، ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟
قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ولا صور رؤوسها لنا صادق
بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بفتح الشيطان، حتى
صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من
الشيطان، والوجه الآخر أن يسمي الجميل شيطاناً، على جهة
التطير له، كما تُسمي الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة
صماء، وقرناء، وحنساء، وجرباء وأشباه ذلك، على جهة التطير
له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب
المثل بفتح الشيطان، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل
قبيح.

والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية
التثبيت.

وكما يقولون: لهو أقبح من السحر، فكذلك يقولون، كما قال عمر
بن عبد العزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته - هذا
والله السحر الحلال.

وكذلك أيضاً ربما قالوا: ما فلان إلا شيطان على معنى الشهامة
والنفاذ وأشباه ذلك.

صفة الغول والشيطان والعامّة تزعم أن الغول تتصور في أحسن

صورة إلا أنه لا بدَّ أن تكون رَجُلُها رَجَلِ حمارٍ.
وخبروا عن الخليل بن أحمد، أنَّ أعرابياً أنشده:
وحافر العير في ساقٍ وجفن عينٍ خلاف الإنسِ في
حَدَلَجَةٍ الطولِ
وذكروا أنَّ العامَّة تزعم أنَّ شقَّ عين الشيطان بالطول، وما
أظنُّهم أخذوا هذين المعنيين إلاَّ عن الأعراب.

ردَّ على أهل الطعن في الكتاب وأما إخبارهم عن هذه الأمم،
وعن جهلها بهذا الإجماع والاتِّفاق والإطباق، فما القول في ذلك
إلاَّ كالقول في الزبانية وخرقة جهنَّم، وصُور الملائكة الذين
يتصوِّرون في أقبح الصُّور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار،
وكذلك في صور مُنكر ونكير، تكون للمؤمن على مثال، وللكافر
على مثال.

ونحن نعلم أنَّ الكفار يزعمون أنهم لا يتوهَّمون الكلامَ والمحاجَّةَ
من إنسان ألقى في جاحم أئُّون فكيف بأن يُلقى في نار جهنَّم؟
فالحجَّة على جميع هؤلاء، في جميع هذه الأبواب، من جهةٍ
واحدة، وهذا الجوابُ قريبٌ، والحمد لله.

وشقُّ فم العنكبوت بالطول، وله ثماني أرجل.

سكنى الجن أرض وبارٍ

وتزعم الأعرابُ أن الله عزَّ ذكره حين أهلك الأمة التي كانت تسمَّى وبارٍ، كما أهلك طسماً،
وجديساً، وأميمياً، وجاسماً، وعملاقاً، وشموداً وعاداً - أنَّ الجنَّ سكنت في منازلها وحمتها من
كلِّ مَنْ أرادها، وأنها أخصبُ بلاد الله، وأكثرها شجراً، وأطيبها ثمراً، وأكثرها حبّاً وعباباً، وأكثرها
نخلًا وموزاً، فإن دنا اليوم إنسانٌ من تلك البلاد، متعمِّداً، أو غالطاً، حثوا في وجهه التراب، فإن
أبى الرجوعَ خبلوه، وربما قتلوه.

والموضع نفسه باطل، فإذا قيل لهم: دُلُّونا على جهته، ووقفونا على حدِّه وخلاكم ذمُّ - زعموا
أنَّ من أراد ألقى على قلبه الصَّرفة، حتَّى كأنهم أصحابُ موسى في التَّيه، وقال الشاعر:

**دعا والليلُ مرخُ سُدوله القري يا مُسليمَ بن حمارٍ
جُعلاً لا يهتدي لمقيله اللوم حتَّى يهتدي لوبارٍ**

فهذا الشاعرُ الأعرابيُّ جعل أرض وبارٍ مثلاً في الضلال، والأعراب يتحدَّثون عنها كما يتحدَّثون
عما يجدونه بالدَّوِّ والصَّمان، والدهناء، ورمل بيرين، وما أكثر ما يذكرون أرض وبارٍ في الشُّعر،
على معنى هذا الشاعر.

قالوا: فليس اليومَ في تلك البلاد إلاَّ الجنُّ، والإبلُ الحُوشية.

الحوشية من الإبل والحوشُ من الإبل عندهم هي التي ضربت فيها فحولُ إبل الجن،
فالحوشية من تسُل إبل الجن، والعيدية، والمهريّة، والعسجدية، والعُمانية، قد ضربت فيها
الحوش، وقال رُوبة:

رحانا من بلاد الحوش

وقال ابن هريم:

**على حُوشيةٍ أو تعاميةٍ نسبُ في الطيرِ وهو ظليمُ
وإنما سمّوا صاحبة يزيد بن الطثرية حُوشية على هذا المعنى.**

التحصن من الجنِّ

وقال بعضُ أصحاب التفسير في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ
مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا": إِنَّ جماعة

من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسَّطوا بلاد الحُوش، خافوا عبث الجنِّ والسَّعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائدِرُن بسيدِّ هذا الوادي فلا يؤذِيهم أحدٌ، وتصير لهم بذلك خفارة.

أثر عشق الجن في الصرع

وهم يزعمون أن المجنون إذا صرَعته الجنَّة، وأنَّ المجنونة إذا صرَعها الجنِّي - أنَّ ذلك إنما هو على طريق العشق والهوى، وشهوة التَّكاح، وأنَّ الشيطان يعشق المرأة مَّثًا، وأنَّ نظرتَه إليها من طريق العُجب بها أشدُّ عليها من حُمى أيام، وأنَّ عين الجنِّ أشدُّ من عين الإنسان.

قال: وسمع عمرو بن عُبيد، رضي الله عنه، ناساً من المتكلِّمين يُنكِرُون صرَع الإنسان للإنسان، واستهواء الجنِّ للإنس، فقال وما ينكرون من ذلك وقد سمعوا قول الله عزَّ ذكره في أكَلَة الرِّبا، وما يصيبهم يوم القيامة، حيث قال:

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ"، ولو كان الشَّيطانُ لم يَحْبِطُ أحداً لما

ذكر الله تعالى به أكلة الربا، ف قيل له: ولعل ذلك كان مرّةً
فذهب، قال: ولعله قد كثر فازداد أضعافاً، قال: وما يُنكرون
من الاستهواء بعد قوله تعالى: "كالذي استهوّته الشياطين في
الأرض خيراناً".

زعم العرب أن الطاعون طعن من الشيطان قال: والعرب
تزعّم أن الطاعون طعن من الشيطان، ويسمّون الطّاعون
رماح الجنّ، قال الأسدّيُّ للحارث الملك الغساني:

لَعَمْرُكَ مَا حَشَيْتُ عَلِيَّ أَبِي بني مُقَيِّدَةَ الحِمَارِ
ولكنني حَشَيْتُ عَلِيَّ أَبِي الجنّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ
يقول: لم أكن أخاف عليّ مع منعه وصرامته، أن يقتله الأذال، ومن يرتبط العير دون
القرس، ولكنني إنما كنت أخافك عليه، فتكون أنت الذي تطعنه أو يطعنه طاعون السّام.
وقال العُمانيّ يذكر دولة بني العبّاس:

دَفَعِ اللهُ رِمَاحَ الجنِّ وأذهب العذابَ والتَّجَنِّيَّ
وقال زيد بن جُنْدَبِ الإياديّ:

رِمَاحُ الجنِّ ما كان هَزْهَمَ الأَعادي من فصيح
وَأَعْجَمَ
ذهب إلى قول أبي دؤاد:

الموتُ والمنونُ عليهم في صدى المقابر هامٌ
يعني الطاعون الذي كان أصاب إياداً.

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه ذكر
الطّاعون فقال: "هو وَخْرٌ من عَدُوِّكم": وأنّ عَمْرُو بن العاص

قام في النَّاسِ في طاعون عَمَواس فقال: إِنَّ هذا الطاعون قد ظهر، وإنما هو وَحْرٌ من الشَّيْطان، ففِرُّوا منه في هذه الشَّعاب. وبلغ مُعاذ بن جَبَلٍ، فأنكر ذلك القول عليه.

تصور الجنِّ والغيلان والملائكة والناس

وتزعم العامَّة أنَّ الله تعالى قد مَلَّك الجن والشياطين والعُمَّار والغيلان أن يتحوَّلوا في أيِّ صورة شاؤوا، إلاَّ الغول، فإنَّها تتحوَّل في جميع صُورة المرأة ولباسها، إلاَّ رجليها، فلا بُدَّ من أن تكون رجليَّ حمار.

وإنما قاسُوا تصوُّر الجن على تصوُّر جبريل عليه السلام في صورة دَحْيَةَ بن خليفة الكلبي، وعلى تصوُّر الملائكة الذين أنوا مريم، وإبراهيم، ولوطاً، وداود عليهم السلام في صورة الآدميين، وعلى ما جاء في الأثر من تصوُّر إبليس في صورة سُراقَةَ بن مالك بن جَعشم، وعلى تصوُّره في صورة الشيخ النجدي، وقاسوه على تصوُّر مَلَك الموت إذا حضر لقبض أرواح بني آدم، فإنه عند ذلك يتصوَّر على قدر الأعمال الصالحة والطلاحة.

قالوا: وقد جاء في الخبر أنَّ من الملائكة من هو في صورة الرِّجال، ومنهم من هو في صورة الثِّيَّران، ومنهم من هو في صورة النسور، وبدلُّ على ذلك تصديقُ النبي صلى الله عليه وسلم لأميَّة بن أبي الصِّلَت، حين أنشد:

وتَوَّزُّ تحت رِجْلِ يمينِهِ النَّسْرُ للأُخْرَى وَلَيْتُ مُرْصِدُ

قالوا: فإذا قد استقام أن تختلف صُورهم وأخلاق أبدانهم،

وتتفق عقولهم وبياناتهم واستطاعتهم، جاز أيضاً أن يكون إبليس

والشَّيْطان والغول أن يتبدلوا في الصُّور من غير أن يتبدلوا في

العقل والبيان والاستطاعة.

قالوا: وقد حَوَّلَ اللهُ تعالى جعفر بن أبي طالب طائراً، حتى سماه المسلمون الطَّيَّار، ولم يخرجْهُ ذلك من أن نراه غداً في الجنة، وله مثلُ عقل أخيه علي رضي الله عنهما، ومثل عقل عمه حمزة رضي الله تعالى عنه، مع المساواة بالبيان والخلق.

أحاديث في إثبات الشيطان

قالوا: وقد جاء في الأثر النهي عن الصَّلاة في أعطان الإبل، لأنَّها خلقت من أعنان الشياطين.

وجاء أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم تَهَى عن الصَّلاة عند طلوع الشَّمس حتى طلوعها، فإنَّها بين قرني شيطان.

وجاء أنَّ الشياطين تُعَلُّ في رمضان.

فكيف تنكر ذلك مع قوله تعالى في القرآن: "وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَّاصٍ، وَأَحْرَبِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ".

ولشهرة ذلك في العرب، في بقايا ما ثبتوا عليه من دين إبراهيم عليه السَّلام، قال النابغة الذبياني:

سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ فِي الْبَرِيَّةِ فَاخْذُهَا عَنْ
وَخَيْسِ الْجِنَّ إِيَّيْ قَدْ أَذِنْتُ تَدْمُرُ بِالصُّفَّاحِ وَالْعَمْدِ
عصاك فعاقبه مُعاقبه الظُّلوم ولا تُفعد على

وجاء في قتل الأسود البهيم من الكلاب، وفي ذي النُّكْتين، وفي الحية ذات الطُّفَيْتَيْنِ، وفي الجانِّ.

وجاء: لا تشربوا من ثلثة الإناء، فإنه كِفْل الشَّيْطَان، وفي
العاقِد شَعْرَه في الصلَاة: إِنَّه كِفْل الشَّيْطَان، وأن النبي صلى
الله عليه وسلم قال: تراصُّوا بينكم في الصلَاة، لا تتخللكم
الشَّيْطَان كَأَنَّهَا بنات حذف، وأَنَّهُ نهى عن ذبائح الجن.
وروا: أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت:
إنَّ ابني هذا، به جنونٌ يصيبه عند الغداء والعشاء قال: فمسح
النبيُّ صلى الله عليه وسلم صدره، فثَعَّ ثعة فخرج من جوفه
جرؤ أسود يسعى.

قالوا: وقد قضى ابن عُلاثة القاضي بين الجنِّ، في دم كان
بينهم بحكمٍ أقنعهم.

رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القولُ إلى تفسير
قصيدة البهراني: أما قوله:

وتزوَّجتُ في الشَّيْبَةِ غولاً بَغْزَالاً وَصَدَّقْتِي زِقُّ خَمْرٍ
فزعم أنه جعل صداقها غزلاً وزِقُّ خمر، فالخمر لطيب الرائحة، والغزَالُ لتجعله مَرَكَباً، فإنَّ
الطَّباء من مراكب الجن.

وأما قوله:

إنَّ هَوَيْتُ ذلكَ منها شئتُ لم أجِدُ غيرَ بَكرٍ
كانه قال: هي تتصوَّر في أيِّ صورةٍ شاءت.

شياطين الشعراء

وأما قوله:

عَمْرُو وَخَالِهَا مِسْحَلٌ وَخَالِي هُمِيمٌ صَاحِبُ عَمْرُو

فإنهم يزعمون أنّ مع كلِّ فحلٍّ من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحلُّ على لسانه الشعر، فزعم البهراني أنّ هذه الجنّية بنت عمرو صاحب المخبّل، وأنّ خالها مسحلّ شيطان الأعشى، وذكر أنّ خاله هُميم، وهو همّام، وهَمّام هو الفرزدق، وكان غالبُ بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم.

وأما قوله: صاحب عمرو فكذلك أيضاً يقال إن اسم شيطان الفرزدق عمرو، وقد ذكر الأعشى مسحلاً حين هجاه جُهّام فقال:

دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلًا وَدَعَوَا جُهّامَ جَدْعًا لِلْهَجِينِ الْمَدَمِّمِ

وذكره الأعشى فقال:

حَبَانِي أَخِي الْجَنِّيُّ نَفْسِي جَيَّاشِ الْعَشِيَّاتِ مَرْجَمِ

وقال أعشى سليم:

كَانَ جِنِّيُّ الْفَرَزْدَقِ كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ فَحْلٍ
قَدْوَةٌ الْمَخْبَلِ
فِي الْخَوَافِي مِثْلَ عَمْرُو بَعْدَ عَمْرُو شَاعِرٌ مِثْلُ
وَشَيْخِهِ مِسْحَلِ

وقال الفرزدق، في مديح أسد بن عبد الله:

لِيُبَلِّغَنَّ أَبَا الْأَشْبَالِ مَدْحَتِنَا كَانَ بِالْعُورِ أَوْ مَرْوِي
خَرَّاسَانَا
الذَّهَبِ الْعَقِيَانُ حَبْرَهَا أَشْعَرُ خَلْقِ اللَّهِ
شَيْطَانَا

وقال:

كُنْتُ عِنْدِي يَوْمَ قَوْوٍ دَهْنِي جِنَّهُ وَأَخَابِلُهُ

عذرتني

فمن أجل هذا البيت، ومن أجل قول الآخر:

اللَّهُ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ

رَاعَ جَارَتَهُ فَلَاقَى

زعموا أنَّ الخابل النَّاسَ.

ولما قال بشار الأعمى:

دعاني سنيقناقُ إلى حَلْفٍ : اتركني فالتفرُّدُ أحمدُ

يقول: أحمدُ في الشعر أن لا يكون لي عليه معين - فقال أعشى سُليم يرُدُّ عليه:

ألفَ الجنِّي قِرْدًا مُشْتَفًّا لخنازير الجزيرة أبشري

فجزع بشارٌ من ذلك جزعاً شديداً، لأنه كان يعلم مع تغرُّله أنَّ وجهه وجهُ قِرْدٍ، وكان أول ما

عُرف من جزعه من ذكر القرد، الذي رأوا منه حين أنشدوه بيت حماد:

عَمِيَ الْقِرْدُ

أَقْبَحَ مِنْ قِرْدٍ

وأما قوله:

خِطَّةٌ بِأَرْضِ وَبَارٍ مَسَّخُوهَا فَكَانَ لِي نَصْفُ

فإنما ادَّعى الرُّبع من ميراثها، لأنه قال:

عَبْدَلاً ثَمَالَ الْيَتَامِ وَأَخُوهُ مَزَاحِمَ كَانَ بَكَرَ

وَصَعَتُ تِسْعَةً وَكَانَتْ تَزُورًا نِسَاءً فِي أَهْلِهَا غَيْرُ تُزْرِ

وفي أنَّ مع كلِّ شاعرٍ شيطاناً يقول معه، قول أبي النجم:

وكلُّ شاعرٍ من البَشْطِيطَانِهْ أَتَشَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ

وقال آخر:

فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي

وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ

شَيْطَانِي كَبِيرَ الْجِنِّ

كلاب الجن

وأما قول عمرو بن كلثوم:

هَرَّتْ كِلَابُ الْجِنِّ مَنَا وَشَدَّبْنَا قِتَادَةَ مِن يَلِينَا
فَإِنهْم يَزْعَمُونَ أَنَّ كِلَابَ الْجِنِّ هُمُ الشَّعْرَاءُ.

أرض الجن

وأما قوله:

حُوشٍ وَجَامِلٍ عَكَّتَانِ عُرُوجٍ مِنَ الْمُؤَبَّلِ دَثْرٍ
فَأَرْضُ الْحُوشِ هِيَ أَرْضٌ وَبَارٍ، وَقَدْ فَسَّرْنَا تَأْوِيلَ الْحُوشِ،

وَالْعَكَّتَانِ: الْكَثِيرُ الَّذِي لَا يَكُونُ فَوْقَهُ عَدَدٌ، قَوْلُهُ: عُرُوجٍ جَمْعٌ

عَرَجٌ، وَالْعَرَجُ: أَلْفٌ مِنَ الْإِبِلِ نَقَصَ شَيْئاً أَوْ زَادَ شَيْئاً، وَالْمُؤَبَّلُ

مِنَ الْإِبِلِ، يُقَالُ إِبِلٌ مُؤَبَّلَةٌ، وَدِرَاهِمٌ مُدْرَهْمَةٌ، وَبَدْرٌ مُبَدَّرَةٌ، مِثْلُ

قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ" وَأَمَّا قَوْلُهُ: "دَثْرٌ" فَإِنهْمُ

يَقُولُونَ: مَالٌ دَثْرٌ، وَمَالٌ دَبْرٌ، وَمَالٌ حَوْمٌ: إِذَا كَانَ كَثِيراً.

استراق السمع

وأما قوله:

عَنْ حَرِيمِهَا كُلِّ عَفْرِسْرِقِ السَّمْعِ كُلِّ لَيْلَةٍ بَدْرِ
فَالْعَفْرُ هُوَ الْعَفْرِيتُ، وَجَعَلَهُ لَا يَسْرِقُ السَّمْعَ إِلَّا جَهَاراً فِي أَضْوَاءِ مَا يَكُونُ الْبَدْرُ، مِنْ شِدَّةِ

مَعَانِدَتِهِ، وَفَرَطَ قُوَّتِهِ.

الشَّنَقْنَقُ وَالشَّيْبَانُ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

فُتُوٌّ مِنَ الشَّنَقْنَقِ عُرِّ وَنِسَاءٌ مِنَ الزَّوَابِعِ زُهْرٍ
الزَّوَابِعُ: بَنُو زَوْبَعَةَ الْجَنِيِّ، وَهُمُ أَصْحَابُ الرَّهْجِ وَالقَتَامِ وَالتَّنْوِيرِ وَقَالَ رَاجِزُهُمُ:

الشياطين أتوني أربعة عَبَشَ الليل وفيهم رُوبعه
فأما شينقاق وشيصبان، فقد ذكرهما أبو النجم:

شِنِقْنَقُ وَشَيْصَبَانُ

فهذان رئيسان ومن آباء القبائل، وقد قال شاعرهم:

تَرَعْرَعُ فِينَا الْغَلَامُ فَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ مِنْ هُوَهُ
يَسُدُّ قَبْلَ شِدِّ الْإِزَارِ فِينَا الَّذِي لَا هُوَهُ
صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصِفَطُورِ أَقُولُ وَطُوراً هُوَهُ
وهذا البيت أيضاً يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون: إن مع كل شاعر شيطاناً،
ومن ذلك قولُ بشار الأعمى:

دَعَانِي شِنِقْنَقُ إِلَى خَلْفِ : اِتْرَكْنِي فَالْتَقَرُّدُ أَحْمَدُ

شياطين الشام والهند

قال: وأصحاب الرُّقى والأخذ والعزائم، والسَّحر، والسَّعْبِذَة، يزعمون أنَّ العدد والقوَّة في الجنِّ والشياطين لنازلة الشام والهند، وأنَّ عظيم شياطين الهند يقال له: تنكوبر، وعظيم شياطين الشام يقال له: دركاذاب.

وقد ذكرهما أبو إسحاق في هجائه محمد بن يسير، حين ادَّعى هذه الصنعة فقال:

لَعْمَرَى جَمَعْتَ مِلَّ أَصْفَوَانِ سَفْرَ آدَمَ وَالْجِرَابِ
وَتَفَرَدْتَ بِالطَّوَالِقِ وَالْهِي وَالرَّهْنَبَاتِ مِنْ كُلِّ بَابِ
وَعَلِمْتَ الْأَسْمَاءَ كَيْمَا تُلَاقِي وَالْمَرِيخَ فَوْقَ السَّحَابِ
وَاسْتَثَرْتَ الْأَرْوَاحَ بِالْبَحْرِ بِأَيْ لَصْرَعِ الصَّحِيحِ بَعْدَ
الْمَصَابِ

جامعاً من لطائف الدنهشيكبوسا نمقتها في كتاب
أحكمت متقن الكرويا وفعل الناريس والنجاب
تعيك الشعابيد والخوالاحتفاء بالطلاب
بالخواتيم والمناديل والسبعتنكوبر ودركاذاب

قتل الغول بضربة واحدة وأما قوله:

ضربتُ فَرْدَةً فصارت هَبَاءً مُحَاقِ القُميرِ آخرَ شَهْرٍ
فإنَّ الأعرابَ والعامَّةَ تزعمُ أن الغولَ إذا ضربتَ ضربةً ماتت، إلا أن يُعيدَ عليها الصَّارِبُ قبلَ
أن تُفْضي ضربةَ أخرى، فإنَّه إن فعلَ ذلك لم تُمُتْ، وقال شاعرهم:

فَثَبِّتْ وَالْمِقْدَارُ يَحْرُسُ أَهْلَهُ يَمِينِي قَبْلَ ذَلِكَ شَلَّتِ
وَأُنشِدُ لِأَبِي الْبِلَادِ الطُّهَوِيِّ:

عَلَى جَهِينَةٍ مَا أَلَقِي الرُّوعَاتِ يَوْمَ رَحَى بَطَانِ
الغولُ تَسْرِي فِي ظِلَالِهِبِ كَالْعَبَايَةِ صَحْصَحَانِ
لَهَا كَلَانَا نَقْضَ أَرْضِ سَفَرِ فَصْدِي عَنْ مَكَانِي
فَصَدْتُ وَانْتَحَيْتُ لَهَا بَعْضَ حِسَامٍ غَيْرِ مُؤْتَشِبِ يَمَانِي
سَرَاتِهَا وَالْبِرْكَ مِنْهَا فَخَرْتُ لِلْيَدِينِ وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ زِدْ فَقُلْتُ رُوَيْدَ إِيَّتِي أَمْثَالَهَا تَبْتُ الْجِنَانِ
شَدَدْتُ عَقَالَهَا وَحَطَطْتُ عَنْهَا غَدْوَةً مَاذَا دَهَانِي
عَيْنَانِ فِي وَجْهِ قَبِيحِ الهَرِّ مُشَقُوقِ اللِّسَانِ
مَخْدَجِ وَلِسَانُ كَلْبٍ يُوْجِدُ مِنْ فِرَاءٍ أَوْ سِنَانِ
وَأَبُو الْبِلَادِ هَذَا الطُّهَوِيُّ كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْأَعْرَابِ، وَهُوَ كَمَا

تَرَى يَكْذِبُ وَهُوَ يَعْلَمُ، وَيُطِيلُ الْكِذْبَ وَيُحَبِّرُهُ، وَقَدْ قَالَ كَمَا
تَرَى:

فَقَالَتْ زِدْ فَقُلْتُ رُوَيْدَ إِيَّتِي أَمْثَالَهَا تَبْتُ الْجِنَانِ
لَأَنَّهُمْ هَكَذَا يَقُولُونَ، يَزْعَمُونَ أَنَّ الْغُولَ تَسْتَزِيدُ بَعْدَ الضَّرْبَةِ
الْأُولَى لِأَنَّهَا تَمُوتُ مِنْ ضَرْبَةٍ، وَتَعِيشُ مِنْ أَلْفِ ضَرْبَةٍ.

مناكرة الجنِّ ومخالفتهم

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

غَلَبْتَنِي عَلَى النَّجَابَةِ عَرْسِي أَنْ طَالَ فِي النَّجَابَةِ ذِكْرِي

فِيهِمْ شَمَائِلُ إِنْسٍ أَنْ النَّجَارَ صُورَةً عِغْرِ

فإِنَّه يقول: لما تركب الولدُ مَنيَّ ومنها كان شَبَّهًا فيه أكثر.

وقال عبيد بن أيُّوب:

قَفَرَاتٍ حَالَفَ الْجِنَّ الْإِنْسِ حَتَّى قَدْ تَقَصَّتْ
وَأَنْتَفَى وَسَائِلُهُ
تَبَيَّبُ الْإِنْسِيَّ يُعْرِفُ وَلِلْجِنَّ مِنْهُ خَلْقُهُ وَشَمَائِلُهُ
تَجْلُهُ

وقال:

خَلِيلَ الْعُؤْلِ بَعْدَ عِدَاوَةٍ وَرَبَّته الْقِفَارُ الْبَسَابِسُ
فَلَيْسَ بِحِثِّيَّ فَيُعْرِفُ تَجْلُهُ أَنْسِيَّ تَحْتَوِيهِ الْمَجَالِسُ
وَلَا يَبْدُو لِشَيْءٍ نَهَارَهُ يُنْبِأُ وَاللَّيْلُ دَامِسُ
قال: وقال القَعْقَاعُ بْنُ مَعْبَدِ بْنِ زُرَّارَةَ، فِي ابْنِهِ عَوْفِ بْنِ

القَعْقَاعِ: وَاللَّهِ لَمَا أَرَى مِنْ شَمَائِلِ الْجِنَّ فِي عَوْفٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَى
فِيهِ مِنْ شَمَائِلِ الْإِنْسِ.

وقال مَسْلَمَةُ بْنُ مَحَارِبٍ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا قَالَ: خَرَجْنَا
فِي سَفَرٍ وَمَعَنَا رَجُلٌ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى وَادٍ، فَدَعَوْنَا بِالْعَدَاءِ، فَمَدَّ رَجُلٌ
يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ - وَهُوَ قَبْلَ ذَلِكَ يَأْكُلُ مَعَنَا فِي
كُلِّ مَنْزِلٍ - فَاشْتَدَّ اغْتِمَامُنَا لِذَلِكَ، فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ حَالِهِ،
فَتَلَقَّانَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَا لَكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ خَبَرَ الرَّجُلِ، فَقَالَ: مَا
اسْمُ صَاحِبِكُمْ؟ قُلْنَا: أَسَدٌ قَالَ: هَذَا وَادٍ قَدْ أَخَذَتْ سَبَاعَهُ
فَارْحَلُوا، فَلَوْ قَدْ جَاوَزْتُمُ الْوَادِيَّ اسْتَمَرَى الرَّجُلُ وَأَكَلَ.

مراكب الجن

وأما قوله:

كنتُ ركباً حشراًهُلِجِماً فُنْفُذاً وَمُسْرَجَ وَبُر
وأجوبُ البلادَ تحتيَ ظبيُّحاًكُ سنهُ كثيرُ التمري
دُبْرُهُ حَوَايَةَ مَكُويسري
بالليل في العفاريت

فقد أخبرنا في صدر هذا الكتاب بقول الأعراب في مطايا الجن من الحشرات والوحش.
وأنشد ابنُ الأعرابي لبعض الأعراب:

المطايا قد ركبنا فلم وأشهى مِنْ مذاكي
التَّعَالِبِ

عنظوان صعبةٍ شمّرية
برجليها أمام الرّكائبِ
جُرْزِ سُوحِ اليدين مفرّج
برّخلي بين أيدي المراكب
فارةٌ تزداد عِنقاً وحسدةً بالخصِ العتاقِ
التَّجَائِبِ

كلّ فتلأء الدّراعينِ مدّربة من عافيات الأرانِبِ

وَرَل يَغْتالُ فَضَلَ به طول السُّرى في
زمامِهِ السَّبَابِيبِ

قال ابنُ الأعرابي: فقلت له: أترى الجن كانت تركبها، فقال: أحلفُ بالله لقد كنتُ أجد
بالطبّاء التّوقيعَ في ظهورها؟ والسّمة في الآذان، وأنشد:

المطايا قد ركبنا فلم وأشهى من رُكوب
الجَنَارِبِ

عَضْرُفوط حطّ بي فأقمته
ورداً من عطاءِ قوارِبِ
مطايا الجنِّ أرنبُ الغضا أوقُ على كلِّ
صاحب

أر فيها مثلَ فُنْفُذِ بُرْقَةٍ قَطاراً من عظام

العناكب

وقد فسّرنا قولهم في الأرناب، لم لا تتركب، وفي أرنب الخلة،
وقنفذ البرقة.

وحدثني أبو نُوَاس قال: بكرتُ إلى المِرْبَد، ومعِي ألواحِي
أطلبُ أعرابياً فصيحاً، فإذا في ظلِّ دارِ جعفرِ أعرابيٍّ لم أسمع
بشيطانٍ أقبحَ منه وجهاً، ولا بإنسانٍ أحسنَ منه عقلاً، وذلك في
يومٍ لم أر كبرده برداً، فقلتُ له: هلّا قعدت في الشمس فقال:
الخَلوة أحبُّ إليّ فقلت له مازحاً: أرايت القنفذَ إذا امتطاه
الجِنِيُّ وعلا به في الهواء، هل القنفذ يحمل الجنِّي أم الجنِّي
يحمل القنفذ؟ قال: هذا من أكاذيب الأعراب، وقد قلت في
ذلك شعراً، قلت فأنشِدنيهِ، فأنشِدني بعد أن كان قال لي:
قلت هذا الشعر وقد رأيت ليلة قنفذاً ويربوعاً يلتمسان بعض
الرّزق:

يُعجِبُ الجَنَانَ منك الأُسْدُ أفراسُ لهم
عَدِمَتَهُم ونجائبُ
أُتسِرَجُ يربوعٌ وتُلجِمُ قُنْفِذاً أعوزتَهُم ما علمت
المراكِبُ
كانت الجَنَانُ جُنَّت دَنَبَ للأقدارِ واللّه غالبُ
فبالحرى الناس إلا خادعٌ ومخوِّصُ صاحبِ إسْهَابٍ وآخر كاذب

قال: فقلت له: قد كان ينبغي أن يكون البيت الثالث والرابع بيت آخر، قال: كانت والله أربعين بيتاً، ولكنَّ الحطمة والله حطمتها، قال: فقلت: فهل قلت في هذا الباب غير هذا؟ قال: نعم، شيءٌ قلَّتهُ لزوجتي، وهو والله عندها أصدقُ شيءٍ قلَّتهُ لها:

سَمِيعاً لِلسَّرَارِ كَقَنْفِذِ ضَاعِ سِرُّ اللّٰهِ يَا أُمَّ مَعْبِدِ
قال: فلم أصبر أن ضحكْتُ، فغضب وذهب.

شعر فيه ذكر الغول

ويكتب مع شعر أبي البلاد الطُّهوي:

لَا مَنِي فِيهَا فَوَاجِهَ مِثْلَهَا غِرَّةٍ أَلْقَتَ عَطَافاً وَمِئْزِراً
سَاعِدَا غُولٍ وَرَجُلَا نَعَامَةٍ
وَرَأْسُ كَمَسْحَاةِ الْيَهُودِيِّ

وَبَطْنُ كَأَثْنَاءِ الْمَزَادَةِ رَفَّحُوا نَبْهَ أَعْكَاتِهِ وَتَكَسَّرَا
وَتُدْيَانِ كَالْحُرْجِينِ نَيْطَتِ
جُوجُؤُ جَانِي التَّرَائِبِ أَرْوَرَا
عَرَاهُمَا

قال: كان أبو شيطان، واسمه إسحاق بن رزين، أحد بني السَّمطِ سِمَطُ جعدة ابن كعب، فأتاهم أميرٌ فجعل يَنكُبُ عليهم جوراً، وجعل آخر من أهل بلده ينقب عليهم: أي يكون عليهم نقيباً. فجعل يقول:

الَّذِي تَكَبَّنَا وَتَقَبَا الرَّحْمَنُ غُولاً عَقْرَبَا
فِيهَا مَالُهُ وَلِبَلْبَا التَّيْسُ إِذَا تَهَبَّهَبَا
إِذَا مَا اسْتَطْرَبَتْ أَشْنَا خَلْقِ رَبِّيزْرَبَا
وَاسْتَطْرَبَا

نَوَاتِينِ وَسَلَعِ أُسْقَبَا
يعني فرجها ونواتها، يقول، لم تُخْتَنِ.

جنون الجن وصرعهم

وأما قوله:

كانت الجنان جُنَّتْ فبالحرى
فإنهم قد يقولون في مثل هذا، وقد قال دَعْلُجُ بن الحكم:

يفيق الدهرَ كعبُ بنُ شيطانه عِنْدَ الأهلَةِ يُصْرَعُ
ناشِبُ

شعر فيه ذكر الجنون وأنشدني عبد الرحمن بن منصور الأُسَيْدِيُّ قبل أن يُجَنَّ:

جُنونَكَ مجنونٌ ولست بواجِدٍ يُداوي من جُنونِ جُنونِ
وأنشدني يومئذ:

بمجنون يَسِيلُ لِعَابُهُ صَاحِبِي إِلا الصَّحِيحُ
المَسْلَمُ

وفيما يشبه الأول يقول ابن مَيَّادَةَ:

أتاني ما تَقُولُ محاربُ شياطيني وَجُنَّ جُنُونُهَا
وحاكَتْ لها ممَّا أقول تَرامَتْ بها صُهْبُ المَهَارِي
قصائدًا وَجُونُهَا

وقال في التَّمثيل:

شَرَحَ الشَّبَابِ والشَّعَرَ
لم يُعاصَ كان جُنونا

وقال الآخر:

عَهْدُكَ مجنوناً فقلتُ
الشَّبَابَ جُنُونُ بُرُؤِهِ الكِبَرُ

وما أحسنَ ما قال الشَّاعر حيث يقول:

فدَقَّتْ وَجَلَّتْ واسبَكَرَّتْ
وَأَكْمَلَتْ

وما أحسنَ ما قال الآخر:

حمراء تامِكَةُ السَّنَامِ كَأَنَّهَا
جَادَتْ بها عند الغدَاةِ يَمِينِ
يَجُودُ بِمِثْلِهَا فِي مِثْلِهَا كَرِيمُ الخِيمِ أَوْ مَجْنُونُ

وقال الجميح:

أَنِّي لم أَتَلُ مِنْكُمْ مُعاقِبَةً سَنَّانَ لذاقَ الموتِ

مظعونُ
لاختطبتُ فإني قد هممُ بالسَّيفِ إنَّ خَطِيبَ السَّيفِ
مجنونُ

وأنشد:

أَحْمَوْا حِمَى الْوَقْبَى بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمُئُونِ
بَضْرِبِ
فَتَكَبَّ عَنْهُمْ دَرَاءَ الْأَعَادِي دَاوُوا بِالْجُنُونِ مِنَ الْجُنُونِ
وأنشدني جعفر بن سعيد:

الجنونَ سِهامُ بين أربعةٍ والبحرُ والإنسانِ
والجملُ
وأنشدني أيضاً:

مغايطُ أقوامٍ ذوي المغيظِ جَهُولِ السَّيفِ
حَسَبِ
مجنونُ
وأنشدني أبو تمام الطائي:

كلُّ أصْلَعٍ قد مالتَ عما مئُمنِ جِدارِ الصَّيْمِ مجنونُ
وقال القطامي:

سَامِيَةَ الْعَيْنِينَ مجنونةً أو تُرى ما لا تُرى الإبلُ
تَحَسَّبُهَا
وقال في المعنى الأول الرَّقِيانُ العُوفِي:

العُوفِيُّ فَمَنْ عَادَانِي أَذَقْتُهُ بَوَادِرَ الْهَوَانِ
تَرَاهُ مُطْرِقَ الشَّيْطَانِ
وقال مروانُ بن محمد:

تَجَنَّنَ شَاعِرٌ أَوْ مُفَحِّمٌ أَسْعَطْتُهُ بِمَرَارَةِ الشَّيْطَانِ
وقال ابن مُقَيْل:

وَعِنْدِي الدُّهَيْمُ لَوْ أَحْلُ عِقَالَهَا فَنُصْعِدُ لَمْ تَعْدَمِ مِنَ الْجِنِّ

وقد صَغَرَ الدُّهَيْمُ ليس على التحقير، ولكن هذا مثل قولهم: دَبَّتْ إِلَيْهِمْ دُوبَهْيَةَ الدَّهْرِ.
أحاديث الفلاة وقال أبو إسحاق: وأما قول ذي الرُّمَّة:

حَثُّهُنَّ الرَّكْبُ فِي مُدْلَهَمَةِ الْأَصْطَخَابِ

قال أبو إسحاق: يكون في النَّهَارِ سَاعَاتٌ تَرَى الشَّخْصَ الصَّغِيرَ فِي تِلْكَ الْمَهَامَةِ عَظِيمًا، وَيُوجَدُ الصَّوْتُ الْخَافِضُ رَفِيعًا، وَيُسْمَعُ الصَّوْتُ الَّذِي لَيْسَ بِالرَّفِيعِ مَعَ انبِسَاطِ الشَّمْسِ غَدْوَةً مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ؛ وَيُوجَدُ لِأَوْسَاطِ الْفِيَّافِيِّ وَالْقِفَارِ وَالرَّمَالِ وَالْحَرَارِ، فِي أَنْصَافِ النَّهَارِ، مِثْلُ الدَّوِيِّ مِنْ طَبَعِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَذَلِكَ الْمَكَانِ، عِنْدَ مَا يَعْضُرُ لَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

قال حادينا لتشبيهه تباة لم يكن إلا دويُّ الميسامع
قالوا: وبالذويِّ سميت دويَّة ودأوية، وبه سمِّي الدوُّ دَوًّا.

تعليق ما يتخيله الأعراب من عزيف الجنان وتغول

الغيلان

وكان أبو إسحاق يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجنان، وتغول الغيلان: أصلُ هذا الأمر وابتدأؤه، أنَّ القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مُقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس - استوحش، ولا سيِّما مع قلة الأشغال والمذاكرين. والوحدة لاتقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة، وقد ابتلى بذلك غير حاسب، كأبي يس ومُتَّى ولد القنافر. وخبرني الأعمش أنه فكر في مسألة، فأنكر أهله عقله، حتى حَمَّوه ودأوه. وقد عرض ذلك لكثير من الهند.

وإذا استوحش الإنسانُ تمثَّل له الشَّيء الصغيرُ في صورة الكبير، وارتاب، وتفرَّق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشَّيء اليسير الحقيق، أنه عظيمٌ جليل.

ثمَّ جعلوا ما تصوَّر لهم من ذلك شعرا تناشده، وأحاديث توارثوها فزادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشئ، ورُبِّي به الطُّفل، فصار أحدهم حين ينوسِّط الفيافِيَّ، وتشتملُ عليه الغيطان في اللَّيالي الحنادس - فعند أوَّل وحشةٍ وفرعةٍ، وعند صياح بُومٍ ومجاوبة صدَى، وقد رأى كلَّ

باطل، وتوهم كلُّ زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذاباً نجاجاً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيْتُ الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجتها.

قال عُبيد بن أُيُوب:

دُرُّ الْعُؤْلِ أَيُّ رَفِيقَةٍ لِصَاحِبِ قَفْرِ خَائِفٍ مَتَقَرِّ

وقال:

خَلِيلُ الْغُولِ وَالذَّنْبِ بَرَبَاتِ الْجِبَالِ الْهَرَائِلِ
وَالَّذِي

وقال:

قَفَرَاتٍ حَالَفَ الْجِنَّ الْإِنْسِ حَتَّى قَدْ تَقَصَّتْ
وَأَنْتَقَى وَسَائِلَهُ

نَسَبُ الْإِنْسِيِّ يُعْرَفُ وَلِلْجِنَّ مِنْهُ خَلْقُهُ وَشِمَائِلُهُ
نَجْلُهُ

ومما زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومدَّ لهم فيه، أنهم

ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم، وإلا

عَامِيًّا لَمْ يَأْخُذْ نَفْسَهُ قَطْ بِتَمْيِيزِ مَا يَسْتَوْجِبُ التَّكْذِيبَ

والتَّصْديقَ، أَوْ الشُّكَّ، وَلَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ التَّوَقُّفِ وَالتَّثَبُّتِ فِي

هَذِهِ الْأَجْنَاسِ قَطُّ، وَإِمَّا أَنْ يَلْقَوْا رَاوِيَةَ شَعْرٍ، أَوْ صَاحِبَ خَبَرٍ،

فَالرَّأْيُ كُلُّمَا كَانَ الْأَعْرَابِيُّ أَكْذَبَ فِي شَعْرِهِ كَانَ أَطْرَفَ

عِنْدَهُ، وَصَارَتْ رَوَايَتُهُ أَغْلَبَ، وَمُضَاحِكُهُ حَدِيثُهُ أَكْثَرَ فَلِذَلِكَ صَارَ

بَعْضُهُمْ يَدَّعِي رُؤْيَا الْعُؤْلِ، أَوْ قَتْلَهَا، أَوْ مِرَافِقَتَهَا، أَوْ تَزْوِيجَهَا؛

وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمرأ، فكان يطاعمه ويؤاكله،
فمن هؤلاء خاصة القتال الكلابي؛ فإنه الذي يقول:

أيرسل مَرَوَانُ الأَمِيرُ رسالةً إني إذاً لَمَصَّلُ
بي عِصْيَانُ ولا بُعْدُ مَنَزِلُ ^{ولكنني من خوف مَرَوَانِ}
أوجِلُ
باحة العنقاء أو في الأدمى من رهبة الموتِ
عَمَايَةِ
صاحبُ في الغارِ هَدَكَ الجون إلا أنه لا يعللُ
صاحباً
التقينا كان جُلُّ ضِمَاتٍ وطَرْفُ كالمعابلِ
حديثنا أَطْحَلُ
تَصَمَّتِ الأروى لنا بطعامنا له منها نصيبٌ ومأكلُ
فأغلبه في صنعة الرّادِ إني الأذى عنه ولا يتأملُ
وكانت لنا قلتُ بأرض مَصْرَلِ عُنْنا لأينا جاءَ أوْلُ
عدُوُّ لو يرى في عدُوِّه وكلُّ في العداوة
مَجْمِلُ

وأنشد الأصمعي:

معاً جارينَ نحترسُ يسائرني من نُطفةٍ وأسائره

ذكر سبعاً ورجلاً، قد ترافقا، فصار كلُّ واحدٍ منهما يدعُ فضلاً من سُوره ليشربَ صاحبه،
الثأى: الفساد، وخبر أن كلَّ واحدٍ منهما يحترس من صاحبه.

وقد يستقيم أن يكونَ شعر النابغة في الحية، وفي القليلِ صاحب القبر، وفي أخيه المصالح
للحياة أن يكون إنما جعل ذلك مثلاً، وقد أثبتناه في باب الحيات، فلذلك كرهنّا إعادته في هذا
الموضع، فأما جميع ما ذكرناه عنهم فإنما يخبرون عنه من جهة المعاينة والتّحقيق، وإنما المثل
في هذا مثل قوله:

كان شيطانك من خطابها شيطاني من طلابها
فلما اعتركا ألوى بها

الاشتباه في الأصوات والإنسان يجوع في أذنه مثل الدوي، وقال الشاعر:

القيافي رابه فكائه وساري الليل للضرر مغور

مغور: أي مضجر.

وربما قال الغلام لمولاه: أدعوتني؟ فيقول له: لا، وإنما اعترى مسامعه ذلك لعرض، لا أنه سمع صوتاً.

ومن هذا الباب قول تأبط شراً، أو قول قائل فيه في كلمة له:

بمؤامةٍ ويمسي جحيشاً ويعروري ظهور
بقفرة المهالك
ويتسبق وقد الريح من حيث بمنخري من شدة المتدارك
يتحي
خاط عيئه كرى التوم لم كالي من قلب شيحان

ويجعل عينيه ربيئة قلبه سلة من حد أحصر باتك
تهلته هزه في عظم قرن
أفواه المنايا الصواحك

الإنس وحشي القلاة اهتدت أم النجوم
ويهتدي الشوابك

نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع ويدل على ما قال أبو إسحاق، من نزولهم في بلاد الوحش وبين الحشرات والسباع، ما رواه لنا أبو مسهر، عن أعرابي من بني تميم نزل ناحية الشام، فكان لا يعدمه في كل ليلة أن يعصه أو يعص ولداه أو بعض حاشيته سبع من السباع، أو دابة من دواب الأرض فقال:

تعاورني دین وذل وغبنة وغلبي ناب سبع
ومخلب

الأرض أحناش وسبع أسارى وسطها
وحارب نتقلب

وطبوع وشبتان ظلمة وأرقط حرقوص وصمغ
وعقرب

كأشخاص الخنافس وأرسال جعلان وهزلي
قطب تسرب

وحقات وصب وعريد ودحاس وقار وعقرب
وظربان وسمع ودوئرمة تجري وسيد وثعلب

وَقَهْدُ ثَمِ ضَبْعٌ وَجَيَالٌ يَجُوسُ الْأَلْفَ لَا يَتَهَيَّبُ
أَرَّ أَوْى حَيْثُ أَسْمَعُ الدُّبَّ إِنَّ الدُّبَّ لَا يَتَنَسَّبُ

فَأَمَّا الرُّتَيْلَا وَالطَّبُوعُ، وَالشَّبَبُ، وَالْحُرْقُوصُ، وَالصَّمْجُ
وَالعَنكَبُوتُ، وَالخَنفُسَاءُ، وَالجُعَلُ، وَالْعُتُّ، وَالْحُقَّاتُ، وَالذَّحَّاسُ
وَالظَّرِبَانُ، وَالذَّبُّ، وَالتَّعَلْبُ، وَالنَّمْرُ، وَالقَّهْدُ، وَالضَّبْعُ، وَالْأَسَدُ -
فَسَنَقُولُ فِي ذَلِكَ إِذَا صَرْنَا إِلَى ذِكْرِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ
عِنْدَ ذِكْرِ الْحَشْرَاتِ، فَأَمَّا الضَّبُّ وَالْوَرَلُ، وَالعَقْرَبُ، وَالجُعَلُ،
وَالخَنفُسَاءُ، وَالسَّمْعُ فَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ، وَأَمَّا
قَوْلُهُ: وَهَزَلَى تَسْرِبُ فَالْهَزَلَى هِيَ الْحَيَاتُ، كَمَا قَالَ جَرِيرُ:

مَرَّاحِفَ هَزَلَى بَيْنَهَا مَتَبَاعِدُ

وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ:

مَرَّاحِفَ الْهَزَلَى عَلَيْهَا رِصَائِعُ جُدِلَتْ تُؤَامَا

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

أَرَّ أَوْى حَيْثُ أَسْمَعُ ذِكْرَهُ

فَإِنَّ ابْنَ أَوْى لَا يَنْزِلُ الْقَفَارَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ حَيْثُ يَكُونُ الرَّيْفُ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَيْثُ قَالَ هَذَا الشُّعْرُ تَوَهَّمُ أَنَّهُ بِيَاضِ نَجْدٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

الدُّبُّ إِنَّ الدُّبَّ لَا يَتَنَسَّبُ

فَإِنَّ الدُّبَّ عِنْدَهُمْ عَجْمِيٌّ، وَالعَجْمِيُّ لَا يَقِيمُ نَسَبَهُ.

مُلْحَ وَنَوَادِرُ

ورَوُوا فِي الْمَلْحِ أَنَّ فَتَى قَالَ لَجَارِيَةٍ لَهُ، أَوْ لَصَدِيقَةٍ لَهُ: لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ مِنِّي: وَلَا أَمْلَحُ مِنِّي، فَصَارَ عِنْدَهَا كَذَلِكَ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ إِذْ قَرَعَ عَلَيْهَا الْبَابَ إِنْسَانٌ يَرِيدُهُ، فَاطَّلَعَتْ عَلَيْهِ مِنْ خَرَقِ الْبَابِ، فَرَأَتْ فَتَى أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَمْلَحَهُمْ، وَأَتْبَلَهُمْ وَأَتَمَّهُمْ، فَلَمَّا عَادَ صَاحِبُهَا إِلَى الْمَنْزِلِ قَالَتْ لَهُ: أَوْ مَا أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ أَمْلَحُ الْخَلْقِ وَأَحْسَنُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَكَذَلِكَ أَنَا فَقَالَتْ: فَقَدْ أَرَادَكَ الْيَوْمَ فَلَانٌ، وَرَأَيْتُهُ مِنْ خَرَقِ الْبَابِ، فَرَأَيْتُهُ أَحْسَنَ مِنْكَ وَأَمْلَحَ قَالَ: لَعَمْرِي إِنَّهُ لَحَسَنٌ مَلِيحٌ، وَلَكِنَّ لَهُ جُنَّةً تَصْرَعُهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّتَيْنِ - وَهُوَ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَهُ مِنْ عَيْنِهَا - قَالَتْ: أَوْ مَا تَصْرَعُهُ فِي الشَّهْرِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّي جُنَّةً لَصْرَعْتُهُ فِي الْيَوْمِ الْفَيْنِ.

وهذا يدلُّ على أنَّ صَرَعَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ لَيْسَ هُوَ عِنْدَ الْعَوَامِّ إِلَّا عَلَى جِهَةٍ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْجَمَاعِ.

وَمِنْ هَذَا الصَّرَبِ مِنَ الْحَدِيثِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ الْمَازِنِيُّ، قَالَ: ابْتَاعَ فَتَى صَلِيفٌ بَدَاخَ جَارِيَةً حَسَنَاءَ بَدِيعَةً ظَرِيفَةً، فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهَا قَالَ لَهَا مَرَارًا وَبَلَاكًا، مَا أَوْسَعَ جِرْكَ فَلَمَّا أَكْتَرَّ عَلَيْهَا قَالَتْ: أَنْتَ الْفِدَاءُ لِمَنْ كَانَ يَمْلَأُهُ.

فَقَدْ سَمِعَ هَذَا كَمَا تَرَى مِنَ الْمَكْرُوهِ مِثْلَ مَا يَسْمَعُ الْأَوَّلُ.

وَزَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ حَسَنَاءَ ظَرِيفَةٍ، فَالَحَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: مَا تَنْظُرُ؟ قُرَّةَ عَيْنِكَ، وَشَيْءٌ غَيْرِكَ.

وَزَعَمَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ أَنَّ رَجُلًا تَبِعَ جَارِيَةً لِقَوْمٍ، فَرَاوَعْتَهُ فَلَمْ يَنْقُطِعْ عَنْهَا، فَحُتَّتْ فِي الْمَشِيِّ فَلَمْ يَنْقُطِعْ عَنْهَا، فَلَمَّا جَازَتْ بِمَجْلِسِ قَوْمٍ قَالَتْ: يَا هَوْلَاءُ، لِي طَرِيقٌ وَلِهَذَا طَرِيقٌ، وَمَوْلَايَ يَنْيَكُنِي؛ فَسَلُّوا هَذَا مَا يَرِيدُ مِنِّي؟ وَرَعَمَ أَيْضًا أَنَّ سَيَارًا الْبَرْقِيِّ قَالَ: مَرَّتْ بِنَا جَارِيَةٌ، فَرَأَيْنَا فِيهَا الْكِبْرَ وَالتَّجَبُّرَ، فَقَالَ بَعْضُنَا: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَوْلَى هَذِهِ الْجَارِيَةِ يَنْيَكُهَا قَالَتْ: كَمَا يَكُونُ.

فَلَمْ أَسْمَعْ بِكَلِمَةٍ عَامِيَةٍ أَشْتَعَّ وَلَا أَدَلَّ عَلَى مَا أَرَادَتْ، وَلَا أَقْصَرَ مِنْ كَلِمَتِهَا هَذِهِ.

وَقَدْ قَالَ جَحْشَوِيَّةٌ فِي شِعْرِ شَبِيهًا بِهَذَا الْقَوْلِ، حَيْثُ يَقُولُ:

تَوَاعِدُنِي لِتَنْكِحَنِي ثَلَاثًا يَا مَشُومَ بِأَيِّ أُيْرَ

فلو حُطِبَتْ في صفة أيرٍ حُطْبَةٌ أطولُ من خطبة قيس بن
خارجة بن سنان في شأن الحمالة - لما بلغ مبلغَ قول
جحشويه: ولكن يا مَشُومَ بأيِّ أيرٍ، وقول الخادم: كما يكون.
وزعموا أن فتىً جلس إلى أعرابيَّة، وعلمت أنه إنما جلس
لينظر إلى محاسن ابنتها، فضربت بيدها على جنبها، ثم قالت:

عَلَّنداءُ يئطُّ الأيرُ فيها أَطِيطُ العَرزِ في الرَّحْلِ
الجديدِ

ثم أقبلت على الفتى فقالت:

لَكَ من غيرِ أُنَّكَ ناكحُ بعينيكَ عَينِها فهل ذاكَ نافعُ
ودخل قاسم منزل الخوارزمي النخَّاس، فرأى عنده جارية كأنها
جانٌّ، وكأنها حُوط بانٍ، وكأنها جَدلُ عِنان، وكأنه الياسمين؛ نعمةً
وبياضاً؛ فقال لها: أشتريك يا جارية؟ فقالت: افتح كيسك تسرَّ
نفسك ودخلت الجارية منزل النخَّاس، فاشتراها وهي لا تعلم
ومضى إلى المنزل ودفعها الخوارزميُّ إلى غلامه، فلم تشعر
الجارية إلا وهي معه في جوف بيت، فلما نظرت إليه وعرفت ما
وقعت فيه قالت له: ويلك إنك والله لن تصل إليَّ إلا بعد أن
أموت فإن كنت تجسُّرُ على نيك من قد أدرجوه في الأكفان
فدوتك والله إن زلتُ منذ رأيتك، ودخلتُ إلى الجواري، أصف

لَهَنَّ قَبْحَكَ وَبَلِيَّةَ امْرَأَتِكَ بِكَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَكْلِمُهَا بِكَلَامِ
الْمُتَكَلِّمِينَ، فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهُ، فَقَالَ: فَلَمْ قَلْتِ لِي: افْتَحْ كَيْسَكَ
تَسْرَّ نَفْسِكَ؟ وَقَدْ فَتَحْتَ كَيْسِي فَدَعَيْتَنِي أَسْرُّ نَفْسِي وَهُوَ يَكْلِمُهَا
وَعَيْنُ الْجَارِيَةِ إِلَى الْبَابِ، وَنَفْسُهَا فِي تَوْهَمِ الطَّرِيقِ إِلَى مَنْزِلِ
النَّخَّاسِ، فَلَمْ يَشْعُرْ قَاسِمٌ حَتَّى وَثَبَتْ وَثَبَةً إِلَى الْبَابِ كَأَنَّهَا
غَزَالٌ، وَلَمْ يَشْعُرِ الْخَوَارِزْمِيُّ إِلَّا وَالْجَارِيَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَغْشِيَةٌ
عَلَيْهَا، فَكَرَّرَ قَاسِمٌ إِلَيْهِ رَاجِعًا وَقَالَ: ادْفَعِهَا إِلَيَّ أَشْفِي نَفْسِي
مِنْهَا، فَطَلَبُوا إِلَيْهِ فَصَفَحَ عَنْهَا، وَاشْتَرَاهَا فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ غَلَامٌ
أَمْلَحٌ مِنْهَا، فَقَامَتْ إِلَيْهِ فَقَبَّلَتْ فَاهُ، وَقَاسِمٌ يَنْظُرُ، وَالْقَوْمُ
يَتَعَجَّبُونَ مِمَّا تَهَيَّأَ لَهُ وَتَهَيَّأَ لَهَا.

وَأَمَّا عَيْسَى بْنُ مَرْوَانَ كَاتِبَ أَبِي مَرْوَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي
حَمْزَةَ فَإِنَّهُ كَانَ شَدِيدَ التَّغَزُّلِ وَالتَّصْنُدِ، حَتَّى شَرِبَ لَذَلِكَ النَّبِيدَ
وَتَنَظَّرَ بِتَقْطِيعِ ثِيَابِهِ وَتَغْنَى أَصْوَاتِهَا، وَحَفِظَ أَحَادِيثَ مِنْ أَحَادِيثِ
العَشَّاقِ وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَشْتَهِيهَا النِّسَاءُ وَتَفْهَمُ مَعَانِيَهَا، وَكَانَ
أَقْبَحَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَاءً، حَتَّى كَانَ أَقْبَحَ مِنَ الْأَخْنَسِ، وَمِنَ
الْأَفْطَسِ، وَالْأَجْدَعِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقَ ظَرِيفَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
تَزَوَّجَهَا فَلَمَّا خَلَا مَعَهَا فِي بَيْتٍ وَأَرَادَهَا عَلَى مَا يَرِيدُ الرَّجُلُ مِنْ

المرأة، امتنعت، فوهب لها، ومَنَّاها، وأظهر تعشقها، وأرَاعَهَا بَكْلًا
حيلة، فلما لم تُحِبَّ قال لها: خَبِّرِينِي، ما الذي يَمْنَعُكَ؟ قالت:
قبح أنْفِكَ وهو يَسْتَقْبِلُ عيني وقت الحاجة، فلو كان أنْفُكَ في
فَقَاكَ لكان أهونَ عليَّ قال لها: جَعَلْتُ فِدَاكَ؟ الذي بأنْفِي ليسَ
هو خِلْقَةً وإِنَّمَا هو ضَرْبَةٌ صُرِبْتُهَا في سبيل الله تعالى، فقالت
واستغْرَبْتُ ضِحْكَاً: أنا ما أبالي، في سبيل الله كَانَتْ أو في
سبيل الشَّيْطَانِ، إِنَّمَا بِي قَبْحُهُ، فخذْ ثَوَابَكَ على هذه الصَّرْبَةِ من
الله أُمَّأ أَنَا فِلا.

باب الجِدِّ من أمر الجنِّ

ليس هذا، حفظك الله تعالى، من الباب الذي كُنَّا فيه، ولكنَّه
كان مُسْتِرَاحاً وجماماً، وسنقول في باب من ذكر الجنِّ، لتنتفع
في دِينِكَ أشدَّ الانتفاع، وهو جِدُّ كُلُّهُ.
والكلام الأوَّل وما يتلوه من ذكر الحشرات، ليس فيه جِدٌّ إلاَّ
وفيه خَلْطٌ من هَزَلٍ، وليس فيه كلامٌ صحيح إلاَّ وإلى جنبه
خرافة، لأن هذا الباب هكذا يقع.
وقد طعن قومٌ في استراق الشَّيَاطِينِ السَّمْعَ بوجوهٍ من

الطَّعْنُ، فَإِذْ قَدْ جَرَى لَهَا مِنَ الذِّكْرِ فِي بَابِ الْهَزْلِ مَا قَدْ جَرَى،
فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ فِي بَابِ الْجَدِّ، وَفِيمَا يَرِدُ عَلَى أَهْلِ
الدِّينِ بِجُمْلَةٍ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ لَمْ يُقْصَدَ بِهِ إِلَى هَذَا الْبَابِ
حَيْثُ ابْتَدِئْتُ، وَإِنْ نَحْنُ اسْتَقْصَيْنَاهُ كِتَابًا قَدْ خَرَجْنَا مِنْ حَدِّ الْقَوْلِ
فِي الْحَيَوَانَ، وَلَكِنَّا نَقُولُ بِجُمْلَةٍ كَافِيَةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَعِينُ عَلَى
ذَلِكَ.

رد على المحتجِّين لإنكار استراق السمع بالقرآن قال قوم: قد
علمنا أن الشياطينَ أطفَ لطفًا، وأقلُّ آفةً، وأحدُّ أذهانًا،
وأقلُّ فضولًا، وأخفُّ أبدانًا، وأكثرُ معرفةً وأدقُّ فطنةً منَّا،
والدليلُ على ذلك إجماعهم على أنه ليس في الأرض بدعةٌ
بديعةٌ، دقيقةٌ ولا جليلةٌ، ولا في الأرض مَعْصِيَةٌ من طريق
الهوى والشهوة، خفيةٌ كانت أو ظاهرةً، إلا والشيطانُ هو
الدَّاعي لها، والمزِينُ لها، والذي يفتَحُ بابَ كلِّ بلاءٍ، وينصِبُ كلَّ
حبالٍ وخذعةٍ، ولم تكن لتعرف أصناف جميع الشرور
والمعاصي حتى تعرف جميع أصناف الخير والطاعات.
ونحن قد نجدُ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَقْلٌ، ثُمَّ عِلْمٌ أَنَّهُ إِذَا نَقَبَ
حَائِطًا قُطِعَتْ يَدُهُ، أَوْ أَسْمَعَ إِنْسَانًا كَلَامًا قَطَعَ لِسَانَهُ، أَوْ يَكُونُ

متى رام ذلك حيلَ دوتَه ودونَ ما رام منه - أنه لا يتكلف ذلك ولا يُرومه، ولا يحاولُ أمراً قد أيقنَ أنه لا يبلغه.
وأنتم تزعمون أن الشياطين الذين هم على هذه الصفة كلما صعد منهم شيطانٌ ليسترقَ السَّمعَ قُذِفَ بشهاب نار، وليس له خواطئ، فإمّا أن يكون يصيبه، وإمّا أن يكون نذيراً صادقاً أو وعيداً إنَّ يقدمَ عليه رمى به، وهذه الرُّجوم لا تكون إلا لهذه الأمور، ومتى كانت فقد ظهر للشيطان إحراق المستمع والمسترق، والموانع دون الوصول ثم لا نرى الأوّل ينهي الثاني، ولا الثاني ينهي الثالث، ولا الثالث ينهي الرابع عَجَب، وإن كان الذي يعود غيرَه فكيف خفي عليه شأنهم، وهو ظاهر مكشوف؟.

وعلى أنهم لم يكونوا أعلمَ ممّا حتّى ميّزوا جميع المعاصي من جميع الطاعات، ولولا ذلك لدعوا إلى الطاعة بحساب المعصية، وزينوا لها الصّلاح وهم يريدون الفساد، فإذا كانوا ليسوا كذلك فأدنى حالاتهم أن يكونوا قد عرفوا أخبار القرآن وصدقوها، وأنّ الله تعالى محقق ما أوعدَ كما يُنجز ما وعد، وقد قال الله عزّ وجل: "وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، "وقال تعالى: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي
السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبِّنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
رَجِيمٍ" وقال تعالى: "إِنَّا رَبِّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ
وَحَفِظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ" وقال تعالى: "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى
مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَقْصَى أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ" مع قول الجن: "أَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ
فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا" وقولهم: "أَنَا لَمَسْنَا
السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا".
فكيف يسترق السَّمْعَ الذين شاهدوا الحالتين جميعاً، وأظهروا
اليقين بصحة الخير بأنَّ للمستمع بعد ذلك القذف بالشهب،
والإحراق بالنار، وقوله تعالى: "إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ"
وقوله تعالى: "وَحَفِظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى
الْمَلِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ" في أي غير هذا كثير، فكيف يعودون إلى استراق
السَّمْعِ، مع تيقنهم بأنه قد حُصِّنَ بالشهب، ولو لم يكونوا
مُوقِنِينَ من جهة حقائق الكتاب، ولا من جهة أنهم بَعْدَ قعودهم

مقاعدَ السَّمْعِ لَمَسُوا السَّمَاءَ فَوَجَدُوا الأَمْرَ قد تَغَيَّرَ - لكانَ في طولِ التَّجْرِبَةِ والعِيانِ الظَّاهِرِ، وفي إخبارِ بعضِهِم لبعضِ، ما يكونُ حائلاً دُونَ الطَّمَعِ وقاطعاً دونِ التَّماسِ الصُّعُودِ، وبعد فأَيُّ عاقلٍ يُسَرُّ بأنَّ يسمعَ خيراً وتُقطَعُ يدهُ فضلاً عن أن تحرقه النَّارُ؟ وبعد فأَيُّ خبرٍ في ذلكِ اليومِ؟ وهل يصلون إلى النَّاسِ حتَّى يجعلوا ذلكَ الخَبَرَ سبباً إلى صَرْفِ الدَّعْوَى؟ قيل لهم: فإنَّا نقولُ بالصَّرْفَةِ في عامَّةِ هذهِ الأصولِ، وفي هذهِ الأبوابِ، كنعو ما ألقى على قلوبِ بني إسرائيلِ وهم يجولون في التَّيِّبِ، وهم في العددِ وفي كثرةِ الأدلِّاءِ والتَّجَارِ وأصحابِ الأسفارِ، والحمَّارينِ والمُكَّارينِ، من الكثرةِ على ما قد سمعتم به وعرفتموه؛ وهم مع هذا يمشون حتَّى يُصبحوا، مع شدَّةِ الاجتهادِ في الدَّهْرِ الطويلِ، ومع قُرْبِ ما بينَ طرفي التَّيِّبِ، وقد كان طريقاً مسلوكاً، وإنَّما سمَّوه التَّيِّبِ حينَ تاهوا فيه، لأنَّ الله تعالى حينَ أرادَ أن يمتحنَهُم ويبتليَهُم صرَّفَ أوهامَهُم.

ومثل ذلكِ صنيعُهُ في أوهامِ الأُمَّةِ التي كان سُليمانُ مَلِكُها ونبِيِّها، مع تسخيرِ الرِّيحِ والأعاجيبِ التي أُعطيها، وليس بينهم وبين ملكِهِم ومملكَتِهِم وبين مُلكِ سبأٍ ومملكةِ بلقيسِ ملكَتِهِم

بحارٌ لا تُركب، وجبالٌ لا تُرام، ولم يتسامعُ أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكانٌ هذه المِلِكة.

وقد قلنا في باب القول في الهدُّد ما قلنا، حين ذكرنا الصَّرفة، وذكرنا حالَ يعقوب ويوسف وحالَ سليمان وهو معتمدٌ على عصاه، وهو مَيِّتٌ والجنُّ مُطيفة به وهم لا يشعرون بموته، وذكرنا من صَرَفَ أوهام العَرَب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرباً ولا مُلَقَّفاً ولا مُستكرهاً؛ إذا كان في ذلك لأهل الشَّغبِ متعلِّق، مع غير ذلك، ممَّا يُخالف فيه طريقُ الدُّهرية، لأنَّ الدَّهريَّ لا يُقر إلاَّ بالمحسوسات والعاتات على خلاف هذا المذهب.

ولعمري ما يستطيعُ الدَّهريُّ أن يقولَ بهذا القول ويحتجَّ بهذه الحجَّة، ما دام لا يقول بالتَّوحيد، وما دام لا يعرف إلاَّ الفلك وعمَله، وما دام يرى أن إرسال الرُّسل يستحيل، وأن الأمر والنَّهي، والثواب والعقاب على غير ما نقول، وأنَّ الله تعالى لا يجوز أن يأمر من جهة الاختبار إلا من جهة الحزم.

وكذلك نقول ونزعم أن أوهام هذه العفاريت تُصرف عن الذكر لتقع المحنة، وكذلك نقول في النبي صلى الله عليه وسلم أن

لو كَانَ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الْهَزَاهِزِ مَنْ يَذْكُرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: "وَاللَّهُ
يَعِصُمُكَ مِنَ النَّاسِ" لَسَقَطَ عَنْهُ مِنَ الْمَحْنَةِ أَغْلَظُهَا، وَإِذَا
سَقَطَتِ الْمَحْنَةُ لَمْ تَكُنِ الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ، وَكَذَلِكَ عَظِيمُ
الطَّاعَةِ مَقْرُونٌ بِعَظِيمِ الثُّوبِ.

وَمَا يَصْنَعُ الدَّهْرِيُّ وَغَيْرُ الدَّهْرِيِّ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَبِهَذَا التَّسْطِيرِ؟
وَنَحْنُ نَقُولُ: لَوْ كَانَ إِبْلِيسُ يَذْكُرُ فِي كُلِّ حَالٍ قَوْلَهُ تَعَالَى:
"وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ" وَعَلِمَ فِي كُلِّ حَالٍ أَنَّهُ لَا
يُسَلِّمُ لَوْجَبَ أَنْ الْمَحْنَةُ كَانَتْ تَسْقُطُ عَنْهُ، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ يَقِينًا
أَنَّهُ لَا يَمْضِي غَدًا إِلَى السُّوقِ وَلَا يَقْبِضُ دِرَاهِمَهُ مِنْ فُلَانٍ، لَمْ
يَطْمَعِ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَطْمَعْ فِي الشَّيْءِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ
الدَّوَاعِي إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَمُحَالٌ أَنْ يَأْتِيَ السُّوقَ.

فَنَقُولُ فِي إِبْلِيسَ: إِنَّهُ يَنْسَى لِيَكُونَ مُخْتَبِرًا مَمْتَحِنًا فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ
قَوْلَنَا فِي مُسْتَرْقِي السَّمْعِ كَقَوْلِنَا فِي إِبْلِيسَ، وَفِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْأُمُورِ الَّتِي أُوجِبَ عَلَيْنَا الدِّينَ أَنْ نَقُولَ فِيهَا بِهَذَا الْقَوْلِ. 0
وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى أَصْلِ دِينِنَا، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ
يَسْأَلَ عَنِ الدِّينِ الَّذِي أُوجِبَ هَذَا الْقَوْلَ عَلَيْنَا فَيُلْفَعَلْ، وَاللَّهُ
تَعَالَى الْمَعِينُ وَالْمَوْفِقُ.

وأما قولهم: مَنْ يُخَاطِرُ بِذَهَابِ نَفْسِهِ لَخَيْرٍ يَسْتَفِيدُهُ فَقَدْ عَلِمْنَا
أَنَّ أَصْحَابَ الرِّيَاسَاتِ وَإِنْ كَانَ مُتَبَيِّنًا كَيْفَ كَانَ اعْتِرَاضُهُمْ عَلَى
أَنْ أَيْسَرَ مَا يَحْتَمِلُونَ فِي جَنْبِ تِلْكَ الرِّيَاسَاتِ الْقَتْلَ.

ولعلَّ بعضَ الشَّيَاطِينِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مِنَ التَّفُخِّ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ
مَا يَهْوُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْلُغَ دُورِينَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي إِنْ دَنَا مِنْهَا أَصَابَهُ
الرَّجْمُ، وَالرَّجْمُ إِنَّمَا ضَمَّنَ أَنَّهُ مَانِعٌ مِنَ الْوَصُولِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا
كَانَ شَهَابًا أَنَّهُ يُحْرِقُهُ وَلَمْ يَضْمَنْ أَنَّهُ يَتْلَفُ عَنْهُ، فَمَا أَكْثَرَ مَنْ
تَخْتَرَقُهُ الرَّمَاحُ فِي الْحَرْبِ ثُمَّ يَعَاوِدُ ذَلِكَ الْمَكَانَ وَرِزْقُهُ ثَمَانُونَ
دِينَارًا وَلَا يَأْخُذُ إِلَّا نِصْفَهُ، وَلَا يَأْخُذُهُ إِلَّا قَمْحًا، فَلَوْلَا أَنْ مَعَ قَدَمِ
هَذَا الْجَنْدِيِّ ضَرْبًا مِمَّا يَهْزُهُ وَيَنْجِدُهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَيُغْرِيهِ - مَا
كَانَ يَعُودُ إِلَى مَوْضِعٍ قَدْ قَطَعَتْ فِيهِ إِحْدَى يَدَيْهِ، أَوْ فَقَّتَتْ
إِحْدَى عَيْنَيْهِ. وَلِمَ وَقَعَ عَلَيْهِ إِذَا اسْمُ شَيْطَانٍ، وَمَارِدٍ، وَعَفْرِيَّتٍ،
وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ؟ وَلِمَ صَارَ الْإِنْسَانُ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَيُوصَفُ
بِهَذِهِ الصِّفَاتِ إِذَا كَانَ فِيهِ الْجِزَاءُ الْوَاحِدُ مِنْ كُلِّ مَا هُمْ عَلَيْهِ؟.

وقالوا في باب آخر من الطَّعْنِ غَيْرِ هَذَا، قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

"وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ

شِهَابًا رَصْدًا" فَقَالُوا: قَدْ دَلَّ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى أَنَّ الْأَخْبَارَ هُنَاكَ

كانت مُصَيَّعَةً حَتَّى حُصِّنَتْ بَعْدَ، فَقَدْ وَصَفْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى بِالتَّضْيِيعِ
وَالاسْتِدْرَاكِ.

قلنا: ليس في هذا الكلام دليلٌ على أنهم سمعوا سِرّاً قط أو
هجموا على خبر إن أشاعوه فسد به شيءٌ من الدين،
وللملائكة في السَّماءِ تسييحٌ وتهليلٌ، وتكبيرٌ وتلاوة، فكان لا
يبلغُ الموضعَ الذي يُسمَعُ ذلك منه إلا عفاريتهم.

وقد يستقيم أن يكون العفريتُ يكذب ويقولُ: سمعت ما لم
يَسْمَعِ ومتى لم يكن على قوله برهانٌ يدلُّ على صدقه فإنما
هو في كذبه من جنس كلِّ متنبئٍ وكاهن، فإن صدقه مصدقٌ
بلا حُجَّةٍ فليس ذلك بحُجَّةٍ على الله وعلى رسوله صلى الله
عليه وسلم.

المحتجون بالشعر لرجم الشياطين قبل الإسلام وذهب بعضهم
في الطعن إلي غير هذه الحُجَّةِ، قالوا: زعمتم أن الله تعالى
جعل هذه الرَّجُومَ للخوافي حُجَّةً للنبي صلى الله عليه وسلم،
فكيف يكون ذلك رَجْماً، وقد كان قبل الإسلام ظاهراً مرئياً،
وذلك موجودٌ في الأشعار، وقد قال بشر بن أبي خازم في
ذلك:

فجأها من أول الرِّيِّ يسكُّه من الأرضِ مَرْتَعُ
عُدوة

بأكلبةِ رُزْقِ ضواريِّ كائِها خطاطيفُ من طولِ الطريدةِ

على تفرِّ تعرُّضَ كوكبِ
حالَ دُونِ النَّعِ والنَّعِ يسَطَعُ

فوصف شَوُطُ الثُّورِ هارِباً من الكلابِ بانقِضاضِ الكوكبِ في سُرْعته، وحُسْنه، وبريقِ جلده،
ولذلك قال الطِّرِمَاح:

وتُضْمِرُهُ البلادُ كائِهُ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُعَمَدُ
وأنشد أيضاً قولَ بِشْرِ بنِ أَبِي خازم:

بالعيرِ الفلاةِ كائِها كاسيرةٌ هَوَتْ من
مَرْقِبِ
والعيرِ يُزْهِقُها الخَبَارُ ينقضُّ خَلْفُهُما انْقِضاضِ
الكوكبِ
وَجَحْشُها

قالوا: وقال الصَّبِي:

مهتكِ أشجارها عُرُوبٍ فيه تحريبُ
حِينَ نَحَا كوكبُ قَبَسٌ بالكفِّ مشبُوبُ
وقال أوس بن حَجَر:

فانقضَّ كالدرِّيِّ يَتَّبِعُهُ يثُورُ تخالهُ طُنْبًا
وأحياناً يلوح كما المشيرُ بكفِّه لها

وروا قوله:

فانقضَّ كالدرِّيِّ من مُتَحَدَّرٍ العقيقةِ جُنْحَ لَيْلِ مُظْلِمِ
وقال عَوْف بن الخَرَع:

علينا العَيْرِ من دونِ أنفه الثُّورِ كالدرِّيِّ يَتَّبِعُهُ الدَّمُ
وقال الأفوه الأودي:

كشهابِ القَذْفِ يَرْمِيكُمْ بفارسٍ في كَفِّه للحرِّ نَارُ
وقال أميَّة بن أبي الصَّلْت:

شياطيناً تَرُوعُ مُضَافِيَّوَأَعْها شتى إذا ما تُطْرَدُ
عليها في السَّماءِ موكِّواكبُ تُرمى بها فتعزُّدُ

قلنا لهؤلاء القوم: إن قَدَرْتُمْ عَلَى شَعْرِ جَاهِلِيٍّ لَمْ يُدْرِكْ مَبْعَثُ
النبي صلى الله عليه وسلم ولا مَوْلَاهُ فهو بعضٌ ما يتعلَّقُ به
مثلُكم، وإن كان الجوابُ في ذلك سيأتيكم إن شاء الله تعالى،
فأما أشعار المخضرمين والإسلاميين فليس لكم في ذلك
حُجَّةٌ، والجاهليُّ ما لم يكن أدرك المولد، فإنَّ ذلك ممَّا ليس
ينبغي لكم أن تتعلَّقُوا به، وبِشْرُ بنِ أبي خازم فقد أدرك
الفِجار، والنبي صلى الله عليه وسلم شهد الفِجار، وقال:
شهدتُ الفِجارَ فكنتُ أنبلَ على عمومتي وأنا غلام. والأعلام
ضروب، فمنها ما يكون كالبيشارات في الكتب، لكون الصِّفَّةِ
إذا واقفت الصِّفَّةِ التي لا يقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزمَتْ فيه
الحجة، وضروبٌ أُخْرُ كالإرهاص للأمر، والتأسيس له، وكالتعبيد
والترشيح، فإنَّه قلَّ نبيٌّ إلاَّ وقد حدثت عند مولده، أو قُبيلَ
مولده، أو بعد مولده أشياء لم يكن يحدث مثلها، وعند ذلك
يقول الناس: إنَّ هذا لأمرٌ، وإنَّ هذا ليراد به أمرٌ وقع، أو
سيكون لهذا نبأ، كما تراهم يقولون عند الذوائب التي تحدث
لبعض الكواكب في بعض الزمان، فمن التَّرشيح والتَّأسيس
والتَّفخيم شأنُ عبد المطلب عند القُرعة، وحين خروج الماء

من تحت رُكبة جملة، وما كان من شأن الفيل والطيرِ الأبايل
وغير ذلك، مما إذا تقدم للرجل زاد في بُله وفي فخامة أمره،
والمتوقَّع أبداً معظَّم.

فإن كانت هذه الشهب في هذه الأيام أبداً مرئيةً فإنما كانت
من التأسيس والإرهاص، إلا أن يُنشدونا مثل شعر الشعراء
الذين لم يدركوا المولد ولا بعد ذلك، فإنَّ عددهم كثير،
وشعرهم معروف.

وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطولَ ممَّا
بيننا اليوم وبين أوّل الإسلام، وأولئكم عندكم أشعرُ ممن كان
بعدهم.

وكان أحدهم لا يدع عظماً منبوزاً بالياً، ولا حجراً مطروحاً، ولا
خنفساء، ولا جُعلاً، ولا دودة، ولا حيةً، إلا قال فيها، فكيف لم
يتهاياً من واحدٍ منهم أن يذكر الكواكب المنقصة مع حُسْنها
وسُرعتها والأعجوبة فيها، وكيف أمسكوا بأجمعهم عن ذكرها
إلى الزَّمان الذي يَحْتَجُّ فيه خصومكم.

وقد علمنا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين ذُكر له يوم ذي
قار قال: هذا أوّل يومٍ انتصفت فيه العربُ من العجم، وبني

نُصروا.

ولم يكن قال لهم قبل ذلك إنّ وقعةً ستكون، من صفتها كذا،
ومن شأنها كذا، وتُصرون على العجم، وبني تنصرون.

فإن كان بشر بن أبي خازم وهؤلاء الذين ذكرتم قد عايثوا
انقضا الكواكب فليس بمستنكر أن تكون كانت إرهاساً لمن
لم يُخبر عنها ويحتج بها لنفسه، فكيف وبشر بن أبي خازم حيّ
في أيام الفجار، التي شهدها النبي صلى الله عليه وسلم
بنفسه، وأن كنانة وقريشاً به نُصروا.

وسنقول في هذه الأشعار التي أنشدتموها، ونُخبر عن
مقاديرها وطبقاتها، فأما قوله:

فانقضَّ كالدرّي من متحدّر العقيقة جُحّ ليل مُظلم

فخبرني أبو إسحاق أن هذا البيت في أبياتٍ آخر كان أسامة صاحب رُوح بن أبي همام، هو
الذي كان ولدها، فإن اتهمت خبر أبي إسحاق فسمّ الشاعر، وهات القصيدة، فإنه لا يُقبل في
مثل هذا إلا بيتٌ صحيح صحيح الجوهر، من قصيدة، صحيحة لشاعر معروف، وإلا فإن كل من
يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيتٍ منها أجود من هذا البيت.

وأسامة هذا هو الذي قال له رُوح:

رحيق مُدامه

بالقيامة

وهذا الشعر هو الذي قتله، وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر:

اسقني يا أسامة

اسقنيها فإني

يُثور تخاله طنباً

فانقضَّ كالدريء يتبعه

وهذا الشُّعر ليس يرويه لأوسٍ إلاّ من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر، وشُريح ابن أوس، وقد طعنت الرُّواة في هذا الشُّعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم، من قوله:

والعير يرهقها الخبازُ
وَجَحَشَهَا
ينقضُّ خلفهما انقضاض
الكوكب

فزعوا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدُو الحمار بانقضاض الكوكب، ولا بَدَن الحمار بيدن الكوكب، وقالوا: في شعر بشر مصنوعٌ كثير، مما قد احتملته كثيرٌ من الرُّواة على أنه من صحيح شعره، فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

فرجِّي الخيرَ وانتظري إياي
القارظُ العنزِيُّ آبا
وأما ما ذكرتم من شعر هذا الصَّبِيِّ، فإنَّ الصَّبِيَّ مخضرم.

وزعمتم أنكم وجدتم ذِكْر الشُّهب في كتب القُدماء من الفلاسفة، وأنه في الآثار العُلوية لأرسطاطاليس، حين ذكر القول في الشُّهب، مع القول في الكواكب ذوات الذوائب، ومع القول في القوس، والطُّوق الذي يكون حول القَمَر بالليل، فإن كنتم بمثل هذا تستعينون، وإليه تفزعون، فإننا نوجدكم من كذب التَّراجمة وزيادتهم، ومن فساد الكِتَاب، من جهة تأويل الكلام، ومن جهة جهل المترجمِ بنقل لغةٍ إلى لغةٍ، ومن جهة فسادِ النَّسخ، ومن أنه قد تقادمَ فاعترصتْ دونه الدُّهورُ والأحقاب، فصار لا يؤمن عليه ضروبُ التَّبديل والفساد، وهذا الكلام معروفٌ صحيح.

وأما ما روَيْتم من شعر الأفوه الأوديِّ فلعمري إنَّه لجاهليٌّ، وما

وجدنا أحداً من الرُّواة يشكُّ في أن القصيدة مصنوعة، وبعد
فمن أين علم الأَفوه أنَّ الشهب التي يراها إنما هي قذُفٌ
ورجم، وهو جاهليُّ، ولم يدَّعِ هذا أحدٌ قطُّ إلا المسلمون؟ فهذا
دليلٌ آخر على أن القصيدة مصنوعة رجع إلى تفسير قصيدة
البهراني ثم رجع بنا القولُ إلى تفسير قصيدة البهراني: وأما
قوله:

للبحار أهدي لعزسي مجتني وهضمة عطر
وأحلي هزير من صدف البه أسقي العيال من نيل مصر
فإن الناس يقولون: إن السَّاحر لا يكون ماهراً حتَّى يأتي بالفلُّ الرُّطب من سرنديب،
وهزيرة: اسم امرأته الجنيَّة.

وذكر الطَّبِّي الذي جعله مَرَكبه إلى بلاد الهند، فقال:

وأجوبُ البلاد تحتي ظبيُّناحكُ بيته كثيرُ التَّمري
دَبْرُهُ حَوَايَةَ مَكْوَيْسري
بالليل في العفاريت

يقول: هذا الطَّبِّي الذي من جُنَيْهِ وحذره، من بين جميع الوُحش، لا يدخل حَراه إلا مستديراً،
لتكون عيناه تلقاء ما يخاف أن يغشاه هو الذي يسري مع العفاريت بالليل ضاحكاً بي هازئاً إذا
كان تحتي.
وأما قوله:

يحسبُ النَّاظِرُونَ أَنِي ابْنُ مَاءٍ عُشَّهُ بِصَفِّةِ نَهْرٍ
فإن الجنيَّ إذا طار به في جوِّ السماء ظنَّ كلُّ من رآه أنَّه طائر
ماء.

قولهم: أروى من صبّ

وأما قولهم في المثل: أروى من صبّ فإني لا أعرفه، لأنّ كلّ شيء بالدوِّ والدّهْناء والصّمّان، وأوساط هذه المهامه والصحاصح فإن جميع ما يسكنها من الحشرات والسّباع لا يردُّ الماء ولا يريدُه، لأنه ليس في أوساط هذه الفيافي في الصّيف كله وفي القيظ جميعاً منقّع ماء، ولا غدير، ولا شريعة، ولا وشلّ، فإذا استقام أن يمرّ بظبائها وأرانبها وثعالبها وغير ذلك منها الصّيفة كلّها، والقيظ كله، ولم تذق فيها قطرة ماء، فهي له في الشتاء أترك، لأنّ من اقتات اليبس إذا لم يشرب الماء فهو إذا اقتات الرّطب أترك.

وليس العجب في هذا، ولكنّ العجب في إبلٍ لا ترد الماء. وزعم الأصمعيُّ أنّ لبني عقيل ما عزراً لم يرد الماء قطّ، فينبغي على ذلك أن يكون واديهم لا يزالُ يكونُ فيه من البقل والورق ما يُعيشُها بتلك الرّطوبة التي فيها.

ولو كانت ثعالبُ الدّهْناء وظباؤها وأرانبها ووحشها تحتاج إلى الماء لطلبته أشدّ الطلب، فإن الحيوان كلّهُ يهتدي إلى ما

يُعِيشُهُ، وَذَلِكَ فِي طَبْعِهِ وَإِنَّمَا سُلبَ هَذِهِ الْمَعَارِفَ الَّذِينَ أُعْطُوا
العقل والاستطاعة فوكلوا إليهما.
فأما من سُلبت الآلة التي بها تكون الرّويّة والأداة التي يكون بها
التصرّف، وتخرج أفعاله من حد الإيجاب إلى حد الإمكان،
وعوّض التمكين، فإن سبيله غير سبيل من مُنح ذلك، فقسم الله
تعالى لتلك الكفاية، وقسم لهؤلاء الابتلاء والاختيار.

قصيدتا بشر بن المعتمر

أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش
بشعرِ بشر بن المعتمر، فإن له في هذا الباب قصيدتين، قد
جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبّه بهذا على
وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة، وقد كان
يمكننا أن نذكر من شأن هذه السّباع والحشرات بقدر ما تتسع
له الرواية، من غير أن نكتبهما في هذا الكتاب، ولكنهما يجمعان
أموراً كثيرة.

أما أول ذلك فإنّ حفظ الشّعْر أهونُ على النَّفس، وإذا حُفظ
كان أعلَقَ وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضرب المثل كان

مثلاً.

وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف، على بيوت هذين
الشّعرين، وقع ذكرهما مصنفاً فيصير حينئذٍ أنق في الأسماع،
وأشدّ في الحفظ.

القصيدة الأولى

قال بشر بن المعتمر:

الناس دأباً في طلاب الغنوك لهم من شأنه الختر
كأذوبٍ تنهشها أذوبٌ عواءٌ ولها زفرٌ
فوضى وأيدى سبا له في نفثه سحرٌ
الله وسبحاته يديه النفعُ والضرُّ
خلقه في روقه كلهم والثيتلُ والغفرُ
وساكُنُ الجوّ إذا ما علا ومن مسكنه القفر
والصدع الأعصم في شاهق مسكنها الوعرُ
والحيّة الصماء في جحره والنتفلُ الرائعُ والذُرُّ
ترغث رباحها والسهلُ والنوفلُ والنضرُ
وهقلةُ ترتاع من ظلها عراؤٌ ولها زمرُ
المرو على شهوةٍ شيءٍ عندها الجمر
وضبة تاكلُ أولادها وعترفانٌ بطنه صفر
بالطعم وتأذينه ليس له فكرُ
لا أعجبُ من عالم حشوته التابيس والدغر
وحكمة يبصرها عاقلٌ لها من دونها سترُ
جرادةٌ تخرقُ متن الصفا وأبغثُ يصطاده صقر
سلاحه رمحٌ فما عذره عراه دونه الذعر
والدبُّ والقرد إذا علما والفيلُ والكلبةُ واليعر
عن فرطٍ أعاجيبها مدى غاياتها السحر

وظيبة تخضمُّ في حنظلٍ وعقربُ يعجبها التمرُّ
وخنفسُ يسعى بجعلانه يقوتها الأرواثُ والبعرُّ
الورد وتحيا إذا إليها الروث والجعرُّ
البيش إمامٌ لها والخلد فيه عجبٌ هترُّ
وقتفدُ يسرى إلى حيةٍ يخلى له الجحرُّ
وعصر فوطٍ ماله قبلهٌ وهدهدٌ يكفره بكرُّ
العقرب من لسعها أن ليس لها عذرُّ
فيه عجبٌ عجبٌ تلاقى الليث والبيبرُّ
وطائرٌ أشرفُ ذو جردةٍ وطائرٌ ليس لها وكرُّ
وثرملٌ تأوى إلى دوبلٍ وعسكرٌ يتبعه النسر
يسالمُ الضبعَ بذى مرةٍ أبرمها في الرحمِ العمرُّ
وتمسخُ خلةً طائرٌ وسابحٌ ليس لها سحرُّ
والعتُّ والحفاثُ ذو فحفٍ خرنقٌ يسفدهُ وبر
وغائص في الرملِ ذو حدةٍ لها نابٌ ولا ظفرُّ
حرباؤها في قيظها شامسٌ يوافى وقتهُ العصر
بالشقِّ إليها كما في روضتهِ الزهر
والظربانُ الوردُ قد شفهِ الكشى والوحر الحمير
منه الضبُّ مذلولياً نجا أهلكه الذعرُّ
وليس ينجيه إذا ما فسا ولو أحرزه قصرُّ
وهيشنةٌ تأكلها سرفهٌ وسمعُ ذئبٍ همهُ الحضرُّ
الماءُ أفاعي النقا يعجبها الخمرُّ
ذرى الحرملِ ظلُّ لها غلا واحتدم الهجرُّ
فبعضها طعمٌ لبعض كما أعطى سهامَ الميسرِ القمرُّ
وتمسخُ النيلِ عقابٌ والليثُ رأسٌ وله الأسرُّ
الها
ليس لها غالبٌ بما ينتقضُ الدهرُّ
وإن كنتُ ضعيفَ يقضى وله الأمرُ
القوى
إباضيًّا عبيًّا كورلافضي غرهُ الجفرُّ
يغرُّ الآل في فأودى عنده
سبسبُ السفرُّ

كلاهما وسع في جهل ما عندهما كفرُ
من الحشو الجفافة الذي عابوا ولم
الأولى

غبت لم يسلمك من رتًا فلحظة شزرُ

يعرض إن سالمته مدبراً يلسبه الدبرُ
خبُّ ضغنُ قلبه احتيالٌ وله مكرُ
وانتحلوا جماعةً بأسوفهم فوها فهمُ اليعر
وأهوجُ أعوجُ ذو لوثةٍ له رأيٌ ولا قدر
غره في نفسه مؤغلبهم أيضاً كما غروا
تنجع الحكمة فيهم عن الجرولة القطرُ

قلوبهم شتى فما منهم جمعهم أمرُ
الأذى أو بهت أهلٍ أعينهم خزرُ

الداء العضالُ لديه الصابُ والمقر

من ليست له حيلةٌ عزاء النفسِ
والصبر

القصيدة الثانية

قال: وأنشدني أيضاً:

تري العالم ذا حشوةٍ عنها عدد القطر
الوحشِ وأحناشها سبع وافر الظفرِ
وبعضه ذو همج هامج اعتبارٌ لذوي الفكر
والوزعُ الرقطُ على ذلَّهَاطاعمُ الحياتِ في الجحر
والخنفسُ الأسودُ في طبعه العقرب في السر
والحشراتُ الغبرُ منبثه الورى والبلدِ القفرِ
شرُّ وفي شرها كثيرٌ عند من يدرى
فكرَ العاقلُ في نفسه هذا الخلق في العمر

إلا عجباً شاملاً حجةً تنقشُ في الصخرِ
تري في الخلق من آيةِ الجسمان في قعرِ
أبرزها الفكر على فكرةٍ فيها وضخُ الفجرِ
دُرُّ العقلِ من رائدٍ وصاحبٍ في العسرِ واليسرِ
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ الشاهدِ للأمرِ
شيئاً بعضُ أفعاله يفصلُ الخيرَ من الشرِّ
قوى قد خصه ربُّه بخالص التقديس والطهرِ
أنت كالعين وإنسانه ومخرج الخيشوم والنحرِ
فشرهم أكثرهم حيلةً كالذئب والثعلب والذرِ
والليث قد جلده علمه حوى من شدة الأسرِ
يحطمه خابطاً يشبه بالهصرِ
والضعفُ قد عرف أربابه مواضع الفرِّ من الكرِ
تعرف بالإحساس أقدارها الأسرِ والإلحاح والصبرِ
والبختُ مقرونٌ فلا تجهل لصاحب الحاجة والفقيرِ
الكفايات إلى سكرةٍ منها سكرةُ الخمرِ
والضبعُ الغثراء مع ذيخها من اللبوة والنمرِ
خلى الليثُ بطن الورو والنمرُ أو قد جىء بالبيرِ
لها أرجى ولو قضقت بين قرنيه إلى الصدرِ
والذئب إن أفلت من شره أن أبلغ في العذرِ
جنس فله قلوبٌ عبَّصُرُ أعراقه تسرى
وتصنع السرفة فيهم صنيع الأرض والبذرِ
على والأضعف الأصغرُ أحرى للأكبر بالفكرِ
يرى عدوه قاهوجاً ذاك إلى المكرِ
تري الذئب إذا لم فجاءت رسلاً
تجرى
شيءٍ فعلى قهجم أو يقدم أو يجرى
والكيس في المكسوا العندليب الفرخُ
لهم كالنسرِ
والخلدُ كالذئب على والفيلُ والأعلم كالوبرِ

خبثه
والعبدُ كالحرِّ وإن يولأعفتُ الأغر كالصقر
في الدين أيديها وتوا في الرأي
والقدر
غمر التقليدُ فناصروا القياسَ ذا
أحلامهم السبر
فاقهم كلامي واصطبر النجح مع الصبر
وانظر إلى الدنيا بعين أن يجري ولا يدري
امرئ
تري الهقلَ وأمعاه بين الصخرِ والجمرِ
البيش على فائقة العطر
بيشها
وطائر يسبح في كماهر يسبح في غمرِ
جام
ولطعة الذئب على وصنعة السرفة والدبر
حسوه
ومسمع القردان في أعجب مما قيلَ في
منهل الحجر
وظبية تدخل في توؤخرها من شدة الذعر
بالحزم على يريغها من قبل الدبر
قانس
والمقرمُ المعلم ما إن مرارة تسمع في الذكر
وخصية تنصل من جوفه والنحر
يرى من بعدها جثثاً شقة مائلة الهدر
وليس للطرف طحالُ أشاعه العالمُ بالأمر
فؤاد الثور عظمُ يعرفه الجازر ذو الخبر

الحيثان أعجوبة كان منها عاش في

لسان سقى ملحداغ السمك النهري
في العذب إلى ذى النقلة إلى

جمه

أوقاتاً بأعيانها مثال الفلك
المجرى

تعلقب الأنواء في
جنس فله مهده الشهر

تظهر في ليلها نوارى آخر الدهر
يسبغ الطعم ما لم مزاجه ماء على قدر

له شيء لإزلاقه جراب واسع
الشجر

والتفل الرائغ إما نضاً
شطر

رأى الليث أخوا ذا فشي وذا جزر
حافر

رأى النمر طعاماً طلعهمه ذلك في النمر
رأى مخلبه وافياً يجرح في الصخر
منهت الشدق إلى فالنمر مأكول إلى
غلصم الحشر

يعادي النمر في أصبر من نمر
ضيغم

الذي في أصل شدة الأضلاع
تركيبه والظهر

بالجسر على طبقه يسحر المختال ذا

سبحان ربّ الخلق ومنشر الميت من
والأمر القبر
فاصبر على التفكير فيما أقرب الأجر من الوزر

تفسير القصيدة الأولى

نقول بعون الله تعالى وقوته في تفسير قصيدة أبي سهل بشر بن المعتمر، ونبدأ بالأولى المرفوعة، التي ذكر في آخرها الإباضية، والرافضة، والناطقة، فإذا قلنا في ذلك بما حضرنا قلنا في قصيدته الثانية إن شاء الله تعالى.

ما قيل في الذئب أمّا قوله:

كَأذُوبٍ تَنْهَشُهَا أَذُوبٌ عُوَاءٌ وَلَهَا زَفْرٌ

فإنّها قد تتهارشُ على الفريسة، ولا تبلغ القتل، فإذا أدمى

بعضها بعضاً وثبت عليه فمزقته وأكلته، وقال الرّاجز:

تكوني يا ابنة الأثمِّ دَمَى ذئبها المدمي

وقال الفرزدق:

كذئبِ السَّوءِ لَمَّا رَأَى صَاحِبَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ

نعم حتّى ربما أقبلًا على الإنسان إقبالاً واحداً، وهما سواءٌ على عداوته والجزم على أكله، فإذا أدمى أحدهما وثب على صاحبه المدمى فمزقه وأكله، وترك الإنسان وإن كان أحدهما قد أدماه.

ولا أعلم في الأرض خلقاً ألامّ من هذا الخلق، ولا شرّاً منه، ويحدث عند رؤيته الدّم له في صاحبه الطمع، ويحدث له في ذلك الطمع فضلٌ قوة، ويحدث للمدمى جبنٌ وخوف، ويحدث عنهما ضعف واستخذاء، فإذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دونَ أكله شيء، والله أعلم حيث لم يُعط الذئب قُوّة الأسد، ولم يعط الأسد جُبن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف، مثل ما يعتري الهر والهرة بعد الفراغ من السّفاد، فإن الهر قبل أن يفرغ من سفاد الهرة أقوى منها كثيراً، فإذا سفدها ولّى عنها هارباً واتبعتها طالبةً له، فإنها في تلك الحال إن لحقته كانت أقوى منه كثيراً، فلذلك يقطع الأرض في الهرب، ورثما رمى بنفسه من حلق، وهذا شيء لا يعدمايه في تلك الحال.

ولم أرهم يقفون على حدّ العلة في ذلك، وهذا بابٌ سيقع في موضعه من القول في الذئب

تماماً، بما فيه من الرّواية وغير ذلك.

الذّيح والثّيتل والغفر وأمّا قوله:

خلقه في رزقه كلّهم والثّيتل والغفر

الذّيح: ذكر الصّيع، والثّيتل شبيهة بالوعل، وهو ممّا يسكن في رؤوس الجبال، ولا يكون في القُرى، وكذلك الأوعال، وليس لها حُضْر ولا عملٌ محمود على البسيط، وكذلك ليس للظباء حُضْر ولا عملٌ محمود في رؤوس الجبال.

وقال الشاعر:

تُكْرِدِسُ بِالدارِ عَيْرِكُمَشِي الوُعُولِ على الظاهرة

وقال أيضاً:

والظبيُّ في رأسِ اليقاعِ تخالطُ الهضابَ مُقَيِّداً مشكولاً

والغُفْر: ولد الأروية: واحد الأروى، والأروى: جماعةٌ من إناث الأوعال.

الصّدع والجأب وأمّا قوله:

والصّدعُ الأعصمُ في شاهقٍ مسكنها الوعرُ

فالصّدع: الشّاب من الأوعال، والأعصم: الذي في عصمته بياضٌ، وفي المِعصم منه سوادٌ ولونٌ يخالف لونَ جسده، والأنثى عصماء، والجأب: الحمار الغليظ الشّديد، والجأبة: الأتان الغليظة، والجأب أيضاً، مهموز: المغرة، وقال عنترة:

أمامَ رماجهنَّ كأنَّهُ الأسيّنة حافر الجأب

شبهه بما عليه من لُطوخ الدّماء برجلٍ يحفر في معدن المغرة، والمغرة أيضاً المَكْر، ولذلك قال أبو زبيد في صفة الأسد المخمر بالدماء:

يعاجيهم للشّرِّ ثانيَ عطفِ عنايةته كأنّما باتَ يُمكّر

الحية والثعلب والذر وأمّا قوله:

والحياة الصماء في جحرهوا التّفل الرائغ والذرّ

فالتّفل هو الثّعلب، وهو موصوفٌ بالرّوغان والخبث، ويضرب به المثل في التّذالة والدناءة، كما يضرب به المثل في الخبث والرّوغان.

وقال طرفة:

وصاحبٍ قد كنتُ صاحبتهُ ترك الله له واضحته

أزوعٌ من ثعلبٍ أشبه الليلة بالبارحة

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

قد أدركتهم فتركثهيوؤعون بالعرَاءِ روع الثعالبِ

وقال أيضاً:

ولستُ بثعلبٍ إن كان كَوْؤُ برأسه في كلِّ جُحْرٍ

ولمَّا قال أبو محجَّنِ الثَّقَفِيُّ لأصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، من حائطِ الطائفِ ما قال:

قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما أنت ثعلبٌ في جُحْرٍ، فابرزْ من الحُصْنِ إن كنت رجلاً.

ومما قيل في ذلة الثعلب، قال بعض السلف، حين وجد الثعلبان بال على رأس صنمه:

يبول الثعلبانُ برأسه دَلٌّ منْ بالث عليه الثعالبُ

فأرسلها مثلاً، وقال دُرَيْدٌ في مثل ذلك:

تميتني قيس بن سعدٍ
سفاهةً امرؤٌ لا تحتويك المقانبُ

مُتَعَكِّسٌ امرؤٌ جَعْدُ القفا
الأقِطِ الحوليِّ شبعان

انتسبوا لم يعرفوا غير
ومن شرِّ السباع
الثعالبُ

وأنشدوا في مثل ذلك:

أعجبَ الدَّهْرَ في تصرُّفه الدَّهْرُ لا تنقضي عجائبه

يبسطُ آمالنا فنبسطها ولأولنا نوائبه

رأينا في الدَّهْرِ من أسدٍ على رأسه ثعالبه

ففي الثعلب جلد، وهو كريم الوبر، وليس في الوبر أعلى من الثعلب الأسود، وهو ضروب،

ومنه الأبيض الذي لا يُفصل بينه وبين القنك، ومنه الخلنجي، وهو الأعم.

ومن أعاجيبه أن تصيبه، وهو قضيبه في خلة الأنوبة، أحد شطريه عظم في صورة المثقب،

والآخر عصبٌ ولحم، ولذلك قال بشر بن المعتمر:

والثتفل الرائعُ إمَّا نضا فشطرُ أنبوبٍ على شطرٍ

وهو سبُعُ جبانٌ جدًّا، ولكنه لفرط الخبث والحيلة يجري مع كبار السباع.

وزعم أعرابيٌّ ممن يُسمعُ منه، أنه طارده مرةً بكلايٍ له، فراوغه حتى صار في حَمْرٍ، ومَرَّ

بمكانه فرأى ثعلباً مَيَّناً، وإذا هو قد رَكَر بطنه ونفخه، فوهَّمه أنَّه قد مات من يوم أو يومين، قال: فتعدَّيته وشَمَّ رائحة الكلاب فوثب وثبَّةً فصار في صحراء.

وفي حديث العامَّة أنَّه لما كَثُرَت البراغيثُ في فِرْوَتِه، تناول بفيه إمَّا صُوفَةً وإمَّا ليقه، ثم أدخل رجله في الماء، فترقَّعتْ عن ذلك الموضع، فما زال يغمسُ بدنه أوَّلًا فأوَّلًا حتَّى اجتمعن في حَظْمِه، فلَمَّا غمس حَظْمِه أوَّلًا فأوَّلًا اجتمعن في الصُّوفِ، فإذا علم أنَّ الصُّوفِ قد اشتملت عليهنَّ تركها في الماء ووثبَ، فإذا هو خارجُ عن جميعها. فإن كان هذا الحديثُ حَقًّا فما أعجبه، وإن كان باطلاً فإنَّهم لم يجعلوه له إلا للفضيلة التي فيه، من الخبثِ والكَيْسِ.

وإذا مشى الفرسُ مشياً شبيهاً بمشي الثعلب قالوا: مشى التعلبيَّة قال الراعي:

وَعَمَلِي تَصِيٍّ بِالْمِثَانِ كَأَنَّهُتْعَالِبُ مَوْتِي جِلْدُهَا قَدْ تَسَلَّعَا
وقال الأصمعيُّ: سرق هذا المعنى من طفيل الغنوي ولم يُجد السَّرق.

وفي تشبيه بعض مشيته قال المرَّار بن مُنقذ:

التَّعْلِبِ أَدْنَى جَرِيهِ يُرْكَضُ يَعْفُورٌ أَشْرُ
وقال امرؤ القيس:

أَيْطَلَا ظَنِّي وَسَاقَا نَعَاوِيْرَ خَاءِ سِيْرِحَانَ وَتَقْرِيْبِ تَنْقُلِ
والبیت الذي ذكره الأصمعيُّ لطفيل الغنوي، أنَّ الرَّاعي سرق معناه هو قوله:

وَعَمَلِي نَصِيٍّ بِالْمِثَانِ كَأَنَّهُتْعَالِبُ مَوْتِي جِلْدُهَا لَمْ يَنْزِعِ
وأنشدوا في جُنيِّه قولَ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

وَبَلَدِ لَأْتِرَامِ خَائِفَةٍ مُعْبَرَّةٍ جَوَانِبُهَا
لِلْحِنِّ عَارِفِينَ بِهَا مِنْ رَهْبَةٍ تَعَالِبُهَا
كَلَّفْتُهَا عَزْمَسًا عُدَا فِرَةً هِبَابٍ فُعْمًا مَنَاكِبُهَا
تُرَاقِبُ الْمُحْصَدَ الْمَمَرَّ إِذَا هَاجِرُهُ لَمْ تَقِلْ جِنَادِبُهَا

والذي عندي أنَّ زُهَيْراً قد وصف التَّعْلِبَ بشدَّة القلب، لأنهم إذا هَوَّلُوا بذكر الظُّلْمَةِ الوحشيَّة والغيلان، لم يذكروا إلا فزع من لا يكاد يفزع، لأنَّ الشاعر قد وصف نفسه بالجرأة على قطع هذه الأرض في هذه الحال.

وفي استنذاله وجبهه قالت أمُّ سالم لابنها مَعْمَر:

مَعْمَرًا لَا زَيْنَ اللَّهِ مَعْمَرَاتُهُ مِنْ زَائِرٍ يَتَقَرَّبُ
أَعَادَيْتِنَا عَادَاكَ عَزَّ وَذَلَّ فِي السَّرْبَالِ إِذْ جِئْتُ

تَرَ عَيْنِي زَائِرًا مِثْلَ مَعْمَرٍ بَانَ يُجْنَى عَلَيْهِ وَيُضْرَبُ
وقال عقيل بن عُلفة:

لَمَا قَد نَالَ أَمَّكَ هِجْرَسُ
عَبْدُ يَا زَمِيلَ دَلِيلُ
مَتَى أَضْرِبُكَ بِالسَّيْفِ
بَنِي عَمْرٍو وَأَنْتَ قَتِيلُ

الهِجْرَسُ: وَلَدُ التَّلْبِ، قَالَ: وَكَيْفَ يَضْطَاذُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ؟
فَأَنْشَدَ شَعْرَ ابْنِ مِيَادَةَ:

تَرَ أَنَّ الْوَحْشَ يَخْدَعُ وَيُتَّهَّغُ أحياناً فَيُصْطَادُ نُورَهَا
وَصَوَارِي الصَّيْدِ تُخْفِقُ فُرْهَتْ عَقْبَائِهَا وَنُسُورَهَا

قَالَ: وَسَأَلْتُ عَنْهُ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ فَقَالَ: قِيلَ لَابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ

تَزْعَمُونَ أَنَّ سَلِيمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَ إِذَا صَارَ فِي

الْبَرَارِيِّ، حَيْثُ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ، فَاحْتَاكَ إِلَى الْمَاءِ، دَلَّهُ عَلَى

مَكَانِهِ الْهَدُّدُ، وَنَحْنُ نَغْطِي لَهُ الْفَحَّ بِالتَّرَابِ الرَّقِيقِ، وَتُبْرُزُ لَهُ

الطُّعْمُ، فَيَقَعُ فِيهِ جَهْلًا بِمَا تَحْتَ ذَلِكَ التَّرَابِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى

الْمَاءِ فِي قَعْرِ الْأَرْضِ الَّذِي لَا يُوَصِّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِأَنْ يَحْفَرَ عَلَيْهِ

الْقَيْمُ الْكَيْسُ؟.

قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِذَا جَاءَ الْقَدْرُ لَمْ يَنْفَعِ

الحدز.

وأنشدوا:

الصديق هو الصَّدوق وكذاك شَرُّهم الميُون الأَكذبُ

عَدُوت له تريد نجازيلُوعِدِ راعٍ كما يروغُ الثَّعلبُ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

عابِدِ شاهَتِ وجُوهُ عن المعروف يوم

الأعابِدِ التَّزايِدِ

كان صَيْفِيُّ يفي بأمانةِ ثعلبِ أَعْيَا ببعض المراسِدِ

وأنشد:

ويشْرَبُهُ مَدْقاً ويسقي عَيْلَهُجَاجاً كأقْرابِ الثَّعالِبِ أورقا

وقال مالك بن مِرْداس:

ذا الموعِدِ بالضرِّ تلعبنَّ لِعَبَةِ المغتَرِّ

أَنْ تكونَ مثلَ هَرِّ ثَعْلَبٍ أَضِيعَ بعدَ حُرِّ

هاجَتْ به مخيلة الأظفر عسراء في يوم شمال قَرِّ

منها لثق الذعر ليس بذئ محجر

تنفض أعلى فزوه المغبرتنفضُ منها نابها بشزر

كلون الشره المخمر

المخيلة: العقاب الذكر الأشبث، صرد: مكان مطمئن.

وقال اليقطري: كان اسمُ أبي الصُّريس ديناراً فقال له موله: يا دينير فقال: أتصعّرني وأنت

من بني مخيلة، والعقاب الذكر بدرهم، والأنثى بنصف درهم، وأنا ثماني عشرة دراهم.

سلاح الثعلب ومن أشدّ سلاح الثَّعلب عندكم الرّوغان والثَّماوت، وسلاحه أنتنُّ وألنُّج وأكثُر من

سُلاح الحبارى.

وقالت العرب: أدهى من ثعلب، وأنتن من سُلاح الثَّعلب.

وله عجيبةٌ في طلب مقتل القنقذ، وذلك إذا لقيه فأمكنه من ظهره بال عليه، فإذا فعل ذلك

به ينسبط فعند ذلك يقبض على مَراقٍ بطنه.

أرزاق الحيوان ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الدَّئب يصيد الثَّعلب فيأكله، ويصيد الثَّعلب

القنقدَ فيأكله، ويُربغ القنفذ الأفعى فيأكلها، وكذلك صنيعُه في الحيات ما لم تعظم الحية،
والحيّة تصيدُ العصفور فتأكله، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتمس فراخ الزنابير
وكلّ شيء يكون أفحوضه على المستوي، والرّنبور يصيد النّحلة فيأكلها، والنّحلة تصيد الذبابة
فتأكلها، والذبابة تصيدُ البعوضة فتأكلها.
الإلقة والسهل والنوفل والنضر وأما قوله:

تُرغِثُ رَبّاحها والسَّهْلُ والتَّوَقُّلُ والنَّضْرُ

فالإلقة هاهنا القردة، تُرغِثُ: ترضع، والرّبّاح: ولد القردة، والسَّهْلُ: الغراب، والتَّوَقُّلُ: البحر،
والتَّضْرُ: الذهب، وكلُّ جريّة من التّساء وغير ذلك فهي إلقة، وأنشدني بشر بن المعتمر لرؤية:

وجدت إلقة من الإلق

وقد ذكرنا الهقل وشأنه في الجمر والصخر، وأكل الصبّ أولاده، في موضعه من هذا الكتاب
وكذلك قوله في العثرفان، وهو الديك الذي يؤثر الدجاج بالحب، وكأنته منجم أو صاحب
أسطراب، وذكرنا أيضاً ما في الجراد في موضعه، ولسنا نعيد ذكر ذلك، وإن كان مذكوراً في
شعر بشر.

الأبغث وأما قوله:

وأبغث يصطاده صقر

ثم قال:

سلاحه رُمحُ فما عُدُّره عَراه دُونه الذعْرُ
يقول: بدنُ الأبغث أعظمُ من بدن الصقر، وهو أشدُّ منه شِدَّةً،

ومنقاره كسنان الرُمح في الطول والذرب، وربّما تجلّى له

الصقْر والشاهينُ فعَلقَ الشجر والعرار، وهتك كلَّ شيء،

يقول: فقد اجتمعت فيه خصالُ في الظاهر معينه له عليه،

ولولا أنّه على حال يعلم أنّ الصقْر إنما يأتيه قبلاً ودبراً،

واعتراضاً، ومن علّ، وأنه قد أعطى في سلاحه وكفه فضل

قوّة لما استخذى له، ولما أطمعه بهرّبه، حتّى صارت جُرأته عليه بأضعاف ما كانت.

قال بعضُ بني مروان في قتل عبد الملك عمّرو بن سعيد:

بني مَرَوَانِ إِذْ يَقْتُلُونَهُ مِنْ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَيَّ

ما يقبل التعليم من الحيوان وأمّا قوله:

وَالدَّبُّ وَالقِرْدُ إِذَا عُلِّمَا وَالْفِيلُ وَالكَلْبَةُ وَالْيَعْرُ
فإن الحيوان الذي يَلْقَنُ وَيَحْكِي وَيَكْسِرُ وَيُعَلِّمُ فيزداد بالتعليم في هذه التي ذكرنا، وهي الدَّبُّ والقِرْدُ، والفيل، والكلب.

وقوله: اليعر، يعني صغار الغنم، ولعمري أنّ في المكيّة والحبيّة لعباً.

حب الطيبي للحنظل والعقرب للتمر وأمّا قوله:

وِطْبِيَّةٌ تَخْضِمُ فِي حَنْظَلٍ وَعَقْرَبٌ يُعْجِبُهَا التَّمْرُ
ففي الطّبي أعاجيبُ من هذا الضرب، وذلك أنّه ربّما رعى الحنظل، فتراه يقبضُ ويعضُّ على نصف حنظلةٍ فيقدها قد الخسفة فيمصغُ ذلك النصفَ وماؤه يسيلُ من شذقيه، وأنت ترى فيه الاستلذاذ له، والاستحلاء لطعمه.

وخبرني أبو محجن العنزّي، خالُ أبي العميثل الرّاجز، قال: كنت أرى بأنطاكية الطّبي يُردُّ البحر، ويشربُ المالح الأجاج.

والعقرب ترمي بنفسها في التّمر، وإثما تطلب التّوى المُنقع في قعر الإناء.

فأيّ شيء أعجبُ من حيوانٍ يستعذب مُلوحة البحر، ويستحلي مرارة الحنظل.

وسنذكر خصال الطّبي في الباب الذي يقع فيه ذكره إن شاء الله تعالى، ولسنا نذكر شأن

الضبِّ والتّممل، والجعل والرّوث والورد لأنّنا قد ذكرناه مرّة.

فأرة البيش وأمّا قوله:

البِيشُ إِمامٌ لها وَالخَلْدُ فِيهِ عَجْبٌ هَتْرُ

فإن فأرة البيش دُوْبِيَّة تشبة الفأرة، وليست بفأرة، ولكن هكذا تسمّى، وهي تكون في العياض والرّياض ومنابت الأهضام، وفيها سموّم كثيرة، كقرون الشُّبُل، وما في القُسط، فهي تتخلّل تلك الأهضام، وتطلب السُّموّم وتغذيها، والبيش: اسمٌ لبعض السُّموّم، وهذا ممّا يُعجب منه.

وقد ذكرنا شأن القنقذ والحَيَّة في باب القول في الحَيّات. العصفوط والهدهد وأمّا قوله: وعصفوط ما له قِبلة فهو أيضاً عندهم من مطايا الجنّ، وقد ذكره أيمن بن حُرَيم فقال:

غزاة تَنْتَابُهُمْ تجوب العِراقَ وتَجبي النَّبِيطا
وَتُجِرُ فُرْسائَهُمْ أَجَحَرَ الحَيَّةِ العَصْرُفوطا
لأن العصفوط دُوْبِيَّة صغيرة ضعيفة، والحَيّات تأكلها وتغصّبها أنفسها.
وأنشدوا على ألسنة الجنّ:

عَصْرَفوطٍ حَطَّ بي وَرَدًا مِنْ عِظاءٍ قِوَارِبِ
فَأَقَمْتَهُ
وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وهدهدٌ يُكْفِرُهُ بَكْرٌ
فإِثْمًا ذَلِكُ لِأَنَّهُ كَانَ حَاجًّا بَكَرِ ابْنِ أَخْتِ عَبْدِ الواحِدِ صاحِبِ
البَكْرِيةِ، فقال له: أتخبرُ عن حال الهدهدِ بخبر؟ إنه كان يعرفُ
طاعة الله عزَّ وجلَّ من معصيته، وقد ترك موضِعَه وسار إلى
بلاد سبأ، وهو وإن أطرف سليمان بذلك الخبر وقيله منه فإنَّ
دَنَبَهُ في تَرْكِ موضِعِهِ الذي وُكِّلَ به، وجولانِهِ في البُلدانِ على
حالِهِ، ولا يكون ذلك مما يجعل ذنبه السابق إحصاناً، والمعصيةُ
لا تنقلبُ طاعة، فلم لا تشهد عليه بالتَّفاق؟ قال: فإني أفعل

قال: فحكى ذلك عنه فقال: أمّا هو فقد كان سلم على
سليمان وقد كان قال: "لَأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْتَهُ أَوْ
لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ"، فلَمَّا أتاه بذلك الخبر، رأى أنّه قد أدلى
بحجّة، فلمْ يَعْدُبْهُ، ولم يذَبْحْهُ، فإن كان ذنبه على حاله، فكيف
يكون ما هجم عليه ممّا لم يُرسل فيه ولم يقصد له حُجّة؟
وكيف يُبقي هذا عليه. وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تأثم،
ولا يجوز أن يُؤثم الله تعالى إلاّ المسيئين، فقال بشرٌ لبكر: بأيّ
شيءٍ تستدلُّ على أنّ المسيء يعلمُ أنه مسيء؟ قال: بخجله،
واعذاره بتوبته، قال: فإنّ العقرب متى لسعت فرّت من
خوف القتل، وهذا يدلُّ على أنّها جانية، وأنت تزعم أنّ كلّ
شيءٍ عاصٍ كافرٌ، فينبغي للعقرب أن تكون كافرة، إذا لم يكن
لها عذرٌ في الإساءة.

الوبر والنمر وأمّا قوله:

فيه عجبٌ عجبٌ تلاقى الليث والنمرُ

لأنّ البر مسالِمٌ للأسد، والنمر يطالبه، فإذا التقيا أعان البر الأسد.

الخفاش والطائر الذي ليس له وكر وأمّا قوله:

وطائرٌ أشرفٌ ذو جُرْدَةٍ وطائرٌ ليس له وكرٌ

فإنّ الأشرفَ من الطير الخفاش، لأنّ لآذانها حجمًا ظاهرًا، وهو متجرّدٌ من الرغب والرّيش،

وهو يلد.

والطائر الذي ليس له وكُرٌّ، هو طائرٌ يخبر عنه البحرِيُّونَ أنَّه لا يسقطُ إلا ريثما يجعلُ لبيضه أُدْحِيًّا من ترابٍ، ويغطِّي عليه، وبطيرٍ في الهواءِ أبداً حتَّى يموت، وإن لقي ذكرٌ أنشَى تسافداً في الهواءِ، وبيضه يتفقص من نفسه عند انتهاء مُدَّتِه، فإذا أطاق فرحُه الطَّيرانَ كان كأبويه في عاداتهما.

الثعالب والنسور والضباع وأما قوله:

وَتُرْمَلُ تَأْوِي إِلَى دَوْبَلٍ وَعَسْكَرٌ يَتَّبِعُهُ النَّسْرُ
يُسَالِمُ الصَّبْعَ بِذِي مَرَّةٍ أْبْرَمَهَا فِي الرَّحْمِ الْعُمُرُ
فالترملة: أنشَى الثَّعالب، وهي مسالمة للدَّوبل، وأما قوله:

وعسکر يتبعه النَّسر

فإن النسور تتبع العساكر، وتتبع الرَّفاق ذوات الإبل، وقد تفعل ذلك العقبان، وتفعله الرَّخم، وقد قال النَّابغة:

بالنصرِ إذ قيلَ لَهَ فكتائبُ من غسانَ غيرِ
أشائب
عمّه دنيا وعمرو بنِ عامرٍ
قومٌ بأسهمَ غيرِ
غزوا بالجيشِ حلقَ عصائبٍ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
فوقهم
جوانحٌ قد أيقنَّ أن قبيلهم
عالم
تراهنَّ خلفَ القومِ خزرًا جلوسَ الشيوخِ في مسوكِ
عيونها
الأرانب
والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخِ في ثياب المرانب.

وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من الطمع في القتلى، وفي الرِّذايا والحسرى، أو في الجهيز وما يُجرح.

وقد قال النَّابغة:

سَمَامًا تُبَارِي الرِّيحَ حُصُومًا
رَدَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِعُ
عُيُونُهَا
وقال الشاعر:

سماحيق السّلا عن قفّرة بادي السّغابة أطحل

وقال حميد بن ثور في صفة ذئب:

ما بدا يوماً رأيت غيايةً الطير ينظرن الذي هو

لأنه لا محالة حين يسعى وهو جائع، سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمة ليس
دونها مانع.

وقد أكثر الشعراء في هذا الباب حتى أطنب بعض المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد
فقال:

السيوف نفوس ويجعل الهام تيجان القنا الدُّبِل الناكثين به

عَوَدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا يَبْعُهُ فِي كُلِّ مُرْتَحِلٍ
ولا نعلم أحداً منهم أسرف في هذا القول وقال قولاً يُرغَبُ عنه إلا النابغة، فإنه قال:

جوانح قد أيقن أن قبيله التقى الجمعان أول

وهذا لا يُثبت. وليس عند الطير والسباع في اتباع الجموع إلا ما يسقط من ركبهم ودوابهم
وتوقع القتل، إذ كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرّةً أو مراراً، فأما أن تقصد بالأمل واليقين إلى
أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله أحد.

نسر لقمان وقد أكثر الشعراء في ذكر النسور، وأكثر ذلك قالوا في بُد.

قال النابغة:

أضحيت خلاءً وأمسى أهلها احتملوا

فضربه مثلاً في طول السّلامة، وقال لبيد:

رأى صبح سواد خليه بين قائم سيفه والمحمل
وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تائم، ولا يجوز أن يُؤثم الله

تعالى إلا المسيئين، فقال بشر لبكر: بأيّ شيء تستدلُّ على

أَنَّ الْمَسِيءَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسِيءٌ؟ قَالَ: بِخَجَلِهِ، وَاعْتِذَارِهِ بِتَوْبَتِهِ،
قَالَ: فَإِنَّ الْعَقْرَبَ مَتَى لَسَعَتْ فَرَّتْ مِنْ خَوْفِ الْقَتْلِ، وَهَذَا
يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا جَانِيَةٌ، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَاصٍ كَافِرٌ،
فَيَنْبَغِي لِلْعَقْرَبِ أَنْ تَكُونَ كَافِرَةً، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عِذْرٌ فِي
الإِسَاءَةِ.

الْبَيْرِ وَالنَّمْرِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

فِيهِ عَجَبٌ عَاجِبٌ تَلَاقَى اللَّيْثُ وَالنَّمْرُ

لأنَّ البَيْرَ مَسَالِمٌ لِلْأَسَدِ، وَالنَّمْرَ يَطَالِبُهُ، فَإِذَا التَّقِيَا أَعَانَ الْبَيْرُ الْأَسَدَ.

الخَفَاشِ وَالطَّائِرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَكْرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَطَائِرٌ أَشْرَفُ ذُو جُرْدَةٍ وَطَائِرٌ لَيْسَ لَهُ وَكْرٌ

فإنَّ الْأَشْرَفَ مِنَ الطَّيْرِ الْخَفَاشُ، لِأَنَّ لَأَذَانَهَا حِجْمًا ظَاهِرًا، وَهُوَ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الرَّغَبِ وَالرَّيْشِ،

وَهُوَ يَلِدُ.

وَالطَّائِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَكْرٌ، هُوَ طَائِرٌ يَخْبِرُ عَنْهُ الْبَحْرِيُّونَ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ إِلَّا رَيْثَمَا يَجْعَلُ لَبِيضَهُ

أَدْحِيًّا مِنْ تَرَابٍ، وَيَغْطِي عَلَيْهِ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ، وَإِنْ لَقِيَ ذَكَرٌ أَنْشَى تَسَافَدَا

فِي الْهَوَاءِ، وَبِيضُهُ يَتَفَقَّصُ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ انْتِهَاءِ مُدَّتِهِ، فَإِذَا أَطَاقَ فَرْحُهُ الطَّيْرَانِ كَانَ كَأَبْوَيْهِ

فِي عَادَاتِهِمَا.

الثَّعَالِبِ وَالنَّسُورِ وَالضَّبَاعِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَتُرْمَلُ تَأْوِي إِلَى دَوْبَلٍ وَعَسْكَرٌ يَتَّبِعُهُ النَّسْرُ

يُسَالِمُ الصَّبْعَ بِذِي مَرَّةٍ أَبْرَمَهَا فِي الرَّحْمِ الْعُمْرُ

فَالثَّرْمَلَةُ: أَنْشَى الثَّعَالِبِ، وَهِيَ مَسَالِمَةٌ لِلدَّوْبَلِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَعَسْكَرٌ يَتَّبِعُهُ النَّسْرُ

فإنَّ النَّسُورَ تَتَّبِعُ الْعَسَاكِرَ، وَتَتَّبِعُ الرَّفَاقَ ذَوَاتِ الْإِبِلِ، وَقَدْ تَفَعَّلَ ذَلِكَ الْعِقْبَانُ، وَتَفَعَّلَهُ الرَّحْمُ،

وَقَدْ قَالَ النَّابِغَةُ:

بالنصرِ إذ قيلَ لَه فكتائبُ من غسانَ غيرُ
أشائب

عمّه دنيا وعمرو بن عامرٍ
قومٌ بأسهمَ غيرُ

غزوا بالجيشِ حلقَ عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائب
فوقهم

جوانحُ قد أيقنَّ أن قبيلهم
التقى الجمعانِ أوّل

تراهنَّ خلفَ القومِ خزرًا جلوسَ الشيوخِ في مسوك
عيونها
الأرانب

والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخِ في ثياب المرانب.

وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من الطمع في القتلى، وفي الرّذايا
والحسرى، أو في الجهيـض وما يُجرَح.

وقد قال الثّابغة:

سَمَاماً تُباري الرِّيحَ حُصوماً
رَدَايا بالطَّرِيقِ وَدَائِعُ
عُيُونُهَا

وقال الشاعر:

سماحيقَ السّلا عن قَفْرَةٍ بادي السّغابَةِ
أَطْحَلُ

وقال حُميد بن ثور في صفة ذئب:

ما بدا يوماً رأيتَ غيايَةً الطير ينظرُن الذي هو

لأنّه لا محالة حين يسعى وهو جائع، سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمةٍ ليس
دونها مانع.

وقد أكثر الشعراءُ في هذا الباب حتّى أطنب بعضُ المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد
فقال:

السيوف نفوس
ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الدُّبُلِ
الناكثين به
عَوَدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وثِقنَ بهايئُبَعَنَه في كلِّ مُرْتَحِلِ

ولا نعلم أحداً منهم أسرفَ في هذا القول وقال قولاً يُرغَبُ عنه إلا النابغة، فإنَّه قال:

جوانحُ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَهُ التقى الجمعانِ أوَّلُ

وهذا لا تُثبتُه. وليس عند الطَّير والسَّبَّاع في اتِّباع الجموع إلاَّ ما يسقط من ركابهم ودوابِّهم وتوقُّع القتل، إذ كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرَّةً أو مراراً، فأما أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله أحدٌ.

نسر لقمان وقد أكثر الشُّعراءُ في ذكر النسور، وأكثر ذلك قالوا في لُبْد.

قال النَّابغة:

أضحيتُ خلاءً وأمسى أهلها احتملوا

فضربه مثلاً في طول السَّلامة، وقال لبيد:

رأى صبغُ سوادَ خليله بين قائم سيفه والمحمل
صبحنَ صباحاً يوم حقيقاً صاب صباحاً قائماً لم
حذاره
فالتفَّ منقصفاً وأضحى التراب وبين حنو
الكلكل
جرى لبْدُ فأدرَكَ الزمانِ وكان غير

رأى لبد النسور القوادم كالفقير
تطاييرتُ الأعزل
تحتَه لقمانُ يرجو رأى لقمانُ أن لم

وإن أحسنت الأوائل في ذلك فقد أحسن بعض المحدثين وهو

الخرجي في ذكر النَّسر وضرب المثل به وبلبد وصحَّة بدن

الغراب، حيث ذكرَ طولَ عمر مُعازِ بن مُسلم بن رجاء، مولى

القعقاع بن شَور وكان من المعمرين، طعن في السن مائةً وعشرين سنةً، وهو قوله:

معاذَ بنَ مسلمٍ رجلٌ ضجَّ من طولِ عمره الأبدُ
شابَ رأسُ الزمانِ وأثوابُ عمرٍ جدد
واختضب ال
نسرَ لقمانَ كمَ تعيشُ تلبسُ ثوبَ الحياةِ يا لبد
أصبحتُ دارُ آدمَ خروئتُ فيه كأنك الوند
عربانها إذا حجلتُ يكونُ الصداغُ والرمد

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

وما تعلق بالسحاب من الغيم يشبه بالنعام، وما تراكبَ عليه يُشبهه بالنسور، قال الشاعر:

خليلي لا تستسلما وادعوا كلُّ أمر أن يصبَ ربيعُ
لبلاذٍ أنفذ المحلُّ عودها لعظم في شظاه صدوعُ
بمنتصر غرَّ النشاص كأنها عليهنَّ النسورُ وقوعُ
عسى أن يحلَّ جزعاً وإنها النوى بالطاعنينَ تربعُ
وشبهه العجير السلوليُّ شيوخاً على باب بعض الملوك بالنسور، فقال:

فمنهن إسادي على ضوء من عمانيّ النجوم نظيرُ
كوكبٍ ومنهن قرعي كلَّ بابٍ كأتملقومٍ يزجون الأذين نسورُ
قطنٍ يستخرج القلبَ فوق أعواد السَّريرِ زئيرُ
طرْفُه
وذكرت امرأةً من هذيلٍ قتيلاً فقالت:

تمشى النسورُ إليه وهي لاهيةُ العذارى عليهنَّ
الجلابيبُ

تقول: هي آمنةٌ أن تُذعر.

ومدح بعض الشعراء عبد العزيز بن زُرارة الكلابيِّ فقال:

الكلابي الذي حلَّ بيته شخَابُ ماضِرٌ وصَبُوحٌ
ومكسورةٌ حمُرٌ كأنَّ مُتونها إلى جنْبِ الخوانِ جُنُوحٌ
مكسورة: يعني وسائدٌ مثنية، وقال ابن ميادة:

وَرَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ شَيْخاً أَرَبَّ كَأَنَّهُ تَسْرُ
وعصره
وقال طرفة:

منعَنَ مَنَابِتَ الضِّ إِذْ منع النسر
وفي كتاب كليلة ودمنة: وكُنْ كالنَّسْرِ حَوْلَهُ الجيفُ، ولا تكنْ كالجيفِ حولها النسر، فاعترض
على ترجمة ابن المقفَّع بعض المتكلمين من فتيان الكتاب فقال: إنما كان ينبغي أن يقول: كُنْ
كالصُّرسِ حُفَّ بالثَّخَفِ، ولا تكنْ كالهبرة تطيف بها الأكلة أطنه أراد الصُّروس فقال الصُّرس،
وهذا من الاعتراض عجب.

ويوصف النسر بشدَّة الارتفاع، حتَّى ألحقوه بالأنوق، وهي الرَّخمة.

وقال عدِيُّ بن زيد:

عَلِيَاءَ لَا يُنَالُ دُرَاهَا النَّسْرُ دُونَهَا وَالْأَنُوقُ
وأُشِدُوا فِي ذَلِكَ:

الدَّناءةِ فِي مَجَالِسِهِمْ لِطَيْشِ الْعوراءِ وَالهدْرِ
يَدْنُونَ مَا سألُوا وَإِنْ سألُوا مَعَ الْعَيُوقِ وَالنَّسْرِ
وقال زيد بن يَشْر التُّغَلبي، في قتل عمير بن الحباب:

يَجُوزَنَّ أَرْضَنَا مُصْرِيٌّ وَلَا بغيرِ خَفيرِ
طَحَنَتْ تَغْلِبُ هُوَازِنَ طَحَنُوا لَحَّتْ عَلَيَّ بَنِي مَنْصُورِ
تَرْدِي الكِماءُ حَوْلَ عَمِيْرَ لَانَ النسرِ حَوْلَ جَرُورِ
وقال جميل:

صائِبٌ مِنْ نابلٍ قذفتْ بِوَمَمْرٍ العِقدتينِ وَثيقُ
من خِوافي النسرِ وَهَلْ كَنَصَلِ الزاعِبِ

نبعة زوراءَ أما
خطامها
وأما عودها فعتيق
بأوشك قتلاً منك يومَ
لم تظهروا لها

رمىتنى
أر حرباً يا بثين
خروق
تكشف غماها وأنت
كحربنا
صديق
مسالمة النسر للضبع وأما قوله:

يُسالم الضَّبْعُ بذي مِرَّةٍ في الرَّحِمِ العُمُرُ
لأنَّ النَّسْرَ طَيْرٌ ثَقِيلٌ، عَظِيمٌ شَرِيهُ رَغِيبٌ نَهْمٌ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى
الجيفة وتَمَلَّأَ لم يَسْتَطِعِ الطَّيْرانَ حَتَّى يَثْبُ وَيَثَابِ، ثُمَّ يَدورُ حَوْلَ
مَسْقَطِهِ مِراراً، وَيَسْقُطُ فِي ذَلِكَ، فلا يَزالُ يَرَفَعُ نَفْسَهُ طَبَقَةً
طَبَقَةً فِي الهِواءِ حَتَّى يُدْخِلَ تَحْتَهُ الرِّيحَ، فَكُلُّهُ مِنْ صادِفِهِ وَقَدْ
بَطِنَ وَتَمَلَّأَ، ضَرِبَهُ إِنْ شاءَ بَعْصاً، وَإِنْ شاءَ بِحَجَرٍ، حَتَّى رُبَّمَا
اصْطادَهُ الضَّعِيفَ مِنَ النَّاسِ.

وهو مع ذلك يشارك الضَّبْعَ فِي فَرِيسَةِ الضَّبْعِ، ولا يَثْبُ عَلَيْهِ، مع
مَعْرِفَتِهِ بِعَجْزِهِ عَنِ الطَّيْرانِ، وَزَعَمَ أَنَّ ثِقَتَهُ بِطُولِ العَمْرِ هُوَ
الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى ذَلِكَ.

ستطراد لغوي

ويقال: هوت العُقاب تهوي هُويّاً: إِذا انْقَصَّتْ عَلَى صَيْدٍ أَوْ غَيْرِهِ ما لَمْ تَرِغِهِ، فَإِذا أَراعَتْهُ قِيلَ
أهوت له إهواءً، وإلهواءً أيضاً التَّنالُ بِاليدِ، والإِراغَةُ أَنْ يذْهَبَ بِالصَّيْدِ هَكَذا وَهَكَذا.
ويقال دَوَّمِ الطَّائِرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ، وَهُوَ يَدَوِّمُ تَدْوِماً: إِذا دارَ فِي السَّمَاءِ وَلا يَحْرِكُ جَناحِيهِ.
ويقال نَسَرَهُ بِالْمِئْسَرِ، وَقَالَ العَجَّاجُ:

شاكى الكلابىب إذا أهوى ظَفَرَ الرُّؤوس منها أو نَسَرَ

والنسر ذو منسر، وليس بذي مخلب، وإنما له أظفار كأظفار الدجاج.

وليس له سلاح، إنما يقوى بقوة بدنه وعظمه، وهو سيع لئيم عديم السلاح، وليس من أحرار الطير وعناقها.

عناق الطير بالحمرة

ويقال إنَّ عناق الطير تنقضُّ على عُمود الرِّجل وعلى الطَّنفسة والنمرق فتحسبه لحمته لِحماً، وهم مع ذلك يصفونها بحدَّة البصر ولا أدري كيف ذلك.

وقال غيلان بن سلمة:

الآل يخفضُها ويرفَعُها كأنَّ متوتَّه السَّحلُ
ورَقُماً ثمَّ أردفه على ألوانها الحَمْلُ
الرُّعافِ على مآزرها وكأَنَّهنَّ ضوامراً إجْلُ

وهذا الشعر عندنا للمسَيِّب بن علس وقال علقمة بن عبدة:

الإماءُ جمالَ الحيِّ بالتَّزيدياتِ مَعكُومُ
فاحتملوا

ورَقُماً يظلُّ الطَّيْرُ يتبعُه من دمِ الأجوافِ مَدْمُومُ

شعر في العقاب وقال الهذلي:

عَدَوْتُ وصاحبي وحشيَّةُ الرِّداءِ بصيرُهُ بالمشرفِ
أتيتُ إلى فراشِ عزيبيِّدَاءِ، رَوْتُهُ أنفها كالمِخْصَفِ

يعني عقاباً، وقوله: بصيرة بالمشرف يريد الرِّيح من أشرف لها أصابته.

وقال الآخر في شبيهه بهذا:

أتكُمُ هذه فتلبَّسُوا الرِّماحِ بصيرُهُ بالحاسِرِ

وقال آخر:

إذْ عَدَوَا صَمْنَتْ بَرِّي العِقبانِ خائتَه طَلُوبا
جريمةَ ناهضٍ في رأسِ نيقٍ لعِظامٍ ما جمعتُ صليبا

وقال طفيل الغنوي:

كعِقبانِ الشُّريفِ رجاله تَوَّوا إحداثَ أمرٍ مُعْطَبِ

أي أمهلوا، وقال دُرَيْد:

تعلتُ بالَشِطَاءِ إِذْ بَانَ امرئٌ قد بَانَ إِذْ بَانَ
صاحبي صاحبه
وبزى فوقَ فتخاءٍ لقوفاهضُ في وكرها لا تجانبه
فباتتُ عليه ينفضُ الطلَّ تراقبُ ليلاً ما تغورُ كواكبه
ريشها
تجلى الليلُ عنها تنفضُ حسرى عن أحصي
وأسفرتُ مناكبه
ثعلباً من حرِّه فهوتُ حرِّه والموتُ عجلانُ
كاربه
قتيلاً واستمر بسحوب القلب يدمى أنفه وترائبه
جفاء العقاب زعم صاحبُ المنطق أنه ليس شيءٌ في الطير
أجفى لفراخه من العقاب وأنه لا بدُّ من أن يُخرَجَ واحداً، وربما
طردهنَّ جميعاً حتى يجيء طائرٌ يسمَّى كاسر العظام فيتكفل
به.

ودريدُ بن الصَّمَّة يقول:

وبزى فوق فتخاءٍ لقوفاهضُ في وكرها لا تجانبه
ما يعتري العقاب عند الشيع وقد يعتري العقاب، عند شبعها من لحم الصَّيد، شبيهٌ بالذي
ذكرنا في النسْر، وأنشد أبو صالح مسعود بن قُند، لبعض القيسيِّين:

الطَّير بعد اليأس زيدٌ بوخفاء قفرٍ ما يدبُّ عُقابُها
فأصبحتُ
يتخطى الفحلَ زيدٌ العزمسَ الوجناء قد شقَّ
بسيفه

قيل مهلاً إنه شدنيَّةُ أقران الجبال جذابها
خبر أنه يعتري العقاب من الثقل عند الطيران، من البطنة، ما يعتري النسْر.

شعر في العقاب وقال امرؤ القيس - إن كان قاله :-

حين فاض الماءُ لاح لها بالقفرة الذيبُ

واحتملتُ
 فأبصرت شخصه من فوقِ
 مرقبةً
 فأقبلتُ نحوه في الجوّ
 من هوى اللوح تصويب
 كاسرةً
 عليه ولم تنصب من الشقاء على الأشقين
 مصبوبُ
 كالدلو بتت عراها وهي
 خانها وذم منها وتكريب
 مثقلةً
 كالتي في هواء الجوّ
 كهذا الذي في الأرض
 طالبةً
 كالبرق والريح مرآتهما
 في اجتهاد على الإصرار
 عجبُ
 فأنسل من تحتها والدفُّ
 فأدركته فنالته مخالبتها
 منقوب
 بالصخر منها بعد ما
 ومنه على الصخر
 فترت
 الشابيب
 استغاثت بمتن الأرض وباللسان وبالشدقين
 تتريب
 تعفره
 أخطأته المنايا قيسَ
 تحرر إلا وهو مكتوب
 أنملةً
 ويرقب الليل إنَّ الليلَ
 منجحراً منها يراقبها
 محبوب

وقال زهير:

أفلاذها في كلِّ منزلةٍ أعينها العقبانُ والرَّحْمُ

تنخ: أي تنزع وتستخرج، والعرب تسمي المنقاش المنتاخ.

ويقال: نقت الرَّحْمُ تنقُّ نقيفاً، وأنشد أبو الجراح:

من سماع الدَّلِّ وعِرٍ تَقِيْقُهُنَّ نَقِيْقُ رُحْمٍ

والنقيق مشترك، يقال: نق الصغد ينق نقيفاً.

ويقال: أعز من الأبلق العفوق، و: أبعُد من بيض الأنوق.

فأما بيض الأنوق فربما رئي، وذلك أنّ الرّخم تختارُ أعاليّ الجبال، وصدوّع الصّخر، والمواضع الوحشيّة، وأما الأبلق فلا يكون عقوقاً، وأما العقوق البلقاء فهو مثلٌ، وقال:

ذكرناكِ أن مرّتُ أمامَ ركابنا ^{الأذم} مخماص العشيِّ
ستلوبٌ عليها تنفضُ الرّيشَ براثيها وراحيهنّ خصبُ
خداريّة صفعاء دُون فراخها الطّودِ فأوُّ بينها ولهوبُ
القائصِ المحرومِ أبٍ ولم مطعمُهُ جُنحَ الظلامِ تصيبُ
فأصبحت بعد الطير ما دون قام فوق المنصيتين
خطيبُ

وقال بشرٌ بن أبي خازم:

صِدْعٌ بِخَيْبَةٍ أَوْ بَشْرَقٍ زَلَقٌ زُمَالِقَ ذِي كَهَافِ
اللَّفْوَةِ الشَّعْوَاءِ عَنْهُمْ خَالِبُهَا كَأَطْرَافِ الْأَشَافِي

وقال بشرٌ أيضاً:

تداركَ لحمي بعدَ ما النَّسْرُ فَتخاءُ الجناحِ
خَلَقْتُ بِهِ قَبوضُ
تجعلُ النّعماءَ منك
تمامةً ونُعماكِ نعمى لا تزال
تفيضُ

لكِ في قومي يدُ وأيدي النّدى في
يشكرونها الصالحين قروض

وعلى شبيهِ بهذا البيت الآخر، قال الحطيئة:

يفعلُ الخيرَ لا يَعدَمُ يذهبُ العُزْفُ بينَ اللّهِ
جوازيه والنّاسِ

وقال عقيل بن العرنديس:

لقرطاسٍ يؤدّي رسالةً نفساً كيف حان دُهلها
كفرخ النَّسْرِ مُهدِّدٌ بكمُلفّةِ الأفنانِ حيلٌ مقيلاً
التمساحِ والسّمكِ وأما قوله:

وَتَمْسُخُ حَلَلُهُ طَائِرٌ وَسَابِغٌ لَيْسَ لَهُ سَخْرٌ

فالتمساح مختلف الأسنان، فينشب فيه اللحم، فيغممه فينتن عليه، وقد جعل في طبعه أن يخرج عند ذلك إلى الشط، ويشحا فاه لطائر يعرفه بعينه، يقال إنه طائر صغير أرقط مليح، فيجيء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقره بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم، فيكون غذاءً له ومعاشاً، ويكون تخفيفاً عن التمساح وترفيهاً، فالطائر الصغير يأتي ما هنالك يلتمس ذلك الطعم، والتمساح يتعرّض له، لمعرفة ذلك منه.

وأما قوله: وسابغ ليس له سخر، فإن السمك كله لا رئة له، قالوا: وإنما تكون الرئة لمن يتنفس، هذا، وهم يرون منخري السمك، والخرق النافذ في مكان الأنف منه، ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء أن ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين، ولكنه تنفس جميع البدن.

العث والحفات وأما قوله:

وَالْعُثُّ وَالْحُقَّاتُ ذُو نَفْحَةٍ وَخَرْنَقٌ يَسْفِدُهُ وَبُرٌّ

فإن الحُقَّات دابة تشبه الحية وليست بحيّة، وله وعيدٌ شديدٌ، ونفخٌ وتوتّبٌ، ومن لم يعرفه كان له أشدّ هيبَةً منه للأفاعي والتّعايين، وهو لا يضربُ بقليل ولا كثير، والحيات تقتله، وأنشد:

أَيْفَايْشُونَ وَقَدْ رَأَوْا حُقَّاتَهُمْ عَصَّهُ فَقَضَى عَلَيْهِ الْأَسْوَدُ

والعث: دويبة تقرض كل شيء، وليس له خطرٌ ولا قوّة ولا بدن.

قال الرّاجز:

يَحْتُنِّي وَرَدَانُ أَيَّ حَيْتٍ يَحْتُّ مِنْ كَبِيرِ عَتِّ
مِثْلُ إِهَابِ الْعُتِّ

وأنشد:

قَدْ وَكَلْتُ إِلَيْهِ أَهْلِي إِلَّاهُ وَاجْتِيحَ الْحَرِيمُ
لَاهِي بِهِ طَرْفٌ فَيُوحِي صَكُّ إِذَا ذَكَرَ الْقَضِيمُ

وأنشد آخر:

تَشْتَمُونَا عَلَى لُؤْمِكُمْ يَقْرُضُ الْعُتُّ مُلْسَ الْأَدِيمِ

وقالوا في الحُقَّات، هجا الكروبي أخاه فقال:

حُبَارِي فِي اللَّقَاءِ إِذَا التَّقِينَا حُقَّاتُ إِذَا اجْتَمَعَ الْفَرِيقُ

وقال أعرابي:

ولستُ بحفّاتٍ يُطاولُ شخْصَهُ نَفْحَ الكيرِ وهو لئيمٌ

وقع بين رجلٍ من العرب ورجلٍ من الموالي كلامٌ، فأرى عليه المولى، وكان المولى فيه مَشَابَهُ من العرب والأعراب، فلم يشكَّ ذلك العربيُّ أن ذلك المولى عربيٌّ، وأنَّه وسط عشيرته، فانخزل عنه فلم يكلمه، فلما فارقه وصار إلى منزله علم أنه مولى، فبكر عليه غُدوةً، فلما رأى خِذْلانَ جلسائه له ذلٌّ واعتذر، فعند ذلك قال العربيُّ في كلمةٍ له:

أدْرِ ما الحفّاتُ حتّى نفض للأشخاصِ حتّى بلوئته تكشّفاً

وقد أدركتُ هذه القضية وكانت في البحرين، عند مسحر بن

السكن عندنا بالبصرة، فهو قوله: والعتّ والحفّات ذو نفخةٍ لأن الحفّات له نَفْحٌ وتوتُّبٌ، وهو ضخمٌ شنيعُ المنظر، فهو يهول من لا يعرفه. وكان أبو ديجونة مولى سليمان، يدّعي غاية الإقدام والشجاعة والصّرامة، فرأى حُفّاتاً وهو في طريق مكة، فوجده وقد قتله أعرابيٌّ، ورآه أبو ديجونة كيف ينفخ ويتوعّد، فلم يشكَّ إلا أنه أخبثُ من الأفعى ومن الثعبان، وأنه إذا أتى به أباه وادعى أنه قتله سيقضي له بقتل الأسد والبئر والنمر في نِقاب، فحمله وجاء به إلى أبيه وهو مع أصحابه، وقال: ما أنا اليوم إلا ذبخ وما ينبغي لمن أحسنَّ بنفسه مثل الذي أُجس أن يُرمى في المهالك والمعاطب، وينبغي أن يستبقها لجهادٍ أو دفعٍ عن حُرمةٍ وحريمٍ يذبُّ عنه وذلك أني هجمت على هذه

الحيّة، وقد منعت الرِّفاق من السُّلوك، وهربت منها الإبل،
وأمعنَ في الهرب عنه كلُّ جَمَالٍ ضخمِ الجزارة، فهزنتني إليه
طبيعة الأبطال، فراوغتها حتى وهب الله الظَّفَر، وكان من
البلاء أنها كانت بأرضٍ ملساء ما فيها حصاة، وبصُرْتُ بفهر
على قاب غلوة، فسعيت إليه - وأنا أسواؤ كما تعلمون - فو
الله ما أخطأ حاقَّ لهزمته حتى رزق الله عليه الظَّفَر، وأبوه
والقومُ ينظرون في وجهه، وهم أعلم النَّاسِ بضَعْفِ الحُقَّاتِ،
وأَنَّهُ لم يؤذ أحداً قط، فقال له أبوه: ارم بهذا من يدك، لعنك
الله ولعنه معك، ولعنَ تصديقي لك ما كنت تدَّعيه من
السَّجاعة والجرأة فكبروا عليه وسمّوه قاتل الأسد.
ومما هجوا به حين يشبّهون الرّجل بالعث، في لومه وصغر
قَدْرِهِ قول مُخارق الطائي، حيث يقول: ??? نقض صفحة
349 من الكتاب الوبر والخرنق وأما قوله:

وخرنقٌ يسفدُه وِبْرٌ

فإنَّ الأعراب يزعمون أنّ الوبر يشتهي سيفاد العكرشة - وهي أنثى الأرناب - ولكنّه يعجز
عنها، فإذا قدر على ولدها وتبَّ عليه، والأنثى تسمى العكرشة، والدَّكر هو الخُرر، والخرنق
ولدهما، قال الشاعر:

الإله عصابةٌ نادمُهم جَحَّحان إلى أسافلٍ

العِثاقُ وعَرَّضُوا
أحسابَهُمْ
لمَحَرَّبٍ ذَكَرِ الحديدِ مُعَرِّقِ
قرعتُ صَفاتِكُمْ
فوجدتُكم
مُتَشَبِّهينَ بزاحفٍ متعلِّقِ
عَمَزْتُ قناتِكُمْ فوجدتُهمُ عطاءً مَكْسِئُها كعودٍ محرقِ
قَبِضْتُ بقلبي سَلْمَةً العُقابِ على فؤادِ
قَبِضَةً الخِرْنِقِ
اقتَحَمْتُ لِلحَمهِ فأكلتهِ وكرِ مرتفعِ الجَنابِ معلِّقِ
قالوا: إنه قالها أبو حبيب بعد أن قال جُسَمُ ما قال، وقد قدَّم إليه طعامه.

مايشبه الخرز ووصف أعرابيُّ خُلِقَ أعرابيُّ فقال: كأن في عَصَلته خُرْزاً، وكأنَّ في عضده جُرْداً.

وأنشدوا لماتِحٍ ووصفَ ماتِحاً، ورآه يستقي على بئرِهِ، فقال:

أعدَدْتُ للوردِ إذ الوردُ حَفِرُ جَرُوراً وَجَلالاً خُرْزُ
وما تِحاً لا يَنْتَني إذا احتَجِرُ تحتَ جِلدِهِ إذا احتَفِرُ
كلُّ عَضو جُرْذِينِ أو خُرْزُ
وسنقول في الأرنب بما يحضرننا إن شاء الله تعالى.

القول في الأرنب قال الشاعر:

رَعَمَتْ عُدانةُ أن فيها سَيِّطَخِماً يوازِنه جَناحُ الجَنْدِ
ما يُروِي الدُّبابَ سُكراً وَيُشِيعه كِراعُ الأرنبِ
فِينتَشي

وإنما ذَكَرَ كِراعَ الأرنبِ من بين جميع الكِراعاتِ لأنَّ الأرنبَ هي الموصوفة بقصر الدُّراعِ وقصر اليدِ، ولم يُرد الكُراعُ فقط، وإنما أراد اليدَ بأسرها، وإنما جعل ذلك لها بسببِ نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

والفرس يُوصف بقصر الدُّراعِ فقط.

التوبير

والتَّوبير لِكَلِّ مَحْتَالٍ مِنْ صِغَارِ السَّبَاعِ، إِذَا طَمِعَ فِي الصَّيْدِ أَوْ خَافَ أَنْ يُصَادَ، كَالْتُّعَلْبِ، وَعِنَاقُ الْأَرْضِ هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا التُّفَّةُ، وَهِيَ دَابَّةٌ نَحْوَ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ، تَصِيدُ صَيْدًا حَسَنًا، وَرَبَّمَا وَاثَبَ الْإِنْسَانُ فَعَقَّرَهُ، وَهُوَ أَحْسَنُ صَيْدًا مِنَ الْكَلْبِ. وَفِي أَمْثَالِهِمْ: لَأَنْتَ أَغْنَى مِنَ التُّفَّةِ عَنِ الرَّفَّةِ، وَهُوَ التَّبْنُ الَّذِي تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَالْمَاشِيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ، وَالتُّفَّةُ سَبْعُ خَالِصٍ لَا يَأْكُلُ إِلَّا اللَّحْمَ.

والتَّوبير: أَنْ تَضُمَّ بَرَائِثَهَا فَلَا تَطَأَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِبَطْنِ الْكَفِّ، حَتَّى لَا يُرَى لَهَا أَثَرُ بَرَائِثٍ وَأَصَابِعِ، وَبَعْضُهَا يَطَأُ عَلَى زَمْعَاتِهِ، وَبَعْضُهَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي السَّهْلِ، فَإِذَا أَخَذَتْ فِي الْحُزُونَةِ وَالصَّلَابَةِ، وَارْتَفَعَتْ عَنِ السَّهْلِ حَيْثُ لَا تُرَى لَهَا آثَارٌ - قَالُوا: ظَلَفَتْ الْأَثَرَ تَظْلِفُهُ ظُلْفًا، وَقَالَ التُّمَيْرِيُّ: أَظْلَفَتْ الْأَثَرَ إِظْلَافًا.

بعض ما قيل في الأرنب وعن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب.

ويقال حذفته بالعصا كما تُحذف الأرنب.

وقال أبو الوجيه العُكلي: لو كانت والله الضبّة دجاجةً لكانت الأرنب دُرّاجة، ذهب إلى أنّ الأرنب والدُّرّاج لا تستحيل لحومها ولا تنقلبُ شحوماً، وإّما سَمَنها بكثرة اللحم، وذهب إلى ما يقول المعجبون منهم بلحم الضبّ؛ فإنّهم يزعمون أنّ الطعمين متشابهان، وأنشد:

لو دُفّت الكشي بالأكبائرُكَّت الضبّ يسعى بالواد
قال: والضبّ يعرض لبيض الظلّيم؛ ولذلك قال الحجاج لأهل

الشّام: إنّما أنا لكم كالظلّيم الرّامح عن فراخه، ينفي عنها المدّر، ويباعدُ عنها الحجر، ويكئّها من المطر، ويحميها من الضّبّاب، وبحرّسُها من الذئاب، يا أهلَ الشّام أنتم الجنّة والرّداء، وأنتم العُدّة والحذاء.

ما يشبه بالأرنب

ثم رجع بنا القول إلى الأرنب، فمما في الخيل مما يُشبه الأرنب قول الأعشى:

إذا استقبلته فكأنّه ^{مشدّب} سَمَا فوق النّخيل
تصفحه القوارسُ مُعْرِضاً ^{المتنصّب} فتقولُ سِرْحَانُ العَصَا
إذا استدبرته فتسوقه يُقَمِّضُها وظيفُ أَدَبُ

وجاعرةٌ كأنَّ حَمَاتِهَا
كشَطَتْ مَكَانَ الْجَلِّ عَنْهَا

وقال عبد الرَّحْمَنِ بن حَسَّان:

حَمَاتَيْهِمَا أَرْتَبَا
غِيضَتَا خَيْفَةَ الْأَجْدَلِ

طول عمر الأغصف والأرنب

وأنشد الأثرم:

بَأَعْصَفَ الْأُذُنِ الطَّوِيلِ العولرب الخُلَّةِ تَلُو الدَّهْرَ

قد سمعتُ من يذكر أنَّ كَثِيرَ أذنِ الإنسانِ دليلٌ على طُولِ عمره، حتَّى زَعَمُوا أنَّ شيخاً من الرِّزَاقِة، لعنهم اللهُ تعالى، قدَّموه لئُضْرِبَ عنقُه فَعَدَا إليه غلامٌ سعديٌّ كان له، فقال: أليسَ قد زعمتَ يا مولايَ أنَّ من طالت أذُنُه طال عمره؟ قال: بلى قال: فهاهم يقتلونك قال: إنما قلت: إن تركوه.

وأنا لا أعرف ما قال الأثرم، ولا سمعتُ شِعراً حديثاً ولا قديماً يُخبرُ عن طول عُمر الأرنب، قال الشَّاعر:

في قَدْحِ نَبْعِ حادِرِ تَسْقَى دَمَ الجوفِ لظفرِ قاصِرِ
تزال أرنبٌ أو فادِرُ كروانٌ أو حُبَّارِي حاسِرِ
حمارٌ أو أتان عاقِرُ

لبن الأرنب

قال: ويزعمون أنه ليس شيءٌ من الوحش، في مثل جسم الأرنب أقلُّ لبناً ودُّوراً على ولديِّ منها، ولذلك يُضْرَبُ بدُرِّها المثل، فممن قال في ذلك عمرو بن قَمِيئة، حيث يقول:

بالمطعم الأرنبِ إذ قلَّ دُرُّ اللِّقَاحِ في الصَّنْبَرِ
ورأيت الإماء كالجعثن الباءِ عُكوفاً على قُرارةِ قَدْرِ
ورأيت الدُّخَانَ كالودع الأه يَنبَاعُ من وراءِ السِّتْرِ
حاضرٌ شرُّكمُ وخَيْرُكمُ دَ خُرَيْسٍ من الأرنابِ بِكْرِ

قصر يدي الأرنب

والأرنب قصير اليدين، فلذلك يخفُّ عليه الصَّعْداء والتَّوَقُّل في الجبال، وعَرَف أنَّ ذلك سهلٌ عليه، فصَرَفُ بعضِ حِيله إلى ذلك، عند إرهاب الكلابِ إيَّاه، ولذلك يعجَبون بكلِّ كلبٍ قصير اليدين، لأنه إذا كان كذلك كان أجدر أن يلحقها.

من أعاجيب الأرنب

وفي الأرنب من العجب أنها تحيض، وأنها لا تسمن، وأن قضيب الخُزْرِ ربَّما كان من عظمٍ، على صورة قضيب الثَّعلب. ومن أعاجيبها أنَّها تنام مفتوحة العين، فربَّما جاء الأعرابيُّ حتَّى يأخذها من تلقاء وجهها، ثقةً منه بأنَّها لا تبصر. وتقول العرب: هذه أرنبٌ، كما يقولون: هذه عُقاب ولا يذكَّرون، وفيها التَّوبير الذي ليس لشيءٍ من الدوابِّ التي تحتال بذلك، صائدةً كانت أو مصيدةً، وهو الوطء على مؤخر القوائم، كي لا تعرف الكلابُ آثارها، وليس يعرفُ ذلك من الكلابِ إلَّا الماهر، وإنَّما تفعل ذلك في الأرض اللَّيِّنة، وإذا فعلت ذلك لم تسرع في الهَرَب، وإن خافت أن تدرك انحرفت إلى الحُزونة والصَّلابة،

وإنما تستعمل التَّوْبِير قبل دنو الكلاب.

وليسَ لشيءٍ من الوَحْشِ، ممَّا يُوصَفُ بِقَصْرِ اليَدَيْنِ ما للأرنبِ
من السرعةِ، والفرسِ يوصَفُ بقصر الكُراعِ فقط.

تعليق في كعب الأرنب

وكانت العربُ في الجاهليَّة تقول: مَنْ عُلِقَ عليه كعبُ أرنبٍ لم تصبهُ عينٌ ولا نفسٌ ولا
سحر، وكانت عليه واقيةٌ؛ لأنَّ الجنَّ تهرب منها، وليست من مطاياها لمكان الحيز.
وقد قال في ذلك امرؤ القيس:

لا تَنكُحِي بُوهَةً عَقِيقَتُهُ أَحْسَبَا
مُرْسَعَةٌ بين أرساغه عَسَمُ يبتغي أرنبا
ليَجْعَلَ في يَدِهِ كَعْبَهَا المنيَّةُ أَنْ يَعْطَبَا
وفي الحديث: بكى حتَّى رسعت عينه مشدَّدةً وغير مشدَّدةً، أي
قد تغيَّرت، ورجلٌ مرسَّعٌ وامرأةٌ مرسَّعةٌ.

تعشير الخائف

وكانوا إذا دخل أحدهم قريةً من جنِّ أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشدَّ الخوف، إلا أن يقف على
باب القرية فيعشَّس كما يعشَّسُ الحماز في نهيقه، ويعلِّق عليه كعبَ أرنب، ولذلك قال قائلهم:

التَّعْشِيرُ في جَنْبِ جِزْمَةٍ عَدْعٌ يَغْنِي ولا كَعْبُ أَرْنَبِ
الجِرمَةُ: القطعة من النَّخْلِ، وقوله: دَعْدَعٌ كلمةٌ كانوا يقولونها عند العِثار، وقد قال الحادِّرة:

وَمَطِيَّةٌ كَلَّفْتُ رَحْلَ مَطِيَّةٍ تُنْمُ من العِثَارِ بَدْعَدَعِ
وقالت امرأةٌ من اليهود:

وليس لوالدةٍ نَفْئُها قَوْلُها لابنها دَعْدَعِ

تداري غراء أحواله
وقد قال عُورَة بن الوَرْد، في التَّعْشِير، حين دخل المدينة ف قيل له: إن لم تَعَشِّرْ هلكت فقال:

لَعْمَرِي لئنُ عَشَّرْتُ من خيفةِ نُهاقِ الحَميرِ إنَّني لَجَزوعُ

نفع الأرنب

وللأرنب جلدٌ وَوَبْرٌ يُنْتَفَعُ به، ولحمه طيبٌ؛ ولا سَيْمًا إنْ جُعِلَ مَحْشِيًّا؛ لأنَّه يجمعُ حُسْنَ المنظر، واستفادة العلم مما يرون من تدبيرها وتدبير الكلاب، والانتفاع بالجلد وبأكل اللحم، وما أقلَّ ما تجتمع هذه الأمورُ في شيءٍ من الطَّير. وأما قوله:

ابتَدَرَ النَّاسُ المعالي
بأيديهم مسوكُ الأرنبِ
رَأَيْتَهُمْ
فإنَّه هجَاهم بأنَّهم لا كسبَ لهم إلاَّ صيدُ الأرنبِ وبيع جلودها.
الخُلكاء وأما قوله:

وغائصُ في الرمل ذو حِدَّةٍ له نابٌ ولا ظْفِيرُ
فهذا الغائص هو الخلكاء، والخلكاء: دويبة تغوصُ في الرمل، كما يصنع الطائر الذي يسمَّى العَمَّاس في الماء، وقال ابن سُهيم في قصيدته التي قصَدَ فيها للغرائب:

والخُلكاء التي تَبْعَجُ في الرمل
شحمة الرمل وممَّا يغوصُ في الرَّمْل، ويسبح فيه سباحة السَّمكة في الماء، شحمة الرَّمْل، وهي شحمة الأرض، بيضاء حَسَنَةٌ يشبُّه بها كَفُّ المرأة، وقال ذو الرُّمَّة في تشبيه التبان بها:

خرا عيب أمثالُ كأنَّ بنائِها النقا تحفى مراراً وتظهرُ
وقال أبو سليمان العَتَوِي: هي أعرض من العظاءة بيضاء حسنة منقطة بحمرة وُصْفرة، وهي أحسنُ دوابِّ الأرض.

وتشبهه أيضاً أطرافُ البنانِ بالأساريع وبالغنم، إذا كانت مُطَرَّفة، وقال مرقش:

النَّشْرُ مسكٌ والوجوهُ دنا وأطراف الأكَفِّ عَنَمٌ

وصاحب البلاغة من العامة يقول: كأنَّ بَنانها البِيَّاح والدُّواج، ولها ذراعٌ كأنها سَبُّوطَةٌ.
ويشبهه أيضاً بالذَّمقس.

شعر فيه خرافة ومن خرافات أشعار الأعراب، يقول شاعره:

إلى الله العليِّ الأمجشائراً مثلَ فراخ السرهيدِ
عشائراً قد نَبَّفوا بَقَدَقِدِ ساقَهُم خبث الزمان الأنكدِ

حِرباءَ وكل جُدْجِدِ رام في الرِّمال يهْتدي
نَقَّاض القفا ملهَّد ينصبُ رَجَّليهِ حِذار المعتدي
وشحمة الأرض وقَرخ الهُدَّالْفَار واليَزْبوع ما لم يسقَدِ
فناهم ثاقبةٌ لم تحمُدِ أحناشٍ ولم تفرِّدِ
الحُبِين والعزاء الأجرِدِ يَسْري ما دنا بقدفِ
مقطوعِ العرا معلقِ ينالوه بعود أو يدِ
وأبصار سَعَالٍ جُهَّديغدون بالجهد وبالتشرِّدِ
وحَبَّوا مثل حَبِّو المُقَعَدِ
الحرباء وأما قوله:

حِرباؤها في قيظها شامِسُ يوافي وقته العَصْرُ
بالسَّقِّ إليها كما في رَوْصَتِهِ الرَّهْرُ

قال: والحِرباء دويبةٌ أعظم من العظاءة أعبُر ما كان فرخاً، ثم يصفُر، وإثما حيائه الحر، فتراه
أبداً إذا بدت جونة يعني الشَّمس، قد لجأ بظهره إلى جُذيل، فإن رمضت الأرض ارتفع، ثم هو
يقلِّب بوجهه أبداً مع الشَّمس حيث دارت، حتَّى تغرب، إلا أن يخاف شيئاً، ثم تراه سَابِحاً
بيدَيْه، كما رأيت من المصلوب، وكلما حميت عليه الشَّمس رأيت جلده قد يخضُر، وقد ذكره
ذو الرُّمة بذلك فقال:

بها الحِرباءُ للشَّمسِ الجِذِلِ إلا أَنَّهُ لا يكْبُرُ
ماتلاً حَوَّل الظلَّ العِشيَّ وفي قَرْن الضُّحَى
يَتَنَصَّرُ
أصْفَرَ الأَعلى وَرَاحَ كَأَنَّ
أخضُرُ

خضوع بعض الأحياء للشمس وكذا الجمل أيضاً يستقبل بهامته الشمس، إلا أنه لا يدور معها كيف دارت كما يفعل الحرباء، وشقائق النعمان والخيري يصنع ذلك، ويتفتح بالنهار، وينضم بالليل، والتيلوفر الذي ينبت في الماء يغيب كله ويظهر بالنهار، والسّمك الذي يقال له الكوسج، في جوفه شحمة طيبة، وهم يسمونها الكيد، فإن اصطادوا هذه السمكة ليلاً وجدوا هذه الشحمة فيها وافرّة، وإن اصطادوها نهاراً لم تُوجد، وقد ذكر الحطيئة دوران الثبات مع الشمس حيث يقول:

بمُستأسدِ القُريانِ حُوِّ تِلاعِهُ
فَنُوارُهُ مِيلُ إلى الشَّمسِ
زَاهِرُهُ

وقال ذو الرّمة:

جَعَلَ الحِرْبَاءُ يَغْبِرُ لَوُؤَيْخَضْرُ من لَفْحِ الهَجِيرِ عَباغِبُهُ
وَيَسْبُحُ بالكَفَّينِ شَبْحاً كَأَنَّهُ فَجْرَةٌ عَالِي بِهِ الجَدَعِ

وقال ذو الرّمة أيضاً:

وهاجرةٍ من دُونِ مَيَّةٍ لمقلوصي بها والجندبُ الجَوْنُ
جَعَلَ الحِرْبَاءُ مَمَّا أَصابَهُ الحَرُّ يَلْوِي رَأْسَهُ وَيَرْتَحُ

وقال آخر:

يَدِي حِرْبائِها مَتَشَمِّمَساً مُجْرِمٍ يَسْتَغْفِرُ اللهُ تائب

وقال آخر:

يَلْفَحُ الحِرْبَاءُ حَتَّى كَأَنَّهُ حَرَباتٍ بُرَّ تَوْبِيهِ شابِحُ

وأنشدوا:

لاحها يَوْمُ شَموسٍ مِلْهابِما لشمسه من جِلبابِ

الحَرابيُّ لَه بِالأذْناِبِ

الإكام من حِصاة

طِبْطاب

وقال العباس بن مرداس:

قُلصِي يعلو بها كلَّ
به الحِرْباءِ أنشط جالِسا

سَبَسَبِ

وقال الشّاعر:

تجاوزتُ والعُصفورُ في اللّصِّبِّ والشَّقْدَانُ تسمو صُدورُها

وقال أبو زَيْد:

واستكَّنَّ العُصفورُ كَرْهاً معَ وأوفى في عُودِهِ الحِرْباءُ

والشَّقْدَانُ: الحرابي، وقوله: تسمو أي ترتفع في الشجرة وعلى رأس العود، والواحد من الشَّقْدَانِ بإسكان القاف وكسر الشَّين شَقْدَ بتحريك القاف.

وأنشد:

إذا الحِرْباءُ مَدَّ بِكفِّهِ مَثيلَ الرَّاهِبِ المتعَبِّدِ
وذلك أنَّ الحِرْباءَ إذا انتصف النَّهارُ فعلا في رأسِ شجرةٍ صار كأنَّه
راهبٌ في صومعته.
وقال آخر:

أُتِيحَ لَكُمْ حِرْباءُ تَنْضِبَةٌ يَتْرُكُ السَّاقُ إِلَّا مُمَسَكاً

التشبهُ بالعرب قال: وكان مولى لأبي بكر الشَّيباني، فادَّعى

إلى العرب مِنْ ليلته فأصبح إلى الجُلوس في الشمس، قال:

قال لي محمد بن منصور: مررتُ به فإذا هو في ضاحيةٍ، وإذا

هويحكُ جلده بأظفاره خَمْشاً وهو يقول: إنما نحن إبل.

وقد كان قيل له مرّة: إِنَّكَ تتشَبَّه بالعرب، فقال: ألي يقال

هذا؟ أنا والله حِرْباءُ تَنْضِبَةٌ، يشهدُ لي سوادُ لوني، وشَعائتي،

وَعَوْرُ عينيَّ وَحُبي للشمس.

نفخ الحِرْباءُ والورل قال: والحِرْباءُ ربَّما رأى الإنسان فتوعَّده،

ونفخ وتطاول له حتَّى ربَّما فزع منه مَنْ لم يعرفه، وليس

عندَه شرٌّ ولا خير.

وأما الذي سمعناه من أصحابنا فإنَّ الورل السَّامد هو الذي يفعل ذلك، ولم أسمعُ بهذا في الجِرباء إلا من هذا الرجل. قال: والجِرباء أيضاً: المسمار الذي يكون في حلقة الدُّرع؛ وجمعه حرابي.

استدراك لما فات من ذكر الوبر وقد كنا غفلنا أن نذكر الوبر في البيت الأول، قال رجلٌ من بني تغلب:

رَجُوتَا ولِداً من ظَهْرِ جَاءَتْ بِهِ أسودَ مثلَ الوبرِ
بارد الأَدنى بعيدِ القَعْرِ

وقال مُخارقُ بنِ شهاب:

راكباً إمَّا عَرَضَتْ فبَلَّغْنِ فالج حيثُ استقرَّ قرارُها
إلينا لا تكونوا كَأَنَّكم أرض طار عنه وبارُها
وأرض التي أنتم لقيتم بجوِّها بها أوعالُها ومدارُها
فهجا هؤلاء بكثرة الوبار في أرضهم، ومدح هؤلاء بكثرة الوعول في جبلهم، وقال آخر:

يشتمُّني لا أبا لَكُمُ الثَّيابِ كطابخِ القِدرِ
تمطى في غيابه في المروءةِ ناقصِ الشَّبرِ
سوداءَ حنْظلةٍ والعاجزِ التَّدبيرِ كالوَبْرِ

ويصرب المثل بنثن الوبر؛ ولذلك يقول الشاعر:

وهي سبيته المَعْرَى الوبر تحسبُه مَلاباً
وتنن الوبر هو بول مما يتمازح به الأعراب، ومما يتمازح به الأعراب، فمن ذلك قول الشاعر:

هدَمَ الصَّفدُعُ بيتَ الفارهِ الرُّبِيَّةِ والوِبَارَةَ
يَشُدُّ بِالْحِجارِ

وهذا مثلٌ قولهم:

اختلط النّقد على الجعلانُ بقي دريهمٌ وثلاثانُ

الظّربان وأما قوله:

والظّربانُ الورْدُ قد شقّه
منه الضّبُّ مذلولياً
وليس يُنجيه إذا ما فسّا
نجا أهلّكه الذّعْرُ
ولَوْ أَحْرَزَهُ قَصْرُ

قال أبو سليمان الغنويُّ: الظّربانُ أخبثُ دابّةٍ في الأرض وأهلّكه لفراخ الصّبّة.

قال: فسألت زيدَ بن كَنّوَة عن ذلك فقال: إي والله وللصّبِّ الكبير.

والظّربان دابّة فسّاءة لا يقوم لسرّ فسوها شيءٌ، قلت: فكيف يأخذها؟ قال: يأتي جُحر الصّبِّ، وهو باباه يستروح، فإذا وجد الصّبُّ ريح فسّوه دخل هارباً في جُحره، ومَرَّ هو معه من فوق الجُحر مستمعاً حَرَسَه، وقد أصغى بإحدى أذنيه من فوق الأرض نحو صوته - وهو أسمع دابّةٍ في الأرض - فإذا بلغ الصّبُّ منتهاه، وصار إلى أقصى جُحره وكفَّ حَرَسَه استدبّر جُحره، ثم يَفْسُو عليه من ذلك الموضع - وهو متى شمّه عُشِيَ عليه - فيأخذه.

قال: والظّربان واحدٌ، والظّربان: الجميع، مثل الكَرّوان للواحد والكِرّوان للجمع، وأنشد قولَ ذي الرّمة:

آل أبي موسى ترى القومَ الكِرّوان أبصّرُن بازيّا

والعامّة لا تشكُّ في أنّ الكَرّوان ابنُ الحُبّاري؛ لقول الشاعر:

تَر أنّ الرّبْد بالثّمْرِ طيّبُ الحُبّاري خالهُ الكَرّوان
وقال غيره: الظّربان يكونُ على خلقة هذا الكلب الصّينيّ، وهو
منتنٌ جدّاً، يدخل في جُحر الضّبِّ فيفسو عليه، فينتن عليه بيته،
حتى يُذلق الضّبُّ من بيته، فيصيده.
والصّبّاب الدلالي أيضاً، التي يدخُل عليها السّيلُ فيخرجها، وأنشد:

ظّرباناً يتعشّي صّبّاً
عُقاب فَوْقه فخبّاً
حُصيّه إذا أكبّا
فَرُّوجتان تطلبان حَبّاً
تَعَلبان يَحْفِزان صّبّاً

وأنشد الفرزدق:

سليمٌ قَدْ عَرَفْنَا
بجيريّ قصيرٌ قوائمُهُ
مكانه

يجعل الظربى القصار رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ
ظُهُورُهَا رِعَائِمُهُ
سلاح بعض الحيوان قال: والظربان يعلم أنّ سلاحه في

فسائه، ليس شيءٌ عنده سواه، والحبارى تعلم أنّ سلاحها في
سَلْحِهَا ليس لها شيءٌ سواه، قال: ولها في جوفها خِزانَةٌ لها
فيها أبدأ رَجْعٌ مُعَدٌّ فإذا احتاجت إليه وأمكنها الاستعمال
استعملته، وهي تعلم أنّ ذلك وقايةٌ لها، وتعرف مع ذلك شِدَّةَ
لَرْجِهَا، وخبث تَنِينِهَا، وتعلم أنّها تساور بذلك الرُّرْقَ، وأنها تُثقله
فلا يصيد.

ويعلم الدّيك أنّ سلاحه في صيبيته، ويعلم أنّ له سلاحاً،
ويعلم أنّه تلك الشوكة، ويدري لأيّ مكانٍ يعتلج، وأيّ موضعٍ
يطعن به.

والقنافذ تعلم أنّ فروتها جَنَّةٌ وأنّ شوك جلدِها وقايةٌ، فما كان
منها مثل الدُّلدل ذوات المداري فإنها ترمي فلا تُخْطئ، حتى
يمرّ مُرُورَ السهم المُسَدَّد، وإن كانت من صغارها قبضت على
الأفعى وهي واثقةٌ بأنّه ليس في طاقة الأفعى لها من المكروه
شيء، ومتى قبضت على رأس الأفعى فالخطب فيها يسير،

وإن قبضت على الذئب أدخلت رأسها فقرضتها وأكلتها أكلاً،
وأمكنتها من جسمها، تصنع ما شاءت؛ ثقةً منها بأنه لا يصل
إليها بوجهٍ من الوجوه.

والأجناس التي تأكل الحيات: القنأذ، والخنازير، والعقبان،
والسنانير، والشاهمرك، على أن النّسور والشاهمرك لا
يتعرّضان للكبار.

ويعلم الزنبور أن سلاحه في شَعْرته فقط، كما تعلم العقربُ
أن سلاحها في إبرتها فقط، وتعلم الدّبان والبعوضُ والقملة،
أن سلاحها في خراطيمها، وتعلم جوارح الطير أن سلاحها في
مخالبها، ويعلم الدّئبُ والكلبُ أنّ سلاحهما في أشداقهما
فقط، ويعلم الخنزير والأفعى أنّ سلاحهما في أنيابهما فقط.
ويعلم الثور أنّ سلاحه قرْنُه، لا سلاح له غيره، فإن لم يجد
الثور والكبشُ والبيسُ قروناً، وكانت جُمّاً، استعملت باضطرارٍ
مواضع القرون.

والبرذون يستعمل فمه وحافر رجله.

ويعلم التمساح أنّ أحد أسلحته وأعوّتها دَنْبُه، ولذلك لا يعرض
إلا لمن وجده على الشريعة؛ فإنه يضربه ويجمعه إليه حتى

يُلْقِيهِ فِي الْمَاءِ.

وَذَتَبَ الضَّبُّ أَنْفَعَ مِنْ بَرَاثَتِهِ.

لُجُوءُ بَعْضِ الْحَيَوَانَ إِلَى الْخَبْثِ وَإِنَّمَا تَفْزَعُ هَذِهِ الْأَجْنَاسُ إِلَى الْخُبْثِ، وَإِلَى مَا فِي طَبْعِهَا مِنْ شِدَّةِ الْحُضْرِ إِذَا عَدِمَتِ السَّلَاحَ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَسْتَعْمَلُ الْحَيَلَةَ: مِثْلَ الْقُنْفُذِ فِي إِمْكَانِ عَدُوِّهِ مِنْ فِرْوَتِهِ، وَمِثْلَ الظُّبِيِّ وَاسْتِعْمَالِ الْحُضْرِ فِي الْمَسْتَوِيِّ، وَمِثْلَ الْأَرْنَبِ وَاسْتِعْمَالِهِ الْحُضْرِ فِي الصَّعْدَاءِ.

وَإِذَا كَانَ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ إِلَى سِلَاحِهِ وَلَا إِلَى خَبْثِهِ كَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ حُضْرًا سَاعَةَ الْهَرَبِ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا يُمْكِنُ الْحُضْرُ وَيَقْطَعُهُ الْجَبْنَ، فَلَا يَبْرَحُ حَتَّى يَأْخُذَ. مَا يَقْطَعُهُ الْجَبْنَ مِنَ الْحَيَوَانَ وَإِنَّمَا تَتَقَرَّبُ الشَّاةُ بِالْمَتَابَعَةِ وَالانْقِيَادِ لِلسَّبْعِ، تَظُنُّ أَنْ ذَلِكَ مِمَّا يَنْفَعُهَا؛ فَإِنَّ الْأَسَدَ إِذَا أَخَذَ الشَّاةَ وَلَمْ تَتَابَعَهُ، وَلَمْ تَعْنَهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَرَبَّمَا اضْطُرَّ الْأَسَدُ إِلَى أَنْ يَجْرَّهَا إِلَى عَرِينِهِ، وَإِذَا أَخَذَهَا الذَّنْبُ عَدَتْ مَعَهُ حَتَّى لَا يَكُونَ عَلَيْهِ فِيهَا مَوْؤُونَةٌ، وَهُوَ إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَنْحِيَهَا عَنِ الرَّاعِي وَالْكَلْبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُنَاكَ كَلْبٌ وَلَا رَاعٍ، فَيَرَى أَنْ يَجْرِي عَلَى عَادَتِهِ.

وكذلك الدجاج إذا كُنَّ وُقِعَا على أغصان الشجر، أو على
الرُفوف، فلو مرَّ تحتها كلُّ كلبٍ، وكلُّ سُّور، وكلُّ تَعَلب، وكلُّ
شيءٍ يطالبها، فإذا مرَّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدةٌ إلا
رمت بنفسها إليه، لأنَّ الدَّئب هو المقصود به إلى طباع الشاة،
وكذلك شأنُ ابن آوى والدجاج، يخيلُ إليها أن ذلك مما ينفع
عنده، وللجبن تفعل كلُّ هذا.

ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد؛ ليُخضر ببدنه،
يظنُّ اجتهاده أنجى له، وأتته إذا كان على ظهر الفرس أقلُّ
كَدًّا، وأنَّ ذلك أقرب له إلى الهلاك. ولمثل هذه العلة يتشبَّثُ
الغريق بمن أراد إنقاذه حتَّى يُغرِّقه نفسه، وهما قبل ذلك قد
سما بحال الغريق والمنهزم، وأتتهما إثمًا هما في ذلك كالرجل
المعاقى الذي يتعجَّب ممن يشرب الدَّواء من يد أعلم النَّاس
به، فإنَّ أصابته شقيقة، أو لسعة عقرب، أو اشتكى خاصرته،
أو أصابه حُضْر أو أُسْر شرب الدَّواء من يد أجهل الخليقة، أو
جَمع بين دواءين متضادَّين.

فالأشياء التي تعلم أنَّ سِلاحها في أذنانها وماخرها الرُّنْبور
والتَّعلب والعقرب والحُبَّارى، والظَّربان، وسيقع هذا البابُ في

موضعه إن شاء الله تعالى.

وليس شيءٌ من صنف الحيوان أردأَ حيلةً عند معاينة العدو من الغنم؛ لأنها في الأصل موصولةٌ بكفايات النَّاسِ، فأسندت إليهم في كل أمرٍ يصيبها، ولولا ذلك لخَرَّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها، فإذا لم يكن لها سلاحٌ ولا حيلة، ولم تكن ممن يستطيع الانسياب إلى جُحره أو صدع صخرة، أو في ذروة جبل، كانت مثل الدَّجاجة، فإنَّ أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رَفٍّ، وربَّما كانت في الأرض، فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك.

ما له ضروب من السلاح وربَّما كان عند الجنس من الآلات ضروبٌ، كنحو زبرة الأسد ولبدته، فإنَّه حَمولٌ للسَّلاح إلا في مراقٍ بطنه فإنَّه من هناك ضعيفٌ جدًّا، وقال التغلبي:

**النَّاسُ مِنَّا جِلْدَ أَسْوَدَ وَزُبْرَةَ صِرْغَامٍ مِنَ الْأُسْدِ
سَالِحٍ صَيَّعَمٍ**

وله مع ذلك بَعْدُ الوثبة واللُّزوقُ بالأرض، وله الحبس باليد، وله الطَّعن بالمخلب، حتى ربَّما حَسَرَ العَيْرَ بيمينه وطعن يَمخَلب يساره لِبَتِّه وقد ألقاه على مؤخره، فيتلقَى دمه شاحياً فاه وكأنه ينصبُّ من قَوَّارة، حتى إذا شربه واستفرغه صار إلى شقِّ بطنه، وله العَضُّ بأنيابٍ صلابٍ حداد، وفكٌّ شديد، ومنخر واسع، وله مع البُرْن والشكُّ بأظفاره دقُّ الأعناق، وحطم الأصلاب، وله أنه أسرعُ حُضراً من كلِّ شيءٍ أعمَلَ الحُضَرَ في الهرب منه، وله من الصَّبر على

الجوع ومن قلّة الحاجة إلى الماء مع غيره، وربّما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم وليلة، ولو لم يكن له سلاحٌ إلّا زئيره وتوقّد عينيه، وما في صدور النَّاس له لكفاه. وربما كان كالبعير الذي يعلم أنّ سلاحه في نايبه وفي كِرْكِرته.

والإنسان يستعملُ في القتال كَفِيّه في ضروبٍ، ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدّره، كلُّ ذلك له سلاحٌ ويعلم مكانه، يستوي في ذلك العاقلُ والمجنونُ، كما يستويان في الهداية في الطّعام والشراب إلى الفم.

سلاح المرأة والمرأة إذا ضعفت عن كلِّ شيءٍ فزعت إلى الصُّراخ والولولة؛ التماساً للرّحمة، واستجلاباً للغياث من حُماتها وكُفاتها، أو من أهل الحسبة في أمرها.

باب أسماء أولاد الحيوان قال: ويقال لولد السَّبُع الهَجْرَس والجمع هجارس، ولولد الضبع الفرغل والجمع فراغل، قال ابن حبناء:

سلاحين منها بالركوب وغيرها رآها فرغل الصّبع كقرا

قال: والدّيسم ولد الدّئب من الكلبة.

وسألت عن ذلك أبا الفتح صاحب قطرب فأنكر ذلك وزعم أنّ الدّيسمة الدّرة، واسم أبي الفتح هذا ديسم.

ويقال إنّه دويّبة غير ما قالوا.

ويقال لولد اليربوع والفأرِ درص، والجمع أدراص، ويقال لولد الأرنب خرنق، والجمع خرانق، قال طرفة:

جلسوا خيلت تحت ثيابهم خرانق تُوفي بالصّغيب لها

أشعارٌ فيها أخلاط من السباع والوحش والحشرات.

قال مسعود بن كبير الجرمي، من طيئ، يقولها في حمارٍ اشتراه فوجدّه على خلاف ما وصفه به النّحاس:

الخرشن شيءٌ هنبمعجبٌ ما يحتويه العجبُ
قلتُ لهما أن أجدّ الرّكبُ القوم صحار رحبُ
أجنح الأذن ألا تحبُّ الله فبئس النّجبُ
كان لي إذ اشتريك قلبُ ولكن ضاع ثمّ اللبُّ

الذي باعك خبُّ صبُّ أخبرني أنك عَيْرٌ تَدْبُ
ما قال الرِّجالُ الكَذِبُ عليه ضُبُّ وذئبُ
سَرْحَانَةٌ وَجَيَّالٌ عَدْنُهُ رَمْلَةٌ
قِرْشَبٌ وَهَضْبٌ
تحت الظلام سَقْبٌ
منه من رآه الرُّعْبُ

جِراءٍ مَسَّهَنَّ السَّعْبُ يقال حيث
أفضى السحبُ
وأنت تَفَّاقُ هِنوطَ بَيْحِ الراعي
ضُبُّ مُجَرَّراً وَغَبُّ
ورخمات بَيْنَهُرٍ وَأَكْرُعُ العَيْرِ وَفَرْتُ
كعبُ رَطْبُ
يقول: أدنوني إلى شرائه، ويقال ثرية لقيك لغة طائفة.

وقال قِرْواش بن حَوْط:

أن عقلاً بنَ خويلدٍ عافٍ ذي عَدَمٍ وَأَنَّ الأعلما
مجاهرةً وليثاً هُدْنَةً تَعِيلِبًا خمرٍ إذا ماءً أَظْلَمًا
تسامني من رَسِيسِ
عَدَاوَةٍ
فلسْتُ بسائمٍ إنْ تسامًا
الوعيدَ فما أكونُ
لموعدي
ولا أَكُلًا له متخَصِّمًا

ألا فكما البراز تُلاقيا يفلُّ الحدَّ شاكًا مُعْلِمًا
الوحر قال: وقال العَدْبَسُ الكنانِيّ: والوَحْرَةُ دَوْبَةٌ كالعظاءة حمراء إذا اجتمعَتْ تلتصق

بالأرض، وجمع وَحْرَةٌ وَحْرٌ، مفتوحة الحاء، ومنه قيل وَحْرُ الصِّدرِ، كما قيل للحقيدِ ضَبٌّ؛ ذهبوا
إلى لزوقه بالصِّدرِ كالتزاقِ الوَحْرَةِ بالأرض، وأنشد:

عَمَرَ اللهُ قومٌ طَرِقُوا أضيافُهُم لَحْمًا وَجِرَ
وسَقَوْهُم في إناءٍ مقرفٍ من دَرٍّ مِخْرَاطٍ قَنَرٍ
يقال لحم وَحْر: إذا دَبَّت عليه الوَحْرَةُ، مقرف: مُوبِئٌ، ويقال قَنَرٌ: إذا وقعَتْ فيه فارهٌ، وقال

الحكمي:

بَاعَدَ الرَّحْمَ يَجْعَلُ مَصَايِدَهَا
عَنْهَا الطَّلْحَ وَالْعُشْرَا
يَرَابِعاً وَلَا وَحْرَا

لهيئة وأما قوله:

وَهَيْشَةُ تَأْكُلُهَا سُرْفَةٌ وَسِمْعُ ذَنْبٍ هَمُّهُ الْحُضْرُ
فالهيشة أم حيين، وأنشد:

إِلَيْكَ زَمَانًا قَدْ تَعَرَّقْنَ تَعَرَّقَ رَأْسَ الْهَيْشَةِ الدَّيْبُ

وَأُمُّ حُبَيْنٍ وَأُمُّ حُبَيْتَةٍ سَوَاءٌ، وَقَدْ ذَكَرْنَا شَأْنَهَا فِي صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَا تَقِيمُ بِمَكَانٍ
تَكُونُ فِيهِ هَذِهِ الدُّودَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا السُّرْفَةُ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي الْمَثَلُ فِي الصَّنْعَةِ، وَيُقَالُ: أَصْنَعُ مِنْ
سُرْفَةٍ، وَيُقَالُ إِنَّهَا تَقُومُ مِنْ أُمِّ حُبَيْنٍ مَقَامَ الْقِرَادِ مِنَ الْبَعِيرِ، إِذَا كَانَتْ أُمُّ حُبَيْنٍ فِي الْأَرْضِ
الَّتِي تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ الدُّودَةُ.

ذَكَرَ مِنْ يَأْكُلُ أُمَّ حُبَيْنٍ وَالْقَرْنَبِيَّ وَالْجُرْدَانَ قَالَ: وَقَالَ مَدَنِيٌّ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتَأْكُلُونَ الصَّبَّ؟ قَالَ:

نَعَمْ، قَالَ: فَالْيَرْبُوعُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَالْوَحْرَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى عَدَّ أَجْنَاسًا كَثِيرَةً مِنْ هَذِهِ

الْحَشْرَاتِ، قَالَ أَفَتَأْكُلُونَ أُمَّ حُبَيْنٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلْتَهْنِ أُمَّ حُبَيْنٍ الْعَافِيَةَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي كَرِيمَةَ: سَأَلَ عَمْرُو بْنُ كَرِيمَةَ أَعْرَابِيًّا - وَأَنَا عِنْدَهُ - فَقَالَ: أَتَأْكُلُونَ الْقَرْنَبِيَّ؟ قَالَ:
طَالَ وَاللَّهِ مَا سَأَلَ مَاؤُهُ عَلَيَّ شَدَقِي.

وَزَعَمَ أَبُو زَيْدٍ النَّحْوِيُّ سَعِيدُ بْنُ أَوْسٍ الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رُؤْبَةَ وَإِذَا قُدَّامَهُ كَانُونٌ، وَهُوَ
يَمْلَأُ عَلَى جَمْرِهِ جُرْدًا مِنْ جُرْدَانَ الْبَيْتِ، يَخْرُجُ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فَيَأْكُلُهُ، وَيَقُولُ: هَذَا أَطِيبٌ
مِنَ الْيَرْبُوعِ يَأْكُلُ التَّمْرَ وَالْجُبْنَ، وَيَحْسُو الرِّبْتَ وَالسَّمْنَ.

وَأَنْشَدَ:

التَّيْمِيُّ يَزْحَفُ كَالْقَرْنَبِيِّ تَيْمِيَّةً كَقَفَا الْقَدُومِ

وقال آخر:

عَلَى أَحْشَائِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ الْقَرْنَبِيُّ بَاتَ يعلو نَقَا

اليربوع قال: واليربوع دابة كالجرذ، منكب على صدره؛ لقصر

يديه طويل الرجلين، له ذنب كذنب الجرذ يرفعه في الصعداء

إِذَا هَزُولَ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ كَذَلِكَ رَأَيْتَ فِيهِ اضْطِرَابًا وَعَجَبًا،
وَالْأَعْرَابُ تَأْكُلُهُ فِي الْجَهْدِ وَفِي الْخِصْبِ.

أَخْبَثَ الْحَيَوَانَ قَالَ: وَكَلُّ دَابَّةٍ حَشَاهَا اللَّهُ تَعَالَى حُبْنًا فَهُوَ
قَصِيرُ الْيَدَيْنِ، فَإِذَا خَافَتْ شَيْئًا لَازَتْ بِالصُّعْدَاءِ فَلَا يَكَادُ يَلْحُقُهَا
شَيْءٌ.

أَكَلَ الْمَسِيبُ بْنُ شَرِيكَ لِلْيَرْبُوعِ قَالَ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي نُجَيْحٍ
وَكَانَ حَجَّ مَعَ الْمَسِيبِ بْنِ شَرِيكَ عَامَ حَجِّ الْمَهْدِيِّ مَعَ سَلْسَبِيلٍ،
قَالَ: زَامَلْتُ الْمَسِيبَ فِي حَجَّتِهِ تِلْكَ، فَبَيْنَا نَحْنُ تَسِيرُ إِذْ نَظَرْنَا
إِلَى يَرْبُوعٍ يَتَخَلَّلُ فَرَاسِنَ الْإِبِلِ، فَصَاحَ بَغْلْمَانِهِ: دُونَكُمْ الْيَرْبُوعِ
فَأَحْضَرُوا فِي إِثْرِهِ فَأَخَذُوهُ، فَلَمَّا حَطَطْنَا قَالَ: ادَّبَحُوهُ، ثُمَّ قَالَ:
اسْلُخُوهُ وَاشْوُوهُ وَائْتُونِي بِهِ فِي عَدَائِي، قَالَ: فَأَتَى بِهِ فِي آخِرِ
الْغَدَاءِ، عَلَى رَغِيفٍ قَدْ رَعَّبُوهُ فَهُوَ أَشَدُّ حَمْرَةً مِنَ الزَّهْوَةِ، -
يُرِيدُ الْبُسْرَةَ - فَعَطَفَ عَلَيْهِ فَثَنَى الرَّغِيفَ ثُمَّ غَمَزَهُ بَيْنَ رَاغِيَتَيْهِ
ثُمَّ فَرَجَ الرَّغِيفَ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَخَذَ مِنْ دَسْمِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ،
ثُمَّ تَنَاوَلَ الْيَرْبُوعَ فَفَنَزَعَ فَخَذًا مِنْهُ، فَتَنَاوَلَهَا ثُمَّ قَالَ: كُلْ يَا أَبَا
مُحَمَّدٍ فَقُلْتُ: مَا لِي بِهِ حَاجَةٌ فَضَحَكَ ثُمَّ جَعَلَ يَأْتِي عَلَيْهِ عَضْوًا
عَضْوًا.

أم حبين قال: وأما أمُّ حُبين فهي الهَيْشَة، وهي أم الحبين،
وهي دويبةٌ تأكلها الأعراب مثل الحرباء، إلا أنّها أصغر منها،
وهي كذراءٌ لسوادٍ بيضاء البطن، وهو خلافُ قول الأعرابيِّ
للمدني.

وصاة أعرابي لسهل بن هارون وقال أعرابيُّ لسهل بن هارون،
في تواري سهل من عُرمائه وطلبهم له طلباً شديداً؛ فأوصاه
الأعرابيُّ بالحزم وتدبير اليربوع، فقال:

أبا عمرو على حدِّ إلى سهلٍ كثير
السَّلائقِ
تَفَقَّ اليربوع واسلُكْ عنكَ إني ناطقٌ وابنُ
سبيلِهِ ناطق
كأبي قُطنٍ على كلِّ منزلٍ في ضيق العَرَضِ
شاهق

وإنما قال ذلك لاحتيال اليربوع بأبوابه التي يخرج من بعضها، إذا ارتاب بالبعض الآخر، وكذا
كانت دار أبي قطنه الخناق بالكوفة في كنده، ويزعمون أنّه كان مولى لهم، وأنشد أبو عُبيدة
قال: أنشدني سفيان بن عيينة:

سَرَكَ العَيْشُ
تمرُّرُ على كِنْدَه
وقد قُتل أبو قُطنه وصَلِب.

الخناقون وممن كان يخنق الناس بالمدينة عَدِيَّة المدينيَّة الصَّفراءُ، وبالْبصرة، رادويّه،
والمرميُّون بالخنق من القبائل وأصحاب التَّحل والتأويلات هم الذين ذكَّروهم أعشى هَمْدان في
قوله:

سِرَّتْ في عَجَلٍ فسيرٌ فِكِنْدَه فَاحدَرَهَا حِدَارِك
صَحَابِيَه
للخسْفِ

شعبة الأعمى خناق وقشِب وإعمال لجندة
وغيلة القذف
وكلهم شرُّ على أن حميدة والميلاء حاضنة
رأسهم الكسف
كنت في حبي بجيلة لها قصفاً يدل على
فاستمع حنف
اعتزموا يوماً على قتل تداغوا عليه بالنباح وبالعرف

وذلك أن الخناقين لا يسيرون إلا معاً، ولا يقيمون في الأمصار إلا كذلك، فإذا عزم أهل دارٍ على خنق إنسانٍ كانت العلامة بينهم الضرب على دُفٍّ أو طبلٍ، على ما يكون في دُور الناس، وعندهم كلابٌ مرتبطة فإذا تجاوزوا بالعرف ليختفي الصوت ضربوا تلك الكلاب فنبحت، وربما كان منهم معلّم يؤدّب في الدرب، فإذا سمع تلك الأصوات أمر الصبيان برفع الهجاء والقراءة والحساب.

المغربية والغالية والمنصورية وأما الأعمى فهو المغيرة بن سعيدٍ صاحب المغيرة، مولى بجيلة والخارج على خالد بن عبد الله القسري، ومن أجل خروجه عليه قال: أطعموني ماء حتى نعى عليه ذلك يحيى بن نوفل، فقال:

من التواكّة أطعمونيثيراباً ثم بُلّت على السرير
لأعلاج ثمانية وشيخ الحدّ ذي بصر ضرير
وأما حميدة، فكانت من أصحاب ليلى الناعظية، ولها رياسة في الغالية، والميلاء حاضنة أبي منصور صاحب المنصورية، وهو الكسف، قالت الغالية: إياه عني الله: "وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مَرَكومٌ" وإياه عنى معدان الأعمى حيث يقول:

الكسف صدّ آل كميوكميل رذلٌ من الأزدال
بالعراق داءً دويّاً فيه تلتطف المحتال
تفسير بيت وأما قوله:
أبا عمرو على حدّ قريةٍ إلى سهل كثير السلائق

فأراد الهرب؛ لأنه متى كان في ظهرٍ فظاً كثير الجوادِّ
والطرائق، كان أمكراً وأخفى، وما أحسن ما قال النابغة في
صفة الطَّرِيق إذا كان يتشعَّب، حيث يقول:

وَنَاجِيَةٌ عَدَّيْتُ فِي ظَهْرِ لَاحِبٍ كَسَخَلِ الْيَمَانِي قَاصِدًا
لِلْمَغَاهِلِ
خَلَجٌ تَهْوِي فُرَادَى وَتَرَعُ وَيَّي كُلِّ ذِي نَيْرَيْنِ بَادِي
الْمُتَوَاكِلِ

وهذا موضع اليربوع في تدبيره ومكره.

أرجوزة في اليربوع وأكل الحشرات والحيات وقال الآخر في صفة اليربوع، وفي حيلته، وفي
خلقه، وفي أكل الحشرات والحيات:

يَرْبُوعٌ قَاصِرٌ وَشَاخِصِ الْعَجَبِ ذَلِيلِ
الظَّهْرِ
وَمُخَكَّمِ الْبَيْتِ جَمِيعِ يَرْعَى أَصُولَ سَلَمِ
الْأَمْرِ
تَرَاهُ كِمِدَادِ بَاكِرْتُهُ قَبْلَ طُلُوعِ
الْعَكْرِ
فِيَّاضِ الْيَدَيْنِ قَنَاصِ قَلِيلِ
عَمَرِ
مُرْتَفَعِ التَّجْمِ كَرِيمِ مَنِّي بَعِيدِ الْقَعْرِ
النَّجْرِ
مُخْتَلَفِ الْبَطْنِ عَجِيبِ وَتَدْمُرِيٌّ قَاصِعٌ فِي
الظَّهْرِ
الْعُسْرِ إِنْ كَانَ وَبِعَلَّطِيبِ عِنْدِي مِنْ جَنِيٍّ
الْعُسْرِ
وَشَحْمَةُ الْأَرْضِ طَعَامُ جَبَّارِ بَعِيدِ الذِّكْرِ
الْمُثْرِي
وَهَيْشَةُ أَرْفَعَهَا لِفَطْرِي لِيَوْمِ
وَلِيَوْمِ فَخْرِ

شيء في الظلام يسري عقرِبٍ أو فُنْفذ أو

حَيَّةٌ أُمَّلَّهَا فِي فَتْلِكَ هَمِّي وَإِلَيْهَا
الْجَمْرُ أَجْرِي
كُلِّ حَالٍ مِنْ غَنَى شَيْءٍ لِقَضَاءِ
وَقَفْرِ يَجْرِي
طَيْرٍ جَائِمٍ فِي يَعْسُوبٍ وَكُلِّ
وَكْرٍ
وَالذَّيْحِ وَالسَّمْعِ وَذَنْبِ وَالْكَلبِ وَالتَّنْفَلِ بَعْدَ
الْقَفْرِ
وَالصَّبِّ وَالْحَوْثِ وَطَيُّوَالْأَعْوُرِ النَّاطِقِ يَوْمَ
الْبَحْرِ الزَّجْرِ
غَيْرِ الْحَرَابِيِّ جُعَلِ صَلَّى صَلَاةِ
الْحُضْرِ العَصْرِ
يَشْكُرُ إِنْ نَالَ قِرَى مِنْ وَبَلِهِ مَنْ شَاكَرِ ذِي
جَعْرِ كَفْرِ
أَفْسَدَ وَاللَّهِ عَلَيَّ
شُكْرِي

فزعم أنه يستطيب كل شيء إلا الجرباء الذي قد اخضر من حر الشمس وإلا الجعل الذي يصلي العصر، وزعم أنه إنما جعل ذلك شكراً على ما أطعم من العذرة، وأن ذلك الشكر هو اللؤم والكفر.

ولا أعرف معنى صلاة الجعل، وقد روى ابن الأعرابي عن زاهر قال: يا بُنَيَّ لا تصلِّ فإنما يصلي الجعل، ولا تصم فإنما يصوم الجمار، وما فهمته بعد.

وأراه قد قدّم الهيشة، وهي أم حبين، وهذا خلاف ما رووا عن الأعرابي والمدني.

اليرابيع وأما قوله: وَتَدْمُرِي قاصع في جحر فقد قال الشاعر:

لأصطاد اليرابيع كلُّهُنَّ قَارِيَّهَا وَالتَّدْمُرِيَّ المَقْصَعَا

واليرابيع ضربان: الشُّفَارِيُّ وَالتَّدْمُرِيُّ، مثل القتي والمذكي.

وقال جرير حين شبه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها وذكر فيها الجعل فقال:

الْيَمِيَّ يَزْحَفُ كَالْقَرْنَبِيِّ تَيْمِيَّةٍ كَعَصَا الْمَلِيلِ

الزَّعْفَرَانُ عَرُوسٌ تَوَيْمِشِي مِشِيَةَ الْجُعْلِ الدَّحُولِ
المَجْتَلُونَ عَرُوسَ تَيْمٍ أُمَّ الْحَبِينِ وَرَأْسُ فَيْلٍ

شعر فيه ذكر اليربوع وقال عُبيد بن أَيْوُب العنبري، في ذكر اليربوع:

حَمَلْتُ عَلَيْهَا مَا لَوْ أَنَّ تُحَمَّلَهُ طَارَتْ بِهِ فِي
حَمَامَةٍ الْخَفَافِ

نَطُوعًا وَأَنْسَاعًا وَأَشْلَاءَ جَسَمَهُ طَوَّلُ السُّرَى فِي
مُدْتَفٍ الْمَخَافِ

كَمَا رَاحَتْ قَطَاةٌ لِأَزْعَبٍ مُلْقَى بَيْنَ عُبْرٍ
تَنْوَرَتْ صَفَافِ

الطَّيْرَ وَالْيَرْبُوعَ يَبْحَثُونِ قَرْنَ وَطَاءِ الْمَنْسَمِ
وَطَاهَا الْمَتَقَافِ

وقال ابنُ الأعرابي، وهو الذي أنشدنيهِ: ترى الطير واليربوع

يعني أنهما يبحثان في أثر حُفِّها ملجأً يلجآن إليه، إمَّا لشدة

الحر، وإمَّا لغير ذلك، وأنشد أصحابنا عن بعض الأعراب

وشعرائهم أنه قال في أمه:

أُمُّ الرُّدَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّتْ بَعَالِمَةً بِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ
الشَّيْطَانِ قَصَّعَ فِي قَفَلَتِهَا قَفَاةً بِالْحَبْلِ التَّوَامِ

يقول: إذا دخل الشيطان في قاصعاء قفاها تنفقناه، أي أخرجناه من النافقاء، بالحبْل المثنى،

وقد مَثَّلَ وقد أحسن في نعت الشعر وإن لم يكن أحسن في العُقوق، وأنشد في قوس:

كَزَّةِ السَّهْمِ وَلَا قَلُوعُ تَحْتَ عَجْسِهَا الْيَرْبُوعُ

القلوع من القسي: التي إذا نُزِعَ فيها انقلبت على كَفِّ النازع، وأما قوله: وأما قوله:

بِهِ السَّمْعَ الْأَزْلَّ كَأَنَّهُ مَا عَدَا

قيام الذئب بشأن جراء الضبع ويقولون: إن الضبع إذا هلكك قام بشأن جرائها الذئب وقال

الكميت:

خَامَرَتْ فِي حَصْنِهَا أُمَّ الْحَبْلِ حَتَّى عَالَ أَوْسُ

وأُشِدُّ أبو عبيدة في ذلك شعراً فسَّرَ به المعنى، وهو قوله:

والدَّئِبُ يَغْدُو بِنَاتِ الدَّيْحِ يَحْسِبُ الدَّئِبُ أَنَّ النَّجْلَ
نَافِلَةٌ لِلدَّيْبِ

يقول: لكثرة ما بين الذئب والضباع من التساؤد يظن الدئب أن أولاد الضبع أولاده.
أكل الأعراب للضباع والحشرات والأمز في الأعراب عجب في أكل السباع والحشرات،
فمنهم من يظهر استطابتها، ومنهم من يفخر بأكلها، كالذي يقول:

عمرو وَمَنْ يَكُنْ عُقْرُ عَدِيٍّ يَأْكُلُ الحَشْرَاتِ

ما تحبه الأفاعي وما تبغضه وأما قوله:

الماء أفاعي النَّقَا يُعْجِبُهَا الخَمْرُ
دَرَى الحَرْمَلِ ظِلٌّ علا وَأَحْتَدَمُ الهَجْرُ

فإن من العجب أن الأفعى لا ترد الماء ولا تريده، وهي مع هذا إذا وجدت الخمر شربت حتى
تسكر حتى ربما كان ذلك سبب حتفها.

والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح، وتستريح إلى نبات الحرمل، وأما أنا فإني ألقيت على
رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلاً.
أكل بعض الحيوان لبعض وأما قوله:

وبعضها طُعْمٌ لِبعضِ كَمَا أُعْطَى سِهامِ المَيْسِرِ القَمْرُ

فإن الجرذ يخرج يلتمس الطعام، فهو يحتال لطعمه، وهو يأكل ما دونه في القوة، كنحو صغار
الدواب والطيور، وبيضها وفراخها، ومما لا يسكن في جحر، أو تكون أفاحيضة على وجه الأرض،
فهو يحتال لذلك، ويحتال لمنع نفسه من الحيات ومن سباع الطير.

والحية تُريغ الجرذ لتأكله، وتحتال أيضاً للامتناع من الورل والفنغد، وهما عليه أقوى منه
عليهما، والورل إنما يحتال للحية، ويحتال للثعلب، والثعلب يحتال لما دونه.

قال: وتخرج البعوضة لطلب الطعام، والبعوضة تعرف بطبعها أن الذي يعيشها الدم، ومتى
أبصرت الفيل والجاموس وما دونهما، علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاءً، فتسقط عليهما
وتطعن بخرطومها، ثقةً منها بنفوذ سلاحها، وبهجومها على الدم.

وتخرج الذبابة ولها ضروب من المطعم، والبعوض من أكبرها صيدها وأحب غذائها إليها، ولولا

الدُّبَان لكان ضررُ البعوض نهاراً أكثر.

وتخرج الـوَرَعَةُ والعنكبوت الذي يقال له الليث فيصيدان الدُّبَاب بِالطَّف حيلة، وأجود تدبير، ثم تذهب تلك أيضاً كشأن غيرهما.

كأنه يقول: هذا مذهبٌ في أكل الطيبات بعضها لبعض، وليس لجمعها بُدُّ من الطُّعم، ولا بدُّ للصائد أن يصطاد، وكلُّ ضعيفٍ فهو يأكلُ أضعف منه، وكلُّ قويٍّ فلا بدُّ أن يأكله من هو أقوى منه، والنَّاسُ بعضهم على بعض شبيه بذلك، وإن قصرُوا عن دَرَكَ المقدار، فجعل الله عَزَّ وجلَّ بعضها حياةً لبعض، وبعضها موتاً لبعض.

شعر للمنهال في أكل بعض الحيوان لبعض وقال المنهال:

من خُرَزِ أَعْفِرٍ وَخِرْنِقِ يَلْعَبُ فَوْقَ التُّرَابِ
وَعَصَرَ فُوطٍ قَدْ تَقَوَّى عَلَيْهِمُ حُلُولِكِ الْبِقَةَ مِثْلَ الْحَبَابِ
وظالم يَعْدُو عَلَى صَخٍّ مِنْهُ حَشْرَاتُ
ظالم الشَّعَابِ

وهذان الظَّالمان اللذَّان عني: الأسودُ، والأفعى، فإنَّ الأسود

إذا جاع ابتلع الأفعى.

أكل الأسود للأفاعي وشكا إليَّ حَوَاءً مرةً فقال: أفقرني هذا

الأسود، ومنعني الكَسْبَ، وذلك أنَّ امرأتي جهلت فرمتُ به

في جُونةٍ فيها أفاعي ثلاثٌ أو أربعٌ، فابتلعهنَّ كلَّهن، وأراني حيَّةً

مُنْكَرَةً، ولا يبعد ما قال.

والعرب تقول للمسيء: أَظْلَمُ من حيَّة، وقد ذكرنا ذلك في

موضعه من هذا الكتاب.

ولا يستطيع أن يروم ذلك من الأفعى إلاَّ بأن يغتالها، فيقبض

على رأسها وَقَفَاها، فَإِنَّ الأَفْعَى تنفذ في الأسود، لكثرة دمه.
وصف سم الحية وإذا وصفوا سمَّ الحية بالشدة والإجهاز خَبَرُوا
عنها أَنَّهُ لم يبقَ في بدنِها دَمٌ ولا يَلَّةٌ، ولذلك قال الشاعر:
ما أخرجتُ منه يدٌ بَلَلًا تَكْتَفُهُ الراقون ما سَمِعَا
وقال آخر:

من حنشي أغمى أصمُّ عاش حتى هو ما يمشي
سلاح الحيوان والشأن في السلاح أَنَّهُ كلما كان أقلَّ كان أبلغ، وكلما كان أكثرَ عدداً وأشدَّ
ضرراً كان أشجع وأخذ لكلِّ من عَرَفَ أَنَّهُ دونه، وأنشد أبو عبيدة:

السَّبْتَى إلى هَيْجاءٍ سلاحانِ أنيابٌ وأظفارٌ
مُفْطِعةٌ
كالأسد له فم الدَّئِبِ - وحسبك بغم الدَّئِبِ - وله فضلُ قوة المخالب، وللتَّسر مُنسرٌ وُقُوَّة
بدن يكون بهما فوق العقاب، ولذلك قال ابن مُنادر:

أتجعلُ ليتها ذا عرين ترى له وأظفاراً وعِرساً وأشْبِلاً
ذا نابٍ حديدٍ ومخْلِبي يتَّخذ عِرساً ولم يَحْم
وذلك أن فتية تواجنا بالخناجر، أحدهما صُبيري والآخر كَلبي، فَحَمَلَا إلى الأمير، ف ضرب
الصُّبيري مائة سوط، فلم يحمدا صبره، وشغل عن الكلبى ف ضربه يوم العَرَض خمسمائة
سوط، ف صبر صبراً حَمِدوه، ففخر الكلبى بذلك على الصُّبيري.
وابن منادر مولى سُليمان بن عبيد بن علان بن سَمَّاس الصُّبيري، فقال هذا الشعر، ومعناه أَنَّ
شُجاعاً لو لقي الأسد وهو مسلَّح، بأرضٍ هو بها غريبٌ وليس هو بقرب غيضةٍ وأشباله، لما
كان معه، مما يتخذه، مثل الذي يكون معه في الحال الأخرى، يقول: وإنما صبر صاحبكم لأنَّه
إنما ضُربَ بحضرة الأَكفاء والأصدقاء والأعداء، فكان هذا مما أعانه على الصُّبر، و ضُربَ
صاحبنا في الخلاء، وقد وُكل إلى مقدار جودة نفسه، وقطعت المادة بحضور البطالة.
حمدان و غلامه وسمعُ حمدانَ أبا العقب، وهو يقولُ لِغلامٍ له، وكيف لا تستطيل عليَّ وقد

ضربوك بين الناس خمسين سوطاً فلم تنطق؟ فقلت: إذا ضربه السَّجَّانُ مائة قناةٍ في مكانٍ ليس فيه أحدٌ فصبرَ فهو أصبرُ الناسِ.

تفسير بيت الخنساء وأما قوله: منِّي السَّبْتِيُّ، فإن السَّبْتِيَّ هو النمر، ثم صار اسماً لكلِّ سبع جريءٍ، ثم صاروا يسمُّون الناقة القوية سَبْتَاةً، قال الشاعرُ:

السَّبْتِيُّ وجد السَّبْتِيُّ

رؤساء الحيوان وأما قوله:

وَتَمْسَحُ النَّيْلُ عُقَابَ الْهَوَاوَالِيثِ رَأْسُ وَهٍ الْأَسْرُ
لَيْسَ لَهُمْ غَالِبٌ بما يَنْتَقِضُ الدَّهْرُ
فإِنَّهُمْ يزعمون أَنَّ الْهَوَاءَ لِلْعُقَابِ، وَالْأَرْضَ لِلْأَسَدِ، وَالْمَاءَ

لِلتَّمْسَاحِ، وليس لِلنَّارِ حظٌّ في شيءٍ من أجناس الحيوان: فكأنَّه

سَلَّمَ الرِّياسَةَ على جميع الدُّنيا لِلْعُقَابِ وَالْأَسَدِ وَالتَّمْسَاحِ؛ ولم

يَمُدَّ الْهَوَاءَ، وَقَصُرَ الْمَمْدُودُ أَحْسَنُ من مَدِّ الْمَقْصُورِ.

رواية المعتزلة للشعر وروت المعتزلة المذكورون كلُّهم رواية

عامة الأَشعارِ، وكان يَشترُ أرواهم للشَّعرِ خاصَّةً.

الهوائي والمائي والأرضي من الحيوان وقولهم: الطائر هوائيٌّ،

والسمك مائيٌّ، مجازٌ كلام، وكلُّ حيوان في الأرض فهو أرضيٌّ

قبل أن يكون مائياً أو هوائياً؛ لأنَّ الطَّائرَ وإنَّ طار في الهواء فإنَّ

طيراته فيه كسباحة الإنسان في الماء، وإِثْمًا ذلك على التكلِّفِ

والحيلة، ومتى صار في الأرض ودلَّى نفسه لم يجد بُدًّا من

الأرض.

بقية قصيدة بشر الأولى وأما بقية القصيدة التي فيها ذكر
الزّافضة والإباضية والثّابتة فليس هذا موضع تفسيره.
وسنقولُ في قصيدته الأخرى، بما أمكننا من القول إن شاء الله
تعالى.

انقضت قصيدةُ بشر بن المعتمر الأولى.

تفسير القصيدة الثانية

وأما قوله:

الوحش وأحناشها

فإن الأوابد المقيمة، والأحناش الحيات، ثم صار بعد الضبُّ والورلُّ والجرباء والوخره وأشباه
ذلك - من الأحناش.

وأما قوله:

شرٌّ وفي شرِّها كثيرٌ عند مَنْ يدري

يقولُ: هي وإن كانت مؤذيةً وفيها قوائل فإن فيها دواءً، وفيها عبرةً لمن فكر، وأذاها محنة
واختبارٌ، فبالاختبار يطيع الناسُ، وبالطاعة يدخلون الجنة.

وسئلَ علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، غير مرّةٍ في عِللِ نالته ف قيل له: كيف أصبحت؟
فقال: بشرٌّ، ذهبَ إلى قوله عزّ وجلّ: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْعَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ".

وأما قوله:

فَشَرُّهُمْ أَكْثَرُهُمْ حَيْلَةً كَالذَّبِّ وَالتَّغَلَبِ وَالدَّرِّ

فقد فسرهُ لك في قوله:

والليث قد بلده علمه حوى من شدة الأسر

وهكذا كلُّ من وثقَ بنفسه، وقلَّت حاجته.

ويزعم أصحابُ القنصِ أنّ العُقاب لا تكادُ تراوغ الصّيد ولا تعاني ذلك، وأنّها لا تزال تكونُ على

المرقبِ العالي، فإذا اصطاد بعضُ سباع الطير شيئاً انقصت عليه فإذا أبصرها ذلك الطائر لم يكن همه إلا الهرب وترك صيده في يدها، ولكنها إذا جاعت فلم تجد كافيًا لم يمتنع عليها الذئبُ فما دوتَه، وقد قال الشاعرُ:

ذئبها يوماً إذا قلبت من مُستكفِّ الجوِّ حملاقا

وقال آخر:

حين فاض الماء واحتملت
صقعاؤها لآح لها بالقفرة الذيب
عليه ولم تنصب من الشقاء على الأشقين
مصبوب

وأما قوله:

تَعْرِفُ بِالْإِحْسَاسِ أَقْدَارَهَا الْأَسْرَ وَالْإِلْحَاحَ وَالصَّبْرَ
يقول: لا يخفى على كلِّ سبعٍ ضعفه وتجلده وقوته، وكذلك البهيمة الوحشية لا يخفى عليها مقدارُ قوةِ بدنها وسلاحها، ولا مقدارُ عدوها في الكرِّ والفر، وعلى أقدار هذه الطبقات تظهر أعمالها.

وأما قوله:

والصَّبْعُ الْعَثْرَاءُ مَعَ ذِيخِهَا
تَرَى الذَّئْبَ إِذَا لَمْ يُطِيقْ
شَيْءٍ فَعَلَى قَدْرِهِ
مِنَ اللَّبْوَةِ وَالنَّمْرِ
فَجَاءَتْ رَسَلًا تَجْرِي
أَوْ يُقَدِّمُ أَوْ يَجْرِي
فإنَّ هذه السباع القويَّة الشريفة ذوات الرياسة: الأسد والنمور والببور - لا تعرض للناس إلا

بعد أن تهرم فتعجز عن صيد الوحش، وإن لم يكن بها جوعٌ شديدٌ فمَرَّ بها إنسانٌ لم تعرض له، وليس الذئبُ كذلك، لأن الذئبَ أشدُّ مطالبَةً، فإن خاف العجز عوى عواء استغاثة فتسامعت الذئاب وأقبلت، فليس دون أكل ذلك الإنسان شيء.

وقسم الأشياء فقال: إنما هو نكوصٌ وتأخرٌ، وفرارٌ، وإحجامٌ وليس بفرارٍ ولا إقدام، وكذلك هو، وأما قوله:

والكَيْسُ فِي الْمَكْسَبِ شَمْلٌ
وَالْعَنْدِيلُ الْفَرخُ كَالنَّسْرِ

فالعندليل طائرٌ أصغر من ابن تمرة، وابنُ تمرة هو الذي يُضرب به المثلُ في صغر الجسم،
والنَّسر أعظمُ سباع الطَّير وأقواها بدنًا.

وقال يونسُ النحويُّ وذكر خلفاً الأحمر فقال: يضربُ ما بين العندليل إلى الكركيِّ، وقد قال
فيه الشَّاعر:

ويضربُ الكركي إلى القنبرِ عانساً يبقى ولا مُحتلِمٌ

وقال:

أقولُ لصاحبي خلفٍ إليك تَخَدَّرُنْ خَلْفُ
أَنَّ بيتك في دُرَى عَلمٍ دُونَ قُلَّةِ رَأْسِهِ شَعْفُ
لخشيئتُ قدرك أن يبيتها يكن لي عنه مُنصرفُ
وفي المثل: كلُّ طائرٍ يصيدُ على قَدْرِهِ.

كسب الذئب وخبثه وأمَّا قوله:

والخُلد كالذئب على كَسْبِ الفيلِ والأعلمُ كالوَبْرِ
فإنَّه يقالُ: أغدُرُ من ذئب وأخبتُ من ذئب، وأكسبُ من ذئب،
على قول الآخر:

أَكسبُ لِلخَيْرِ مِنَ الذَّئْبِ الأَزَلُّ

والخير عنده في هذا الموضع ما يُعيش وَيُقوت، والخير في

مكانٍ آخر: المالُ بعينه على قوله عَزَّ وجلَّ: "إِنْ تَرَكَ خَيْراً

الْوَصِيَّةَ"، وعلى قوله: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ"، أي إنَّه من

أجل حُبِّ المال لبخيلٌ عليه، ضنين به، متشدَّد فيه.

والخير في موضعٍ آخر: الخصب وكثرة المأكول والمشروب،

تقول: ما أكثر خير بيتِ فلان، والخير المحض: الطَّاعة وسلامة

الصدر.

وأمَّا قولهم: أَحْبَبْتُ مِنْ ذَنْبِ حَمَرٍ فعلى قول الرَّاجز:

أَتَاكَ عَنِّي الْحَدِيثُ وَالذُّبُّ وَسَطُ أَعْنَزِي يَعْينُ صَحْتُ بِالْغَائِطِ يَا خَبِيثُ وقالوا في المثل: مُستودع الذئب أظلم.

الخلد والخلد دويبة عمياء صماء، لا تعرف ما يدنو منها إلا بالسَّمِّ، تخرج من جحرها، وهي تعلم أن لا سمع ولا بصر لها، وإنما تَشْحَا فاها، وتقف على باب جحرها فيجيء الذباب فيسقط على شِدْقها ويمر بين لحييها فتشُد فمها عليها وتسدخلها بجذبة النفس، وتعلم أن ذلك هو رزقها وقسمها، فهي تعرض لها نهاراً دون الليل، وفي الساعات من النهار التي يكون فيها الذباب أكثر، لا تفرط في الطلب، ولا تقصر في الطلب، ولا تخطئ الوقت، ولا تغلط في المقدار. وللخلد أيضاً ترابٌ حوالِي جحره، هو الذي أخرجه من الجحر، يزعمون أنه يصلح لصاحب التقرس إذا بُل بالماء وطلي به ذلك المكان.
الأعلم وأما قوله:

والفيل والأعلم كالوبر

فالفيل معروف، والأعلم: البعير، وبذلك يسمّى، لأنه أبدأ مشقوق الشفة العليا، ويسمّى الإنسان إذا كان كذلك به.

ويدل على أن الأعلم والبعير سواء قولُ الراجز:

لمن أنكر أو توسّما

وقال عنتره:

وحليل غانية تركتُ مجدلاً

فريصته كشدق الأعلم

يريد شدق البعير في السعة، وقال الآخر:

ضربة لك تحكي فاقراسيّة

المصاعب في أشدائه

بعض ما قيل من الشعر في صفة الضرب والطعن وقال الكمي:

مشافر قرحى أكلن البريرا

وقال آخر:

بضرب يلقح الصبغان منه طروقته

ويأتيف السفادا

وقال الشاعر الباهلي:

بَصْرَب كَأَذَانِ الْفِرَاءِ فُضُوْطَعْنَ كَأِيزَاغِ الْمَخَاضِ تَبُوْرُهَا
كَأَنَّهُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ، فَعَلِقَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ كَأَمْثَالِ آذَانِ الْحَمِيرِ.

وقال بعضُ المحدثين، وهو ذو اليمينين:

وَمَقْعَصٌ تَشْحَبُ أوداجُهُ بَانَ عَنْ مَنْكِبِهِ الْكَاهِلُ
مَا بَيْنَهُمَا هُوَّةٌ يَمْشِي بِهَا الرَّامِحُ وَالنَّابِلُ
وفي صفات الطَّعنة والصرِّبة أنشدني ابنُ الأعرابي:

أبو اليقظانِ عِنْدِي فَسَهَّلَ مَاوَى لَيْلِهَا بِالْكَلاكِـ
هَجْمَةً
عَقَلَ عِنْدِي غَيْرُ طَعْنٍ وَضَرْبٍ كَأَشْدَاقِ الْفِصَالِ
نَواْفِذِ
يُودِ الْمَرْءِ لَوْ مَاتَ الْهَضَابِ صُدَّعَتْ
بِالْمَعَاوِلِ

وقال الآخر:

جَمَعْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ قَائِماً مِنْ خَلْفِهَا مَا
فَتَّقَهَا وَرِاءِهَا
وقال البعيث:

أَمْرَعْتُ مِعْزَى عَطِيَّةٍ مِنْ الْمَرْوَتِ أَحْوَى
وَأَرْتَعْتُ جَمِيمِهَا
تَعَرَّضْتُ لِي حَتَّى ضَرَبْتُكَ الرَّأْسِ يَكْبُو لِلْيَدَيْنِ
أَمِيمِهَا
قَاسِهَا الْآسِي التَّطَاسِيُّ آسِيهَا وَجَاشَتْ هُزُومِهَا
أُرْعِشْتُ
وقال الآخر:

وَنَائِحَةٌ رَافِعٌ صَوْتُهَا وَقَدْ وَقَعَ الْمِهْدَمُ
وَتُسْبَرُ قَلَّاسَةً غَابَتِ الْكَفُّ وَالْمَعْصَمُ
وقال آخر:

وَمُسْتَنَّةٌ كَاسْتِنَانَ الْخِرْوِ قَدْ قَطَعَ الْحَبْلَ بِالْمِرْوَدِ
الْأَصَابِعِ صَرَحَ الشَّمْوِ نَجْلَاءَ مُؤَيَسَةِ الْعُودِ
وقال محمد بن يسير:

وطعن خليس كفزغ النّضح
العوائد من قنقها
منّ تعب الحاجر
السّبار على السّابر
وأنشدوا لرجلٍ من أزد شنوءة:

وطعنَ خَليسيّ قد طعنت
مُرثيّة
أحشاء الجبانِ شهيقها
باشروها بالسّبار تقطعت
أم السكر شيب عقوقها
وروي للفنّد الرّقاني ولا أظنّه له:

عن بنى هنديّ
عسى الأيام ترجعهم
صرخ الشّرّ
شددنا شدة الليث
بضربٍ فيه تفجيعُ
وطعن كفم الزق
القومُ إخوانُ
جميعاً كالذي كانوا
وأضحى وهو عريانُ
والليثُ غضبانُ
وتوهينُ وإرنانُ
والزقُ ملآنُ
وأنشد السّديّ لرجل من بلحارث:

المحرم في رحله فشمّر رحلي بعنس خبوب
مئى خطوباً مضت الأباء ويوم الكّثيب
خزاز وقد أجموا وأشرطت نفسى بأن لا أثوب
ففرجت عنهم بنفاحية عائدٌ مثل ماء الشعيب
سبروها عوى كلبها وجاشت إليهم بأن صبيب
وقال آخر:

ما طعنت في جمح الهلال وأين مئى هلال
الثائر المصمم حتى الرمح خلفه كالخلال
وقال الحارث بن جلّة:

يقيم العزيز بالبلد السه
قيس مستلّمين بكبشظى كأنه عبلاء
فرددناهم بضرب كما يخ من خربة المزاد الماء
وفعلنا بهم كما علم الله إن للحائنين دمأ
وقال ابن هرمة:

بالمشرفيّة والمظاهر تسجها اللّقاء وكلّ وريد صاهل

أَزْوَعٌ كَالْحَرِيقِ مُطَافِيهِسَايِفٍ فَمَعَانِقِ فَمُنَازِلِ

ويروى: فمعادل.

الإفراط في صفة الضرب والظعن وإدُّ قد ذكرنا شيئاً من الشُّعر في صفة الضرب والظعن
فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكلُ هذا الباب من إسرافٍ من أسرفَ، واقتصادٍ من اقتصد،
فأما من أفرط فقول مُهلل:

الرَّيْحُ أَسْمِعُ مَنْ بِحَجْرٍ البيضُ تُقَرَعُ بِالذُّكُورِ

وقال الهذلي:

والظعن شَغَشَعَةٌ وَالضَّرْبُضَرْبَ المَعْوَلِ تَحْتَ الدَّيْمَةِ
هَيْقَعَةٌ العُضْدَا

وَاللَّقْسِيُّ أَرَامِيلٌ وَعَمَمَةٌ الجَنُوبِ سِوْقِ المَاءِ
وَالْقَرْدَا

ومن ذلك قول عنتره:

بِرَحِيبةِ الفَرغينِ يَهْدِي جَرْسُهَا مُعْتَسَنَ السَّبَاعِ الضَّرَمِ

وقال أبو قيس بن الأسلت:

حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا نِوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ

وقال دُرَيْدُ بنِ الصَّمَّةِ:

أَعَاذِلُ إِثْمًا أَفْنَى شَبَابِي رُكُوبِي فِي الصَّرِيخِ إِلَى
المَنَادِي

الْفَتِيانِ حَتَّى خَلَّ جِسْمُفَقِيحِ عَاتِقِي حَمَلِ التَّجَارِ

ومما يدخل في هذا الباب قولُ عنتره:

رُغْنَاهُمْ وَالخَيْلُ تَرْدِي بِالقِنَا أبيضَ صَارِمِ قَصَّالِ
المَنِيَّةِ فِي المِوَاتِنِ كَوَاللَّطَعْنِ مَنِّي سَابِقُ الأَجَالِ

وأما قوله:

المَنِيَّةُ لَوْ تُمَثَّلُ مُتَلَّتْ إِذَا تَزَلُّوا بِضَنِّكَ المَنْزِلِ

وقال نهشل بن حَرْي:

زَالَ رُكْنِي يَرْتَقِي مِنْوَفَارِسُ هَيْجَا يَنْفِضُ الصَّدْرَ

فوصف نفسه بأته مجتمع القلب، مرير لا يبرح.

وقد كان حميد بن عبد الحميد يوصف بذلك ، لأنه كان لا يرمي بسهم، ولا يطعن برمح، ولا يضر بـ سيف، ولكن التصبير والتَّحريض والتُّبَات، إذا انهزم كلُّ شجاع من نذر في حمية المقتول نذراً فبلغ في طلب ثأره الشفاء. قال العبسي:

دَعَوْتُ اللَّهَ إِذْ قَدْنَا إِلَيْهِمْ مِنْقِرًا أَوْ عَبْدَ عَمْرٍو
وَكَاثَتْ حَلْفَةً حُلِفَتْ لِيُوْنِرِ اللَّهُ أَنْ أَدْرَكْتُ وَتِرِي

قد سَقَمْتُ فكان بُرَيْقِيُوَاش بن حارثة بن صَخْرِ
والأعرابُ تعدُّ القتلَ سُقْمًا وداءً لا يبرئه أخذ ثأره دون أخٍ أو

ابن عمٍّ، فذلك الثأر المنيـم.

وممن قال في ذلك صبار بن التوعم اليشكري، في طلب
الطائلة وأن ذلك داءٌ ليس له بُرء، وكانوا قتلوا أخاه إساف بن
عباد، فلما أدرك ثأره قال:

يأتيها أتي صَحَوْتُ وَأَنِّي بِشِفَانِي مِنَ الدَّاءِ الْمُخَامِرِ
شَافٍ
فَأَصْبَحْتُ ظَبِيًّا مُطْلَقًا مِنْ صَحِيحِ الأديم بَعْدَ داءِ إِسَافِ
جِبَالَةٍ
مَغْطَى فِي قِنَاعِي كَشَفْتُ قِنَاعِي وَاعْتَطَفْتُ
عِطَافِي

وفي شبيهه بهذا المذهب من ذكر الداء والبُرء قال الآخر:

عَهْدَتِكَ مَجْنُونًا فَقَلْتُ الشُّبَابَ جُنُونُ بُرْؤُهُ الكَبْرِ

وفي شبيهه بالأول قول الشيخ الباهلي، حين خرج إلى المبارزة على فرسٍ أعجف، فقالوا:

بالٍ على بالٍ، فقال الشيخ:

الأشعريُّ فقالَ بِالٍ بِالٍ ولم يعرفْ بلائي

ومثلك قد كَسَرْتُ الرُّمَحَ فيه بدائه وشفيتُ دائي

وقالت بنتُ المنذر بن ماء السماء:

أَبَاغُ قَاسَمْنَا المَنَايَا قَسِيمُهَا خَيْرُ القَسِيمِ
وَقَالُوا فَارِسَ الهِجَاءِ قَلْنَا الرُّمَحُ يَكْلَفُ بِالكَرِيمِ

وقال الأسيدي:

طَريفًا بِأَزمَاحِنَا وبِالزَّحَابِ مِنَّا فلم يدفَعُونَا
الوَشِيظُ وَمَالَ الجُمُوحُ تَأْكُلُ الحَرَبُ إِلَّا السَّمِينَا

وقال الخريمي:

وأعددتُه دُخْرًا لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وَسَهْمُ المَنَايَا بالذخائر مُولِعُ

وقال السموءلُ بنُ عاديا:

حُبُّ المَوْتِ آجَالِنَا لِفُتْكَرْهُه آجَالِهِمْ فَتَطوُلُ
أُنَاسٌ لَا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلوُلُ

وقال أبو العيزار:

وَتَرَفَعُهُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ تَنَشَّبَ فِي مَخَالِبِ ضَارِي
صَريعًا والرِّمَاحُ تُنَوِّشُهُ الشُّرَاةُ قَصِيرَةُ الأَعْمَارِ

وقال آخر وهو يُوصِي بلبسِ السِّلَاحِ:

أَتَنكُمُ هَذِهِ فَتَلَبَّسُوا الرِّمَاحَ بِصِيرَةٍ بِالحَاسِرِ

وقال الآخر:

فَارِسَ النَاسِ فِي الهِجَا إِذَا اليَدِينِ كَرُورًا عَيَّرَ وَقَافِ
شُغِلَتْ

قوله شُغِلَتْ يريد بالسيف والثرس، وأنشد أبو اليقظان: وكان ضروباً باليدين وباليد أمّا قوله:

ضروباً باليدين، فإنه يريد القِدَاحَ، وأمّا قوله: باليد فإنه يريد السَّيْفَ.

وأمّا قول حسان لقائده حين قرَّبوا الطَّعامَ لبعض الملوك: أطعام يدين أم يد؟ فإنه قال هذا

الكلام يومئذ وهو مكفوفٌ.

وإن كان الطَّعامُ حَيْسًا أو ثريدًا أو حربة فهو طعام يدٍ، وإن كان شواءً فهو طعام يدين.

من أشعار المقتصدين في الشعر ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب:

الرِّكَابَ لِأربابها فَأَجَهَ نَفْسِي عَلَى ابنِ الصَّعِقِ

جَعَلْتُ يَدَيَّ وَشَاحاً لَهٗ وَبَعْضُ الْفَوَارِسِ لَا يَعْتَنِقُ

وممن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابة، حيثُ يقول:

وَإِقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ تَفْوِضِي بِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحِ
وَقَوْلِي كَلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشَمَكَتْكَ تُجَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وقل آخر:

لِنَفْسِي إِثْمًا هُوَ عَامِرٌ تَرْهَبِيهِ وَانظُرِي كَيْفَ

وقال عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب:

رَأَيْتُ الْخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهَا جَدَّأُولُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ
فَاسْبَطَرَتْ
فَجَاشَتْ إِلَى النَّفْسِ أَوْلَ فَرَدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا
فَاسْتَقَرَّتْ

وقال الطائيُّ:

وَدَتُّنَا وَدَتُّوْا حَتَّى إِذَا الصَّرْبُ فَمِنْ شَاءَ
رَكضَتْ فِينَا وَفِيهِمْ سَالَهُمْ مَيَّاتٌ وَبِيضٌ كَالشُّهْبِ
الْقَاعَ لَنَا إِذْ كَرِهُوا غِمْرَاتِ الْمَوْتِ وَاخْتَارُوا
الْهَرْبِ

وقال النمر بن تولب:

سَمَوْنَا لِيَشْكُرَ يَوْمَ النَّهَابِ قَنًا سَمَهْرِيًّا طَوَالًا
التقينا وكان الجلاذُ الحياة فولوا شِلَالًا

وكما قال الآخر:

الْمُقَدِّمُونَ الْخَيْلَ تَدْمِي أبيض من هَوْل الطَّعَانِ
نُحُورُهَا الْمَسَالِحُ

وقال عنتره:

يَتَّقُونَ بِي الْأَسِنَّةَ لَمْ أُخِمْ وَلَكِنِّي تَضَائِقَ مُقَدِّمِي

وقال قَطْرِيُّ بن الفُجَاءة:

وَقَوْلِي كَلَّمَا جَشَأْتُ لِنَفْسِي الْأَبْطَالِ وَيُحَكِّ لَأْتِرَاعِي

لَوْ سَأَلْتِ حَيَاةَ يَوْمٍ نَطَاعِي
الأجلِ الذي لكِ لم

وقالت الخنساء:

النفوس وهون النفوس الكريهة أبقى لها

وقال عامر بن الطفيل:

لنفسٍ لا يجادُ بمثلها المراح إنني غيرُ مُقصر

وقال جرير:

طارِدُوا الخيلَ لم يُشؤوا نازلوا عاتقوا الأبطال
فوارسها فاهتصروا

وقال ابن مقروم الصبي:

تُعَلَّلُ بالسَّياطِ جيادها أعطاك ثائبةً ولم يتعلَّل
فدعوا نزالٍ فكنثُ أولٍ نازلٍ أركبه إذا لم أنزل

وقال كعب الأشقري:

وفيه منتهى الحزم وللكربِ فيهم والخصاصةِ
والندى فاسحُ

علقاً تغشى النقوش انفرجت من بعدهنَّ

رشاشه الجوانح

القنا الخطى فينا أشاطينُ بئرٍ هيبتها المواتحُ
وفيهم

قذفنا بالرماح فمائلُ في جمع الفريقين

كما دارت على قطبها دارت على هامِ الرجال

الرحى الصفائح

وقال مهلهل:

ودلَّفنا بجمعنا لبني سبي إن الخليل يبغي الخليلاً
يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا الحرب من أطاق النزولا

وقال عبدة، وهو رجلٌ من عبد شمس:

زجزنا الخيلَ خاضت بنا خاضت البزلُ النَّهَاءَ
الطواميا

برشقي ثم إن سيوفنا
فأنكرن القبيل المراميا
يكُ يثني التبل وقعُ
سُيوفنا
عقدنا للجلادِ التّواصيا

في ذكر الجبن ووهل الجبان قال الله عز وجل: "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ"، ويقال إن جريراً من هذا أخذ قوله:

زلت تحسبُ كلَّ شيءٍ
تكرُّ عليكم ورجالا
بعدهم
والى هذا ذهب الأول:

أنها عصفورةٌ لحسبتهمسومةً تدعو عُبيداً وأزنا
وقال جرّان العود:

ارتحلت برحلي قبل والقلبُ مُستوهلُ للبين
برذعتي مشغولُ
اغترزتُ على نصوى الحُمول الغوادي وهو
ليحملني معقولُ
وهذا صفة وهل الجبان، وليس هذا من قوله:

كملقي الأعتة من كفه
الجياذ بأذنايها
وقال الذّكواني أو زمرة الأهوازي، ففسر ذلك حيث يقول:

الخيال كالسّفين ويترقى فوق طريفه المشكول
لأنهم ربّما تنادوا في العسكر: قد جاؤوا، ولا بأس فيسرج الفارس فرسه وهو مشكولٌ ثم
يركبه ويحثّه بالسّوط، ويضربه بالرّجل، فإذا رآه لا يُعطيه ما يريدُ نزل فأحضر على رجليه،
ومن وهل الجبان أن يُذهل عن موضع الشّكال في قوائم فرسه، وربما مضى باللّجام إلى
عجب ذنبه، وهو قوله: يجعل الخيل كالسّفين لأنّ لجام السفينة الذي يغمزها به والشّكال هو
في الدّنب.

وقال سهل بن هارون الكاتب في المنهزمة من أصحاب ابن نهيك بالتهروان من خيل هزيمة
بن أعين:

للمهزومِ إفراطٌ روعه
ظهورَ الخيل أدنى من
العطب

لَأَنَّ الْجُبْنَ يُرِيهِ أَنَّ عَدُوَّهُ عَلَى رَجْلِيهِ أَنْجَى لَهُ، كَأَنَّهُ يَرَى أَنَّ
التَّجَاةَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى قَدْرِ الْحَمْلِ لِلْبَدَنِ. وَقَالَ آخِرَ حِينٍ اعْتَلَّ
عَلَيْهِ قَوْمُهُ فِي الْقِتَالِ بِالْوَرَعِ:

رَبِّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ
سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ
إِنْسَانًا

وقال آخر:

بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ الخائفِ المطلوبِ كِفَّةُ

وقال الشاعر:

يَرُوعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أَرْضٍ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ
وَأُنشِدُنِي ابْنَ رُحَيْمِ الْقَرَاطِيسِيِّ الشَّاعِرِ وَرَمَى شَاطِرًا بِالْجَبَنِ، فَقَالَ:

فِي النَّوْمِ إِنْسَانًا فَوَارَى نَفْسَهُ أَشْهَرُ
وَيَقُولُونَ فِي صِفَةِ الْحَدِيدِ إِذَا أَرَادُوا أَنَّهُ خَالِصٌ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ هِمْيَانَ:

يَمْشُونَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ تَنْكِبًا
وقال ابنُ لجأ:

أَخْضَرَ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ جَمِجِمٌ
وقال الأعشى في غير هذا:

مَا الْأَكْسُ شَبَهُ بِالْأُرِّ عِنْدَ الْهَيْجَا وَقَلَّ الْبُصَاقُ
وقال الأعشى:

نَقَاتِلَ بِالْعِصِيِّ تُرَامِي بِالْحَجَارَةِ
وقال الأخطل:

تَرَكْتُ أَسْيَافُنَا حِينَ لِأَعْدَائِنَا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ
جُرْدَتِ
وَأُنشِدُ الْأَصْمَعِيَّ لِلْجَعْدِيِّ:

فَزَارَةَ إِثْنَهَا ثَلَبْتَ الْحَلَبَ الْحَلَائِبَ

يقول: لا تُلْبِثُ الحَلَائِبَ حَلْبًا حَتَّى تَهْزِمَهُمْ.

السُّنْدَلُ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وِطَائِرُ يَسْبِخُ فِي جَاحِمٍ كَمَا هِرٌ يَسْبِخُ فِي عَمْرِ

فهذا طائرٌ يسمَّى سُنْدَلٌ، وهو هُنْدِيٌّ، يَدْخُلُ فِي أَتُونِ النَّارِ وَيُخْرَجُ وَلَا يَحْتَرِقُ لَهُ رِبْشَةٌ. ذكر ما لا يحترق وزعم ثُمَامَةُ أَنَّ المَأْمُونِ قَالَ: لو أَخَذَ إنْسَانٌ هَذَا الطُّحْلَبَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى وَجْهِ المَاءِ، فِي مَنَاقِعِ المِيَاهِ، فَجَفَّفَهُ فِي الظِّلِّ وَأَلْقَاهُ فِي النَّارِ لَمَا كَانَ يَحْتَرِقُ. وَزَعَمُوا أَنَّ الفَلْفَلَ لَا يَصْرُهُ الحَرَقُ، وَلَا الغَرَقُ، وَالمَطَّلَقُ لَا يَصِيرُ جَمْرًا أَبَدًا، قَالَ: وَكَذَلِكَ المَعْرَةَ.

فكَأَنَّ هَذَا الطَّائِرَ فِي طَبَاعِهِ وَفِي طَبَاعِ رِبْشَتِهِ مَزَاجٌ مِنْ طَلَاءِ النَّفَاطِينِ، وَأُظِنَّ هَذَا مِنْ طَلْقِ وَخَطْمِيٍّ وَمَعْرَةَ. وَقَدْ رَأَيْتُ عُودًا يُؤْتَى بِهِ مِنْ نَاحِيَةِ كِرْزِمَانَ لَا يَحْتَرِقُ، وَكَانَ عِنْدَنَا نَصْرَانِيٌّ فِي عُنُقِهِ صَليْبٌ مِنْهُ، وَكَانَ يَقُولُ لِضَعْفَاءِ النَّاسِ: هَذَا العُودُ مِنَ الخَشْبَةِ الَّتِي صُلبَ عَلَيْهَا المَسِيحُ، وَالنَّارُ لَا تَعْمَلُ فِيهَا، فَكَانَ يَكْتَسِبُ بِذَلِكَ، حَتَّى قُطِنَ لَهُ وَعُورِضَ بِهَذَا العُودِ. المَاهِرُ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

كَمَا هِرٌ يَسْبِخُ فِي عَمْرِ

فالماهر هو السَّابِحُ المَاهِرُ وَقَالَ الأَعَشَى:

الفِرَاتِيَّ إِذَا مَا طَمَا يَقْذِفُ بِالبُوصِيِّ وَالمَاهِرِ

وقال الربيع بن قَعْنَب:

المَاهِرَ فِي عَمْرِيهِ كَلْبِ المَاءِ فِي يَوْمِ مَطِيرِ

لِطَعَةِ الذَّنْبِ صَوْنَةَ السَّرْفَةِ وَالدَّبْرِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

ولِطَعَةِ الذَّنْبِ عَلَى حَسْوِ صَنْعَةِ السَّرْفَةِ وَالدَّبْرِ

قَالَ: فَإِنَّ الذَّنْبَ يَأْتِي الجَمَلَ المَيِّتَ فِيفْضِي بِغَمْغَمَتِهِ، فَيَعْتَمِدُ عَلَى حِجَاجِ عَيْنِهِ فَيُلْحَسُ عَيْنَهُ بِلِسَانِهِ حَسِيًّا، فَكَأَنَّمَا قُورَتْ عَيْنُهُ تَقْوِيرًا، لِمَا أُعْطِيَ مِنْ قُوَّةِ الرَّدَّةِ، وَرَدُّهُ لِسَانَهُ أَشَدُّ مَرًّا فِي اللَّحْمِ وَالعَصَبِ مِنْ لِسَانِ البَقْرِ فِي الخَلَى.

فَأَمَّا عَصْنَتُهُ وَمَصْنَتُهُ فَلَيْسَ يَقْعُ عَلَى شَيْءٍ عَظْمًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ بِالْغَا بِلَا مَعَانَاةٍ، مِنْ شِدَّةِ فَكِيهِ.

ويقال: إِنَّه ليس في الأرض سِعٌّ يعصُّ على عظمٍ إِلَّا وَلَكَسْرَتَه صَوْتُ بين لحييه، إِلَّا الذُّئْبُ،
فإنَّ أسنانه توصف بأثها تبرى العظم بَرِي السَّيْفِ المنعوت بأنَّ ضربته من شدَّة مُرورها في
العظم، ومن قلة ثبات العظم له، لا يكون له صوت، قال الرُّبَيْر بن عبد المطلب:

نخوة المحتال ^{بغموض} عني صوت صرته صموت

ولذلك قالوا في المثل: ضربه ضربةً فكأنما أخطأه، لسرعة المرِّ، لأنَّه لم يكن له صوت.
وقال الرَّاجز في صفة الذُّئْب:

أطلس يخفي شخصه عُبارُه شدِّقه شَفْرته ونازُه

وسنأتي على صفة الذئب، في غير هذا الباب من أمره في موضعه إن شاء الله تعالى.
وأما ذكر صنعة السُّرْفَةِ والدَّبْرِ، فإنَّه يعني حكمتها في صنعة بيوتها، فإنَّ فيها صنعةً عجيبةً.
سمع القُرَاد والحِجْر وأما قوله:

ومسمع القردان في منهلٍ أعجب ممَّا قيل في الحِجْر
فإنهم يقولون: أسمع من قَرَسٍ، ويجعلون الحِجْر فرساً بلا

هاء، وإنَّما يعنون بذلك الحِجْر، لأنها أسمع.

قال: والحِجْر وإنَّ ضُرِبَ بها المثل، فالقُرَادُ أعجب منها، لأنها
تكون في المنهل فتموج ليلة الوِرد، في وقت يكون بينها وبين
الإبل التي تريد الورود أميالاً، فتزعمُ الأعراب أنها تسمعُ
رغاءها وأصوات أخفافها، قبل أن يسمعها شيء.

والعرب تقول: أسمع من قُرَاد، وقال الرَّاجز:

من قَرخ العُقَابِ الأسحمِ

ما في الجمل من الأعاجيب وأما قوله:

والمقَرَّم المَعْلَم ما إنَّ لمَرارة تُسمَعُ في الذِّكْرِ

وحصية تنصل من جوفه حُدوث الموت والنَّحْرِ يرى بعدهما جازر شقشقة مائلة الهدر

فهذا بابٌ قد غلط فيه من هو أغنى بتعرُّف أعاجيب ما في العالم من يشر.

ولقد تنازع بالبصرة ناسٌ، وفيهم رجلٌ ليس عندنا بالبصرة أطيبُ منه، فأطبِقوا جميعاً على أنَّ
الجمال إذا نُحِر ومات فالثُمَّست حُصيته وشقشقتُهُ أنهما لا توجدان، فقال ذلك الطَّيب: فلعلَّ
مرارة الجمال أيضاً كذلك، ولعلَّه أن تكون له مرارةٌ ما دام حيّاً، ثمَّ تبطل عند الموت والنَّحْرِ،
وإنَّما صرنا نقول: لا مرارة له، لأنَّنا لا نصلُّ إلى رؤية المرارة إلاَّ بعد أن تفارقه الحياة، فلم أجد
ذلك عمل في قلبي، مع إجماعهم على ذلك، فبعثت إلى شيخٍ من جرَّاري باب المغيرة فسألته
عن ذلك، فقال: بلى لعمرى إنهما لتوجدان إن أرادهما مرید، وإنَّما سمعت العامَّة كلمةً، وربَّما
مرَّحنا بها، فيقول أحدنا: حُصية الجمال لا توجد عند مَنحَره أجلُّ واللَّه ما توجدُ عند منحره،
وإنَّما توجد في موضعها، وربَّما كان الجمال خياراً جيِّداً فتلحق خصيته بكليته، فلا توجدان لهذه
العلَّة، فبعثت إليه رسولاً: إنَّه ليس يشفيني إلاَّ المعاينة، فبعث إليَّ بعد ذلك بيومٍ أو يومين مع
خادمي تَفيس، بشقشقةٍ وحُصية.

ومثل هذا كثيرٌ قد يغلط فيه من يشتدُّ حرصه على حكاية الغرائب.

ما في الفرس والثور من الأعاجيب وأمَّا قوله:

وليس للطَّرفِ طِحالٌ وقدشاعهُ العالمُ بالأمرِ فُواد الثَّورِ عَظْمٌ وقِيَعْرُهُ الجازرُ ذو الخبيرِ

وليس عندي في الفرس أنَّه لا طحال له، إلاَّ ما أرى في كتاب الخيل لأبي عبيدة والثَّوادر

لأبي الحسن، وفي الشَّعر لبشر، فإن كان جوف الفرس كجوف البرذون، فأهلُ خراسان من
أهل هذا العسكر، يذبحون في كلِّ أسبوع عدَّة براذين.

وأمَّا العظم الذي يوجد في قلب الثَّور فقد سمعنا بعضهم يقول ذلك، ورأيتُهُ في كتاب الحيوان
لصاحب المنطق.

أعجوبة السمك وأمَّا قوله:

الحيتان أعجوبةً كان منها عاش في البَحْرِ لسانٌ سُقي ملحهُ دماغ السمك النهري

فهو كما قال: لأنَّ سمك البحر كلُّه ليس له لسانٌ ولا دماغ.

القواطع في السمك

وأصنافٌ من جِيتان البحر تجيء في كلِّ عام، في أوقاتٍ معلومةٍ حتَّى تدخل دجلة، ثم تجوز إلى البطاح، فمنها الأسبور، ومنها البرستوك ووقته ومنها الجواف ووقته، وإنما عرِّفت هذه الأصناف بأعيانها وأزمانها لأنها أطيبُ ذلك السمك، وما أشكُّ أن معها أصنافاً آخر يعلم منها أهلُ الأبلَّة مثل الذي أعلم أنا من هذه الأصناف الثلاثة.

كبد الكوسج وأمَّا قوله:

تَظْهَرُ فِي لَيْلِهَا تَوَارَى آخِرَ الدَّهْرِ
يُسَبِّغُ الطَّعْمَ مَا لَمْ يَكْرَهْزَا جُهَ مَاءً عَلَى قَدْرِ
لَهُ شَيْءٌ لِإِزْلَاقِهِ جِرَابٍ وَاسِعِ الشَّجَرِ
فإنَّ سمكاً يقال له الكوسج غليظ الجلد، أجرد، يشبه الجِرِّيَّ،

وليس بالجِرِّي، في جوفها شحمةٌ طيِّبة، فإن اصطادوها ليلاً

وجدوها وإن اصطادوها نهاراً لم يجدوها.

وهذا الخبر شائعٌ في الأبلَّة، وعند جميع البحرِيِّين، وهم يسمُّون

تلك الشَّحمة الكبد.

وأما قولهم: السمكة لا تسبغ طعمها إلَّا مع الماء، فما عند بشرٍ

ولا عندي إلَّا ما ذكر صاحبُ المنطق، وقد عجب بشرٌ من

امتناعها من بلع الطَّعم، وهي مستنقعة في الماء، مع سعة

جِرَابٍ فيها.

والعرب تسمِّي جوف البئر من أعلاه إلى قعره جراب البئر.

وأما ما سوى هذه القصيدة فليس فيها إلا ما يعرف، وقد ذكرناه
في موضعٍ غير هذا من هذا الجزء خاصة.

الصَّبْع

وسنقول في باب الصَّبْع والقنفذ والحرقوق والورل وأشباه ذلك ما أمكن إن شاء الله
تعالى.

قال أبو زياد الكلابي: أكلت الصَّبْع شاة رجلٍ من الأعراب، فجعل يخاطبها ويقول:

يا جَعَارٍ من خُطَّابِكُ دَقُّ العُصْلِ من أنيابِكُ
حذا جُحْرِكُ لا أهَابِكُ

جَعَارٍ: اسمُ الصَّبْع، ولذلك قال الراجز:

الجُفْر السَّمِين وقومُه تجرُّهُمُ صِبَاعُ جَعَارٍ

ثم قال الأعرابي:

صَنَعْتُ شاتي التي أَكَلْتُ مِنْهَا البَطْنَ ثُمَّ جُلْتُ
وَحُنَّتْني وبُسَّ ما فَعَلْتُ
له: لا زلتَ تلقى الهُوَلاسلَ اللهَ عليكَ الحمى
رأيتَ رجلاً معتمًا
لها: كذبتِ يا خباثِ طال ما أمسيْتُ في
اكتراتِ

شاةٌ صبيةٌ غِراثُ
له والقولُ ذو شُجورٍ نَهَبَتْ في قولك كالمجنونِ
وربُّ المُرسلِ الأميرِ لأفجَعنُ بعيرَكَ السَّمِينِ
وَجَحِشِته القَرِينِ تكونَ عُقْلَةَ العُيُونِ
لها وَيَحَكُّ حَذْرِينِي واجتهدِي الجهدِ وواعديني
وبالأمانِي فَعَلَّيْنِي لأقْطَعَنَّ مُلتقى الوتينِ
وأشفي الهَمَّ مِنْ دَفِيفِ قِينِي أو فكذبيني
اتركي حَقِّي وما يليني فشلتُ عندها يميني
تعرَّفِي ذلكَ باليقينِ

: أبالقتلِ لنا تهَدَّدُ
شَيْخٌ مُهْتَرٌ مَقْنَدُ
بِالْجُنِّينِ عَلَيْكَ يَشْهَدُ وَأَنْتَ كَالَّذِي قَدْ أَعْهَدُ
لَهَا: فَأَبْشِرِي وَأَبْشِرِي تَجَرَدْتُ لَشَأْنِي فَاصْبِرِي
زَعَمْتَ قَدْ أَمَنْتِ مِنْكَ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْأَكْبَرِ
ذِي ثَرِيَّةٍ لَمْ يَكْفِرْ لِأَخْضِبَنَّ مِنْكَ جَنْبَ الْمَنْحَرِ
مَنْ نَازَعَ مَذَكَّرِي تَتْرَكِينَ أَحْمَرِي وَبَقَّرِي
فَأَقْبَلْتُ لِلْقَدْرِ الْمَقْدَرِ الْمَزْعُفِرِ
مَكْبُوبَةً لَوَجْهِهَا وَالْمَنْخَرِ وَالشَّيْخِ قَدْ مَالَ بِغَرْبِ مَجْزِرِ
اشْتَوَى مِنْ أَحْمَرٍ وَأَصْفَرٍ وَمَقْدُورٍ وَمَا لَمْ يُقْدِرِ

جلد الضبع

وقال الآخر:

لَيْتَ لِي تَعْلِينُ مِنْ جِلْدٍ وَشَرَكًا مِنْ اسْتِهَا لَا يَنْقَطِعُ
الْحِذَاءُ يَحْتَذِي الْحَافِي

وهذا يدلُّ على أنَّ جلدها جلدٌ سوء.

وإذا كانت السنَّةُ جدبةً تَأْكُلُ الْمَالَ، سَمَّيْتُهَا الْعَرْبُ الضَّبْعُ، قَالَ الشُّاعِرُ:

حُرَاشَةٌ أَمَّا كُنْتُ ذَا نَفْرِ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمُ الضَّبْعُ

تسمية السنة الجدبة بالضبع

وقال عُمَيْرُ بْنُ الْحَبَابِ:

فَبَشِّرِي الْقَيْنَ بَطْعَنِ شَرَجٍ أَوْلَادَ الضَّبَاعِ الْعُرْجِ
زَالَ إِسْدَائِي لَهُمْ وَتَسْجِي اتَّقُونِي بظُهُورِ ثُبُجِ
يَوْمًا كِيَوْمِ الْمَرْجِ

مما قيل من الشعر في الضباع

وقال رجلٌ من بني ضَبَّة:

ضبِعاً أَكَلتِ آيَارَ أَحْمَرَةٍ اقِير
البطون وقد راحت
منكم غير جعلانٍ ممددة المرافق أنذالٌ عواويرُ
همزٍ ولمزٍ للصديق ولا عدوكم منكم أظافيرُ
ما بطنتم لم يزل على الأقربِ الأدنى

وأنشد:

أمثال السَّبَاعِ فانشَمِرُ
فمنهُم الدَّئِبُ ومنهم النَّمِرُ
والصَّبْعُ العَرَجَاءُ والليثُ الهَصِرُ
وقال العلام:

حلباته الشخص أعكُم الدَّيخُ أفنى سِنَّهُ طول الهرم

وأنشد:

فجاوز الحرص ولا تشمَّمطسايبِ المِشفرِ رحبٍ بلعمه
سالت ذفاريه وشابكالدَّيخِ في يومٍ مُرَشِّ
غَلصُمُه
يقول: وبُرُّ لحيها كثيرٌ كأنَّه شعر ذِيخٍ قد بلَّه المطر، وأنشد:

رأين ماتِحاً بالعَرَبِ تَخَلَّجَتْ أَشْداقُها لِلشُّرْبِ
أشْداقِ الصَّبَاعِ العُلبِ

يعني من الحرص والشَّره، وتمثَّل ابنُ الرُّبَيْرِ:

حُذِينِي فَجَرِّبْنِي جَعارِ
أبشري
أمرئٍ لم يَشْهَدِ اليَوْمَ
ناصره

وإنَّما خصَّ الصَّبَاعُ، لأنَّها تنبش القبور، وذلك من فرط طلبها للحوم النَّاسِ إذا لم تجدها

ظاهرة، وقال تَابُطُ شَرًّا:

تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي عَلَيْكُمْ وَلكن خامري أَمَّ
مُحَرَّمُ
ضربوا رأسي وفي الرَّأسِ عِنْد الملتقى ثمَّ
عامر

سائري
الليالي مُبْسلاً
بالجرائر

أكثرني
لا أبغي حياةً
تسرُّني

إعجابُ الصُّباع بالقتلى

قال اليعقوبي: وإذا بقي القتلُ بالعراء انتفخ أيره، لأنه إذا ضربت عنقه يكون منبطحاً على وجهه، فإذا انتفخ انقلب، فعند ذلك تجيء الصُّبع فتركبه فتقضي حاجتها ثم تأكله. وكانت مع عبد الملك جاريةٌ شهدت معه حربَ مُصَعَب، فنظرت إلى مصعبٍ وقد انقلبَ وانتفخ أيره وورم وغلظ، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أغلظ أيور المنافقين. فلطمها عبد الملك

حديث امرأة وزوجها

ابنُ الأعرابي: قالت امرأةٌ لزوجها، وكانت صغيرة الركب، وكان زوجها صغير الأير: ما للرجل في عِظَم الرِّكب منفعة، وإنما الشَّان في ضيق المدخل، وفي المصِّ والحرارة، ولا ينبغي أن يلتفت إلى ما ليس من هذا في شيء، وكذلك الأير، إنما ينبغي أن تنظر المرأة إلى حَرِّ جلدته، وطيب عُسيلته، ولا تلتفت إلى كِبَره وصِغره، وأنعظ الرجل على حديثها إنعاضاً شديداً، فطمع

أن ترى أيره في تلك الحال عظيماً، فأراها إيّاه، وفي البيت سراج، فجعل الرجلٌ يشير إلى أيره، وعينها طامحةٌ إلى ظلِّ أيره في أضلِّ الحائط، فقال: يا كذابة، لشدة شهوتك في عظم ظلِّ الأير لم تفهمي عني شيئاً، قالت: أما إنك لو كنت جاهلاً كان أنعم لبالك يا مائق، لو كان منفعةُ عظم الأير كمنفعة عظم الركب لما طمحتُ عيني إليه، قال الرجل: فإنَّ للركب العظيم حظاً في العين، وعلى ذلك تتحرّك له الشهوة، قالت: وما تصنع بالحركة، وشكُّ يؤدِّي إلى شك؟ الأير إن عظم فقد ناك جميع الجِر، ودخل في تلك الزوايا التي لم تزل تنتظم من بعيد، وغيرها المنتظم دونها، وإذا صغر ينيكُ ثلث الجِر ونصفه وثلثيه، فمن يسرُّه أن يأكل بثلث بطنه، أو يشرب بثلث بطنه؟ قال اليقطري: أمكنها والله من القول ما لم يمكنه.

حديث معاوية وجاريتة الخراسانية

وقال: وخلا معاوية بجارية له خراسانية، فما همَّ بها نظر إلى وصيفة في الدار، فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج فقال للخراسانية: ما اسم الأسد بالفارسية؟ قال: كفتار، فخرج

وهو يقول: ما الكفتار؟ ف قيل له: الكفتار الضبع، فقال: ما لها قاتلها الله، أدركت بثأرها والفُرسُ إذا استقبحت وجه الإنسان قالت: رُوي كَفْتار، أي وجه الضبع.

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

قال: وكتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة بن مسلم، حين عزل وكيع بن سُودٍ عن رياسة بني تميم، وولَّاهَا ضِرار بن حسين الصَّبِي: عزَلت السَّبَاعَ وولَّيت الصَّبَاعَ.

شعر فيه ذكر الضبع

وأنشد لعباس بن مرداسٍ السُّلَمِيّ:

مات مِنْهُمْ مَنْ جَرَحْنَا
لأَصْبَحَتْ
بأكناف الأراك عرائسا
وقال جريبة بن أسيم:

مِليُّ عني يساراً
ورافعا
وأسلم إنَّ الأوهنين الأقاربُ
تدفنتني في ضراً
بديمومةٍ تنزو على الجنادبُ
وادفنتني
قام في مالٍ لك الدهر
أنت لم تعقر عليّ
مطيتي
فرعلٌ مثل الصريمة
يأكلني الذئبُ فيما
دفتني
حاربُ
هليبٌ لا يزال مآبطا ذربت أنيابه والمخالب

وأنشد:

جارهم تأكله الوادي وترميه الشجر
يقول: خذلوه حتى أكله أم السَّبَاع، وأضعفها، وقوله: وترميه
الشَّجَر، يقول: حتى صار يرميه من لا يرمي أحداً.

بقية الكلام في الضبع

وقد بقي من القول في الضَّبُع ما سنكتبه في باب القول في
الذئب.

الحرقوص

وأما الحرقوص فزعموا أنه دويبة أكبر من البرغوث، وأكثر ما ينبت له جناحان بعد حين،
وذلك له خير.
وهذا المعنى يعتري النمل - وعند ذلك يكون هلاكه - ويعتري الدعاميص إذا صارت قراشاً،
ويعتري الجعلان.
والحرقوص دويبة عَضُّها أشدُّ من عَضِّ البراغيث، وما أكثر ما يَعَضُّ أحرأ النساء والخُصى،
وقد سميَّ بحرقوص من مازنِ أبو كابية بن حرقوص، قال الشاعر:

بني كابية بن حُرْقُوصِ هامتة كالأفحوصِ

وقال بشر بن المعتمر، في شعره المزاج، حين ذكر فضل عليّ على الخوارج، وهو

قوله: ??? نق صفحة 455 من الكتاب قال: والحرقوص يسمى بالثُّهيك، وعَضُّ الثُّهيك ذلك
الموضع من امرأة أعرابيِّ فقال:

أنا للحرقوص إنْ عَضَّ
بَيْنَ رجليها بِجِدِّ عَقُورِ

تطيب بنفسي بعد ما
تستفزني

والذين ذهبوا إلى أنه البرغوث نفسه قالوا: الدليل على ذلك قول الطرمّاح:

أَنْ حُرْقَوْصاً عَلَى ظَهْرٍ عَلَى صَفِّي تَمِيمٍ لَوْلَتِ

قالوا: ولو كان له جناحان لما أركبه ظهر القملة، وليس في قول الطرمّاح دليل على ما قال،
وقال بعض الأعراب، وعض الحرقوص حُصِيَّته:

مَعَ الْحِرَاقِصِ الْقَرَارَا لَيْلاً تَقْرُ وَلَا نَهَارَا
يُغَالِبَنَّ الرَّجَالَ عَلَى حُصَاهِمِ الْأَحْرَاحِ دَسًّا وَانْجِحَارَا
وقالت امرأة تُعْنِي زَوْجَهَا:

من الحرقوصِ أَنْ عَضَّ بِفَخِذِي مِنْهَا مَا يَجْدُّ غِيورُ

وَقَعَ الْحُرْقَوْصُ مِنِّي لَدَّةَ الدُّنْيَا إِلَيْهِ تَصِيرُ
مَوْعِياً وَأُنشِدُوا لِآخِرِ:

بِي دُو النَّقْطَتَيْنِ الْأَمْلِيْقِرُضِ أحياناً وحيناً ينهسُ
فقد وصفه هذا كما ترى، وهذا يصدّق قول الآخر، ويردُّ على من جعل الحراقيص من
البراغيث، قال الآخر:

بِاللَّيْلِ جَوَّاباً عَلَى هُنَالِكَ مِنْ عَضِّ
الْحِرَاقِصِ

الورل

وسنقول في الورل بما أمكن من القول إن شاء الله تعالى،
وعلى أننا قد فرّقنا القول فيه على أبواب قد كتبناها قبل هذا.
قالوا: الورل يقتل الصّب، وهو أشدُّ منه، وأجودُ سلاحاً والطفُ
بدناً، قالوا: والسّافِد منها يكون مهزولاً، وهو الذي يزيّف إلى

الإنسان وينفخ ويتوَعَّد.

قال: واصطدت منها واحداً فكسرت حجراً، وأخذت مَرَوْهً
فذبته بها، حتَّى قلت قد نخعته، فاسبطرَّ لِحِينِهِ فأردت أن
أصغي إليه وأشرتُ بإبهامي في فيه، فعضَّ عليها عضَّةً اختلعت
أنيابته، فلم يخلِّها حتى عضت على رأسه.
قال: فأتيثُ أهلي فشققْتُ بطنه، فإذا فيها حيتان عظيمتان إلاَّ
الرَّأس.

قال: وهو يشدخ رأسَ الحيَّة ثمَّ يبتلعها فلا يضُرُّه سمُّها، وهذا
عنده أعجب ما فيه، فكيف لو رأى الحوَّائين عندنا، وأحدُّهم
يُعطى الشيءَ اليسير، فإن شاء أكل الأفعى نيِّاً، وإن شاء شِواءً،
وإن شاء قديداً فلا يضُرُّه ذلك بقليلٍ ولا كثير.
وفي الورد أنه ليس شيءٌ من الحيوان أقوى على أكل الحيات
وقتلها منه، ولا أكثر سفاداً، حتى لقد طمَّ في ذلك على التيس،
وعلى الجمل، وعلى العُصفور، وعلى الخنزير، وعلى الدَّبَّانِ في
العدد، وفي طول المكث، وفيه أنَّه لا يحتفر لنفسه بيتاً، ويغتصب
كلَّ شيء بيته؛ لأنها أيُّ جحر دخلته هربَ منه صاحبه، فالورد
يغتصب الحيَّة بيته كما تغتصب الحيَّة بيوت سائر الأحناش

والطَّيرُ وَالصَّبَّ.

وهو أيضاً من المراكب، وهو أيضاً مما يُستطاب، وله شحمة، وَيَسْتطِيبُونَ لحمَ ذنبه، والورل دابَّةٌ خفيفُ الحَرَكَةِ ذاهباً وجائياً، ويميناً وشمالاً، وليس شيءٌ بعد العظاءة أكثر تَلُفُّتاً منه وتوقفاً.

زعم المجوس في العظاءة

وتزعم المجوس أنَّ أَهْرَمَنَ، وهو إبليس، لَمَّا جلس في مجلسه في أوَّل الدهر ليقسِّم الشرَّ والسُّموم - فيكون ذلك عدَّةً على مناهضة صاحب الخير إذا انقضى الأجل بينهما، ولأنَّ من طباعه أيضاً فعلَ الشر على كلِّ حال - كانت العظاءة آخِرَ من حَصَرَ، فَحَصَرَتْ وقد قسم السمَّ كلَّه، فتداخلها الحسرةُ والأسف، فتراها إذا اشتدَّت وقفتُ وِقْفَةً تذكُّرٍ لما فاتَّها من نصيبها من السُّم، ولتفريطها في الإبطاء حتى صارت لا تسكن إلاَّ في الخرابات والحُشوش؛ لأنها حين لم يكن فيها من السمِّ شيءٌ لم تطلبْ مواضعَ الناس كالورَّعة التي تسكنُ معهم البيوت، وتكرَّع في آنيتهم الماءَ وتمجُّه، وتُزاقُ الحيات وتَهيجُّها عليهم، ولذلك نفرت طباعُ النَّاسِ من الورَّعة، فقتلوها تحت كلِّ حجر، وسلمت

منهم العظاءة تسليماً منهم.

ولم أر قولاً أشدَّ تناقضاً، ولا أَمُوق من قولهم هذا؛ لأنَّ العظاءة لم يكن ليعترِبَها من الأسف على فوت السمِّ على ما ذكروا أوَّلاً إلاَّ وفي طبعها من الشَّرارة الغريزيَّة أكثر ممَّا في طبع الأفعى.

شعر فيه ذكر للورل

قال الرَّاجز في معنى الأوَّل:

وَرَلًا رَقْرَقَ فِي سَرَابٍ هَذَا أَوَّلُ التَّوَابِ
قال: ورقرقته: سُرْعته ذاهباً وجائياً وبميناً وشمالاً.

قال أبو دُواد الإيادي، في صفة لسان فرسه:

لِسَانُ كَجَبَّةِ الْوَرَلِ الْأَخِ مَجَّ الثَّرَى عَلَيْهِ الْعَرَارُ
وقال خالد بن عُجْرَة:

لِسَانَهُ وَرَلٌ عَلَيْهِ مَصْنُوتٌ مَجَّ الْعَرَارِ
ووصف الأصمعيُّ حمرته في بعض أراجيزه، فقال:

مَغْرُ ذِي أَضْرُسٍ وَصَكِّ مِنْهُ بَعْدَ ضَيْقِ صَنْكِ

فروة القنفذ

قد قلنا في القنفذ، وصنيعه في الحيات وفي الأفاعي خاصَّة، وفي أنه من المراكب، وفي غير ذلك من أمره، فيما تقدم هذا المكان من هذا الكتاب.

ويقول من نَرَع فروته بأنها مملوءة شحيمة، والأعراب تستطيبُّ أكله، وهو طيبُّ للأرواح. شعر فيه ذكر للقنفذ والقنفذ لا يظهر إلا بالليل، كالمستخفي، فلذلك شبه به، قال أيمن بن خُرَيْم:

كقنفذ الرَّمْل لا تخفى مدارجُه إذا نام عنه النَّاسُ لم يتم
وقال عَبْدَةُ بن الطيب:

إذا دَمَسَ الظَّلَامُ عليهمُ جوا قَنَافِدَ بالتَّمِيمَةِ تَمَرَعُ

وقال:

شَرَيْتُ الأُمُورَ وَغَالَيْتُهَا فَأَوْلَى لَكُمْ يَا بَنِي الأَعْرَجِ
تَدْبُونُ حَوْلَ رَكِيَّاتِكُمْ القَنَافِدِ فِي العَرَفِجِ

وقال الآخر في غير هذا الباب:

قِيْرًا أَوْ كُحَيْلًا ينعصرُ من قُنْفُذِ ذِفْرَاهِ الذِّفْرِ

وقال عَبَّاسُ بن مرداس السُّلَمِيُّ، يَضْرِبُ المَثَلَ بِهِ وبأذنيه فِي القَلَّةِ وَالصَّعْرِ:

لم تك كَابِنِ الشَّرِيدِ أَمْ بُوْكَ أَبُو سَالِمِ
حَمَلَتِ المَيْنِ وَأَثْقَالَهَا أَذَتِي قَنْفُذِ رَازِمِ

وَأَشْبَهَتْ جَدَّكَ شَرَّ الجَدْوِ وَالعِرْقُ يُسْرِي إِلَى النَّائِمِ

وَأَنشَدَنِي الدَّلْهُمُ بن شهاب، أَحَدِ بَنِي عَوْفِ بن كَنَانَةَ، مِنْ عُكَلٍ، قَالَ: أَنشَدَنِيهِ نَفِيعُ بن طَارِقِ

فِي تَشْبِيهِ رَكَبِ المَرْأَةِ إِذَا جَمَّمَ بِجِلْدِ القَنْفُذِ:

من عنائه وشقوته رأيت هدجاً في مشيته
جلاً الشيبُ عذارٍ لحيته ثمانى عشرة من حجته
ظناً بغير رؤيته تمشى بهم ضيقه من همته
يخزه الله برحب سעתه بعد حلقه ونورته
كقنفذ القف اختفى في فروته الأير بنزع رهوته
يكرُّ راجعاً بكرته فيه وهجاً من ملته

من تسمى بقنفذ وينسَمون بالقنفاذ، وذو البرة الذي ذكره عمرو بن كلثوم هو الذي يقال له:

بُرة القُنْفُذِ، وهو كعب بن زهير، وهو قوله:

البُرة الذي حُدِّثَتْ عَنْهُ نَحْمَى وَنَشْفِيسِ المُلْجَيْنَا
كبار القنفاذ ومن القنفاذ جنس وهو أعظم من هذه القنفاذ؛

وذلك أنَّ لها شوكة كصياصي الحاكة، وإنما هي مدارى قد

سُخِّرَتْ لها وذُلَّتْ تلك المغارز والمنابت، ويكون متى شاء أن

ينصل منها رمى به الشخص الذي يخافه، فعلاحتي كآته السهم الذي يخرج الوتر.

ولم أر أشبه به في الحذف من شجر الخروع؛ فإنَّ الحبَّ إذا جفَّ في أكمامه، وتصدَّع عنه بعض الصدع، حذف به بعضُ الغصون، فربَّما وقع على قاب الرَّمح الطويل وأكثر من ذلك،

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

والبردون يسقط على جلده ذبابة فيحرِّك ذلك الموضع، فهذا عامُّ في الخيل، فأما النَّاس فإنَّ المخنث ربما حرَّك شيئاً من جسده، وأيِّ موضعٍ شاء من بدنه.

والكاعاني، وهو اسم الذي يتجنُّ أو يتفالج فالج الرعدة والارتعاش، فإنه يحكي من صرع الشيطان، ومن الإزباد، ومن التَّفضة، ما ليس يصدرُ عنهما، وربَّما جمعهما في نقابٍ واحد، فأراك الله تعالى منه مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً بما لا يجيء من طباع المجنون. حكاية الإنسان للأصوات وغيرها والإنسان العاقل وإن كان لا يحسن بيني كهيئة وكر الثُّبور، ونسج العنكبوت، فإنه إذا صار إلى حكاية أصوات البهائم وجميع الدوابِّ وحكاية العُميان والعُرْجان؛ والغافأء، وإلى أن يصوِّر أصنافَ الحيوان بيده، بلَّغ من حكايته الصُّورة والصوت والحركة ما لا يبلغه المحكيّ.

الحركات العجيبة وفي النَّاس من يحرك أذنيه من بين سائر جسده، وربَّما حرَّك إحداهما قبل الأخرى، ومنهم من يحرك شعر رأسه، كما أنَّ منهم من يبكي إذا شاء، ويضحك إذا شاء. وخبرني بعضهم أنَّه رأى من يبكي بإحدى عينيه، وبالتي يقترحها عليه الغير.

وحكى المكِّي عن جوارٍ باليمن، لهنَّ قرونٌ مضمفورةٌ من شعر رؤوسهن، وأنَّ إحداهنَّ تلعب وترقص على إيقاعٍ موزون، ثمَّ تُشخص قرناً من تلك القرون، ثمَّ تلعب وترقص، ثمَّ تُشخص من تلك الصَّفائر المرصعة واحدةً بعد أخرى، حتَّى تنتصب كأنها قرونٌ أوأبْدُ في رأسها، فقلت

له: فلعلَّ التَّصْفِيرَ والترصيع أن يكون شديد الفُئْلِ ببعض الغِسلِ والتَّلبيدِ، فإذا أخرجته بالحركة التي تُثْبِتُها في أصل تلك الضفيرة شَخَّصت، فلم أره ذهبَ إلى ذلك، ورأيته يحقِّقه ويستشهد بأخيه.

نوم الذئب وتزعُمُ الأعراب أنَّ الذئب ينامُ بإحدى عينيه، ويزعمون أنَّ ذلك من حاقِّ الحذر، وينشد شعر حُميد بن تَوْرٍ الهلاليِّ، وهو قوله:

بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَبْقِي الْإِلَّ بِأُخْرَى فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ
وَأَنَا أَظُنُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي مَعْنَى مَا مُدِحٌ بِهِ تَأَبَّطُ شَرًّا:

خَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى النَّوْمَ لِمَكَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْخَانٍ

وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيئَةً قَلْبِهِ سَلَّةٌ مِنْ حَدِّ أَحْصَرَ بَاتِكِ
قولهم: أسمع من قنفذٍ ومن دلدلٍ ويقال: أسمعُ من قُنْفُذٍ، وقد ينبغي أن يكون قولهم: أسمعُ من الدُّلْدُلِ من الأمثالِ المولَّدة.

المتقاربات من الحيوان وفرق ما بين القنفذِ والدُّلْدُلِ، كفرق ما بين القَارِ والجُرْدَانِ، والبقرِ والجواميسِ، والبَحَاتِيِّ والعِرَابِ، والصَّانِ والمعزِ، والدَّرِّ والتملِ، والجَوَافِ والأسبورِ، وأجناسِ من الحياتِ، وغير ذلك؛ فإنَّ هذه الأجناسِ منها ما يتسافد ويتلاقح، ومنها ما لا يكون ذلك فيها. قولهم: افحش من فاسية ويقال: إِنَّهُ لَأَفْحَشُ مِنْ فَاسِيَةٍ وهي الخنفساء؛ لَأَنَّهَا تَفْسُو فِي يَدِ مَنْ مَسَّهَا، وقال بعضهم: إِنَّهُ عَنِ الظَّرْبَانِ؛ لِأَنَّ الظَّرْبَانَ يَفْسُو فِي وَسْطِ الْهَجْمَةِ، فَتَتَفَرَّقُ الْإِبِلُ فَلَا تَجْتَمِعُ إِلَّا بِالْجَهْدِ الشَّدِيدِ، وَيُقَالُ: أَلْجُ مِنَ الْخَنْفَسَاءِ، وَقَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ وَهُوَ يَهْجُو رَجُلًا

لَجَاجًا مِنَ الْخَنْفَسَاءِ زَهِي إِذَا مَا مَسَّيَ مِنْ عُرَابِ
رجز في الصبي وأنشد أبو الرُّدَيْنِي، عن عبد الله بن كُرَاعٍ، أخي سُويد بن كُرَاعٍ، فِي الصَّبِيِّ:

يَجْنُ أَوْلَادَ طَرِيفِ رَهْطَا أَوْلَهُ شُمُطَا
عَضَارِيْطَ طَوَالًا تُطَّاكَ أَصْبَعُ مُرْطٍ هَبْطَنَ هَبْطَا
يَفْسِيْنَ هَزِيْلًا مَرْطَا لَكُمْ عِنْدِي هِنَاءٌ لَعَطَا
خَطْمًا عَلَى آنِفِكُمْ وَعَلَطَا

قصة أبي مجيب وحكى أبو مجيب، ما أصابه من أهله، ثم
قال: وقد رأيت رؤيا عبَّرتها: رأيتُ كأنِّي طردتُ أرنباً
فاتَّجرتُ، فحفرْتُ عنها حَتَّى استخرجتها، فرجوتُ أن يكون
ذلكُ ولداً أُرزقه، وإنه كانت لي ابنة عمِّ هاهنا، فأردتُ أن
أتزوَّجها؛ فما ترى؟ قلت: تزوَّجها على بركة الله تعالى، ففعل؛
ثمَّ استأذنتني أن يقيم عندنا أياماً؛ فأقام ثم أتاني فقلتُ:
لاتخبرني بشيءٍ حتى أنشدك، ثمَّ أنشدته هذه الأبيات:

لَيْتَ شِعْرِي عَن أَبِي مَجِيبَاتٍ فِي مَجَاسِدِ وَطِيبِ
مُعَانِقًا لِلرَّشَاءِ الرَّبِيبِ أَفْحَمَ الْجِفَارِ فِي الْقَلِيبِ
كَانَ رِخْوًا يَابَسَ الْقَضِيبِ
قال: بلى كان والله رخواً يابساً القضيبي، والله لكأنتك كنت معنا

ومُشاهِدنا.

خصال الفهد

فأمَّا الفهد؛ فالذي يحضُّرنا من خصاله أنه يقال إن عظام السباع تشتهي ريحه، وتستدلُّ
برائحته على مكانه وتُعجَّب بلحمه أشدَّ العجب.
وقد يصادُ بضروبٍ، منها الصَّوت الحسن؛ فإنه يُصغِي إليه إصغاءً حسناً، وإذا اصطادوا المسنَّ
كان أنفعَ لأهله في الصَّيد من الجرو الذي يربُّونه؛ لأنَّ الجرو يخرج حَبًّا، ويخرج المسنُّ على
التأديب صَيوداً غيرَ حَبٍّ ولا مُواكِلٍ في صيده، وهو أنفع من صيد كلِّ صائد، وأحسن في العين،
وله فيه تديُّرٌ عجيب.
وليس شيءٌ في مثل جسم الفهد إلاَّ والفهد أثقلُ منه، وأحطمُ لظهر الدابة التي يرقى على

مؤخرها.

والفهد أنوم الخلق، وليس نومه كنوم الكلب؛ لأن الكلب نومه نعاس واختلاس، والفهد نومه مُصَمَت: قال أبو حنيفة التميمي:

بعذاريتها أناساً نام حلمهم وعنك وعنهما نومة الفهد
وقال حميد بن ثور الهلالي:

ونمت كتوم الفهد عن ذي طعاماً دونه وهو جائع
حفيظة

أرجوزة في صفة الفهد

وقال الرقاشي في صفة الفهد:

أغتدى والليل أحوى الويلصُّبُ في الظلماء ذو تهدي
اهتزازِ العضبِ ذي البهرنيتِ الشدقين ملتئد
مضبورِ القرا علكدِ طاوى الحشا في طيِّ جشمٍ

البراجيم هصور الجدِّ ذي نكتٍ مسودِّ
وسحر اللجين سحر ورثرنبتٍ أغلب مصعدِّ
كالليث إلا عاين بعدَ الجهدِ قطة الردف ردف العبد
سرعتنا بحس صلوانقضَّ يادو غير مجرهدِّ
ملهب مه وختل إدِّ انسياب الحية العريد

وقوله: مثل انسياب الحية العريد، هذه الحية عين الدابة التي يقال لها العريد، وقد ذكرها

مالك بن حريم في قوله لعمر بن معد يكرب:

عمرو لو أبصرتني لرفوتني ف ياخيـل رفوا
والبيض تلمع بينهم بها الفرسان عصوا
فلقيت مني عربداً أمام الخيل قطوا
رأيت نساءهم يدخلن تحت البيت حبوا
وسمعت زجر الخيل في الظلام هبوا
فيلق ملمومة تسطو على الخبرات سطوا

وقال الرقاشي أيضاً في الفهد:

غدا للصيد آل جَعْفَرِ رسولِ الله أهلُ المَفْحَرِ
ذات قَرَأَ مُضَبَّرَ وكاهلِ بادٍ وَعَنْقُ أَزْهَرِ
ومُفْلَةٍ سالِ سَوَادُ المَحْجَرِ إلى شَيْدِقِ رُحَابِ المَفْعَرِ
طالَ وجليدِ أَنْمَرِ وأَيْطَلِ مستَأْسِدِ غَضَنْفَرِ
مكسورةٍ لم تَجْبِرِ قُطَسَاءَ فيها رَحْبُ في المنخرِ
وجارِ التتفلِ المَقْوَرِ إسحاقِ في التَعْدَرِ
على الخَدَّينِ والمُعَدَّرِ

نعت ابن أبي كريمة للفهد

وقال ابنُ أبي كريمة في صفة الفهد:

بناتِ القَفْرِ حين تشعَّبَهُوت عليها بالمنايا الشواعبِ

نَبْغِي الصيدِ طوراً ^{بمُخْطِفةِ الأحشاءِ رَحْبِ} ^{الترائبِ}
مَوْفِةِ الأذنانِ ثَمَرِ ظُهُورِها ^{مُخَطَّطَةَ الآماقِ غلبِ العَوَّارِبِ}
مَوْلَعَةٍ فُطْحِ الجِبَاهِ عوابِسِ ^{على أشداقها خطٌّ}
فوارِسُ ما لم تَلِقَ حَرْباً ^{آتَسَتْ بالبيدِ شُهَبِ}
ورجلُهُ ^{الكتائبِ}
تضائِلُ حَتَّى ما تكاد تُبَيِّئُها ^{لدى الصَّرَّاتِ غيرِ}
أجِيادِ الفرائسِ أذُو عَمَلَةٍ تحكي عِناقَ الحَبائبِ ^{كواذبِ}

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

قال: والصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهوديِّ وقد عرفنا

مقالهم في الجرِّيِّ.

والعامَّة تزعم أن الفأرة كانت يهوديَّة سحَّارة، والأرضة يهودية

أيضاً عندهم؛ ولذلك يَلطَّخون الأجداع بشحم الجُرور.
والضَّبَّ يهوديٌّ؛ ولذلك قال بعضُ القصاص لرجل أكل ضَبًّا: اعلمْ
أَنَّكَ أَكَلْتَ شَيْخاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
ولا أراهم يضيفون إلى النَّصرانية شيئاً من السَّبَّاع والحشرات.
ولذلك قال أبو علقمة: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف
رجحون، ف قيل له: فإنَّ يوسف لم يأكله الذَّئب، وإنما كذبوا على
الذَّئب؛ ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: "وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ
كَذِبٍ"، قال: فهذا اسمٌ للذئب الذي لم يأكلْ يوسف.
فينبغي أن يكونَ ذلك الاسمُ لجميعِ الذَّئاب، لأنَّ الذئابَ كلها لم
تأكله.

زعم المجوس في لبس أعوان سومين

وتزعمُ المجوس أنَّ بَشُوتَن الذي ينتظرون خروجه، ويزعمون
أنَّ الملك يصيرُ إليه، يخرج على بقرةٍ ذاتِ قرون، ومعه سبعون
رجلاً عليهم جلود الفهود، لا يعرفُ هراً ولا يراً حتى يأخذ جميع
الدنيا.

الهَرَّ والبرَّ وكذلك إغازهم في الهَرَّ والبرَّ، وابن الكلبي يزعم عن الشرقي بن القطامي، أن الهَرَّ السنور، والبرَّ الفارة.

جوارح الملوك

والباز والقهد من جوارح الملوك، والشاهين، والصقور، والزرَّق، واليؤيؤ.

وليس ترى شريفاً يستحسن حمل البازي - لأن ذلك من عمل البازيار - ويستهن حمل الصقور والشواهين وغيرها من الجوارح، وما أدري علّة ذلك إلا أنّ البازَ عندهم أعجمي، والصقور عربي.

ومن الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس وينصح العقق، فإنه يستجيب من حيث تستجيب الصقور، ويُرَجِر فيعرف ما يُراد منه ويخبأ الحلّي فيُسأل عنه ويُصاح به فيمضي حتى يقف بصاحبه على المكان الذي خبأه فيه، ولكن لا يلزم البحث عنه. وهو مع ذلك كثيراً ما يُضيع بيضه وفراخه.

مخبئات الدراهم والحلى وثلاثة أشياء تُخبّي الدراهم والحلى، وتفرح بذلك من غير انتفاع به، منها: العقق؛ ومنها ابن مقرض:

دويبة آلق من ابن عرس؛ وهو صعبٌ وحشيٌّ، يحبُّ الدَّراهم،
ويفرحُ بأخذها، ويخبئها، وهو مع ذلك يصيد العصافير صيداً كثيراً،
وذلك أنه يُؤخَذُ فيربطُ بخيطٍ شديد الفتل، ويُقابلُ به بيت
العُصفور، فيدخلُ عليه فيأخذه وفراخه، ولا يقتلها حتى يقتلها
الرجل، فلا يزال كذلك ولو طاف به على ألف جحر، فإذا حلَّ
خيطة ذهبَ ولم يقم.

وضرب من الفار يسرق الدَّراهمَ والدنانير والحلي ويفرح به
ويُظهِرُهُ ويغيِّبه في الجحر وينظرُ إليه ويتقلبُ عليه.
ذنبُ الوزغة قال: وخطب الأشعث فقال: أيُّها الناسُ إنه ما بقي
من عدوِّكم إلا كما بقي من ذنبِ الوزغة تضرب به يميناً وشمالاً
ثم لاتلبث أن تموت فمر به رجلٌ من قشير فسمع كلامه فقال:
قَبَّحَ اللهُ تعالى هذا ورأيه، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس، وتركِ
الاستعداد.

وقد يُقطع ذنبُ الوزغة من ثلثها الأسفل، فتعيش إن أفلتت من
الذَّرِّ.

أشدُّ الحيوان احتمالاً للطعن والبتر وقد تحمل الخنافسُ
والكلابُ من الطَّعن الجائف، والسَّهم النَّافذ؛ ما لا يحتملُ مثله

شيء، والخُنْفَسَاءُ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ وَكَفَاكَ بِالضَّبِّ.
والجمل يكون سَنَامُهُ كَالْهَدَفِ، فَيُكَشَّفُ عَنْهُ جِلْدُهُ فِي
الْمَجْهَدَةِ؛ ثُمَّ يُجْتَثُّ مِنْ أَصْلِهِ بِالشُّفَارِ، ثُمَّ تَعَادُ عَلَيْهِ الْجِلْدَةُ
وَيُدَاوَى فَيَبْرَأُ، وَيَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَهُوَ أَعْجَبُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَبِشِ فِي
قَطْعِ أَلَيْتِهِ مِنْ أَصْلِ عَجَبِ ذَنْبِهِ، وَهِيَ كَالثُّرْسِ، وَرَبْمَا فَعَلَ ذَلِكَ
بِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُلَّ أَلَيْتَهُ إِلَّا بِأَدَاةٍ تَتَّخِذُ، وَلَكِنَّ الْأَلِيَةَ عَلَى
كُلِّ حَالٍ طَرَفٌ زَائِدٌ، وَالسَّنَامُ قَدْ طَبَّقَ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي
الْجَوْفِ.

ذَكَاءُ إِيَّاسٍ وَنَظَرُ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ فِي الرَّحْبَةِ بِوَأَسْطِ إِلَى أَجْرَةَ،
فَقَالَ: تَحْتَ هَذِهِ الْأَجْرَةَ دَابَّةٌ: فَنَزَعُوا الْأَجْرَةَ فَإِذَا تَحْتَهَا حَيَّةٌ
مَتَطَوِّقَةٌ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِأَنِّي رَأَيْتُ مَا بَيْنَ الْأَجْرَتَيْنِ نَدِيًّا
مِنْ جَمِيعِ تِلْكَ الرَّحْبَةِ، فَعَلِمْتُ أَنْ تَحْتَهَا شَيْئًا يَتَنَفَّسُ.
هُدَايَةُ الْكَلَابِ فِي الثَّلُوجِ وَإِذَا سَقَطَ الثَّلُجُ فِي الصَّحَارَى صَارَ كُلُّهُ
طَبَقًا وَاحِدًا، إِلَّا مَا كَانَ مَقَابِلًا لِأَفْوَاهِ جِحْرَةِ الْوَحْشِ وَالْحَشْرَاتِ؛
فَإِنَّ الثَّلُجَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ يَنْحَسِرُ وَيَرْقُّ لِأَنْفَاسِهَا مِنْ أَفْوَاهِهَا
وَمَتَاخِرِهَا وَوَهَجَ أَبْدَانِهَا، فَالْكَلابُ فِي تِلْكَ الْحَالِ يَعْتَادُهَا
الْإِسْتِرْوَاحَ حَتَّى تَقْفَ بِالْكَلابِينَ عَلَى رُؤُوسِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَنْبِتُ

الإجرِدَّ والقَصِيص، وهي التربة التي تُنبِتُ الكَمَّاءَ وترَبِّبُها.
تعرّف مواضع الكمّاء وربما كانت الواحدة كالزُّمانة الفخمة، ثم
تتخلّق من غير بزر، وليس لها عرقٌ تمصُّ به من قُوى تلك
الأرض، ولكنها قوى اجتمعت من طريق الاستحالات، كما ينطبخُ
في أعماق الأرض، من جميع الجواهر وليس لها بدٌّ من تربةٍ ذلك
من جوهرها، ولا بدٌّ لها من وسميٍّ، فإذا صار جانِبها إلى تلك
المواضع - ولا سيما إن كان اليومُ يوماً لِشمسهِ وَقَعُ - فإنه إذا
أبصر الإجرِدَّ والقَصِيص استدلَّ على مواضعها بانتفاخ الأرض
وانصداعها.

وإذا نظر الأعرابيُّ إلى موضع الانتفاخ يتصدّعُ في مكانه فكان
تفتُّحه في الحالات مستويًا، علم أنّه كمّاء؛ وإن خلطَ في الحركة
والتصدّع علم أنّه دابّة، فاتّقى مكائِها.

نوادِرَ وأشعارَ وأحاديث

قال الشّاعر:

وعصيتِ أمرَ ذوي النُّهى وأطعتِ رأيَ ذوي الجِهالِ
فاحتلتُ حينَ صرمتيني والمرءُ يعجزُ لا المَحالِ
والعبدُ يقرعُ بالعصا تكفيه المقالة

وقال بشار:

وصاحب كالدُّمْل المُمِذِّ حَمَلْتُهُ فِي رُفْعَةٍ مِنْ جِلْدِي
يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمَلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

وقال خليفة الأقطع:

تكفيه الملامه

يُفْرَعُ بِالْعَصَا

القول في العُزْجان

قال رجلٌ من بني عَجَل:

بِي وَاشٍ عِنْدَ لَيْلَى فَقَالَتْ لَهُ لَيْلَى مَقَالَةَ ذِي
سَفَاهَةٍ عَقْلٍ
وخبَّرَهَا أَنِّي عَرَجْتُ فَم تَكُونُ هَاءَ تَجْتَرُّ الْمَلَامَةَ لِلْبَعْلِ
بِي مِنْ عَيْبِ الْفَتَى عَيَّرَعَلْتُ الْعَصَا رِجْلًا أَقِيمُ بِهَا

وقال أبو حَيَّةَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ:

جَعَلْتُ إِذْ مَا فُمتُ ظَهْرِي فَقُمتُ قِيَامَ الشَّارِبِ
يُوجِعُنِي السُّكْرُ
أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ فَصُرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنْ
مُعْتَدِلًا الشَّجَرِ

وقال أعرابيٌّ من بني تَمِيم:

بِي مِنْ عَيْبِ الْفَتَى عَيَّرَ قِنَاتِي حِينَ أَوْجَعَنِي
ظَهْرِي

وكان بنو الحَدَّاءِ عُرْجانًا كُلِّهِمْ، فَهَجَّاهُمْ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ:

دُرُّ بَنِي الْحَدَّاءِ مِنْ نَقْرِ جَارٍ عَلَى جِيرَانِهِ كَلِيبُ
عَدَّوًا وَعَصِيُّ الطَّلْحِ تُتَّصَّبُ وَسَطُ الْبَيْعَةِ
أَرْجُلُهُمُ الصُّلْبُ

وإنَّما شَبِهَ أَرْجُلَهُمْ بَعْصِيَّ الطَّلْحِ؛ لِأَنَّ أَغْصَانَ الطَّلْحِ تُتَّصَّبُ مَعْوَجَّةً، لِذَلِكَ قَالَ مَعْدَانِ الْأَعْمَى:

والذي طَفَّفَ الْجِدَارَ مِنَ الدُّعِ بَاتَ قَاسِمَ الْأَنْفَالِ
خَامِعًا بِأَيْدِي هَشِيوِيسَاقٍ كَعُودِ طَلْحٍ بِالِ

وله حَدِيثٌ.

عصا الحكم بن عبدل

وكان الحكم بن عبدل أعرج، وكان بعد هجائه لمحمد بن
حسان بن سعد لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ
عليها حاجته إلا قضاها كيف كانت، فدخل على عبد الحميد بن
عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أمير الكوفة، وكان
أعرج، وكان صاحبُ شرطته أعرج فقال ابن عَبْدَل:

العَصَا وَدَعِ التَّعَارَجَ فهذي دَوْلَةُ العُرجَانِ
والتَّمِيسُ فأميرنا وأميرُ شُرطِيتنا مَعْفُومنا لكليهما رِجلان
يكونُ أميرنا ووزيرُه فإنَّ الرَّابِعَ الشَّيطَانُ
وقال آخر ووصف صَعْفَه وَكَبِرَ سَنَّهُ:

الندِيَّ فلا يُقَرَّبُ مجلسي للشَّرَفِ الرفيع حماريا

عرجان الشعراء

وكان من العُرجان والشعراء أبو ثعلب، وهو كليب بن أبي الغول، ومنهم أبو مالك الأعرج،
وفي أحدهما يقول البيهقي:

ثعلبٍ للناطفيِّ مؤازِرُ خبثه والناطفيُّ غيورُ
وبالْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ رِفَّةٌ حافِوِصاحِبُنَا ماضي الجَنانِ جَسورُ
عَرَوَ أنْ كانَ الأَعيرُجُ آرَهَا النَّاسُ إلاَّ آيِرُ وَمَنيرُ

البدء والتَّنيان

وقال الشاعر:

ثَنَانًا إِذَا مَا جَاءَ بَدَأَهُمْ بَدُوهُمْ إِنْ أَتَانَا كَانَ تُنْيَانًا

فالباء أضخم السَّادات؛ يقال ثَنَى وثنيان، وهو اسم واحد، وهو تأويل قول الشاعر:

الشَّاعِرُ التُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ هِجَانَ

لم يمدح نفسه بأن لا يغلب الفحل وإنما يغلب التُّنْيَانَ، وإنما أراد أن يصغَّرَ بالذي هَجَّاهُ، بأنه

ثنيان، وإن كان عند نفسه فحلاً وأما قول الشاعر:

يَفْخَرُ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانٍ

فالمعنى ثانٍ عنانه.

أحاديث من أعاجيب المماليك

- أتيتُ باب السَّعدانيِّ، فإذا غلامٌ له مليحٌ بالباب كان يُبِعُ دابَّتَه،

فقلت له: قلِّ لمولاك، إن شئت بكَرت إليَّ، وإن شئت بكَرتُ

إليك، قال: أنا ليس أكلم مولاي - ومعني أبو القنافذ - فقال أبو

القنافذ: ما نحتاج مع هذا الخُبْرِ إلى معايِنَةٍ.

وقال أبو البصير المنجِّم، وهو عند قثم بن جعفر، لغلام له مليحٌ

صَغِيرِ السِّنِّ: ما حَبَسَكَ يا حَلْقِي؟ والحَلْقِيُّ: المَخْنَثُ - ثمَّ قال:

أما والله لئن قمْتُ إليك يا حَلْقِي لَتَعْلَمَنَّ فلما أكثر عليه من هذا

الكلام بكى و قال: أدعو الله على مَنْ جعلني حَلْقِيًّا.

حدَّثني الحسن بنُ المرزبانٍ قال: كنتُ مع أصحابٍ لنا، إذ أتينا

بغلامٍ سنديٍّ يُباع، فقلتُ له: اشتريك يا غلام؟ فقال: حتَّى أسألَ

عَنْكَ قَالَ الْمَكِّيُّ: وَأُتِيَ الْمَثْنَى بْنَ بِشْرِ بْنِ سِنْدِيٍّ لِيَشْتَرِيَهُ عَلَى أَنَّهُ
طَبَّاحٌ، فَقَالَ لَهُ الْمَثْنَى: كَمْ تَحْسُنُ يَا غَلَامُ مِنْ لَوْنٍ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ؛
فَأَعَادَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا غَلَامُ كَمْ تَحْسُنُ مِنْ لَوْنٍ؟ فَكَلَّمَ غَيْرَهُ
وَتَرَكَهُ؛ فَقَالَ الْمَثْنَى فِي الثَّلَاثَةِ: مَا لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ؟ يَا غَلَامُ، كَمْ
تَحْسُنُ مِنْ لَوْنٍ؟ فَقَالَ السَّنْدِيُّ: كَمْ تَحْسُنُ مِنْ لَوْنٍ كَمْ تَحْسُنُ
مِنْ لَوْنٍ وَأَنْتَ لَا تَحْسُنُ مَا يَكْفِيكَ أَنْتَ؟ قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ: ثُمَّ
قَالَ الْمَثْنَى لِلدَّلَّالِ: امْضِ بِهَذَا، عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ.

وَحَدَّثَنِي ثَمَامَةُ قَالَ: جَاءَنَا رَجُلٌ بِغَلَامٍ سِنْدِيٍّ يَزْعُمُ أَنَّهُ طَبَّاحٌ
حَازِقٌ، فَاشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ، فَلَمَّا أَمَرْتُ لَهُ بِالْمَالِ قَالَ الرَّجُلُ: إِنَّهُ قَدْ
غَابَ عَنَّا غَيْبَةً، فَإِنْ اشْتَرَيْتَهُ عَلَيَّ هَذَا الشَّرْطَ، وَإِلَّا فَاتْرُكْهُ،
فَقُلْتُ لِلسَّنْدِيِّ: أَكُنْتَ أَبْقَيْتَ قَطًّا قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبْقَيْتُ قَطًّا فَقُلْتُ:
أَنْتَ الْآنَ قَدْ جَمَعْتَ مَعَ الْإِبَاقِ الْكُذْبَ قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ:
لَأَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكْذِبَ فِيهِ الْبَائِعُ، قَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ
تَعَالَى فِدَاءَكَ أَنَا وَاللَّهِ أَخْبَرَكَ عَن قِصَّتِي: كُنْتُ أَذْتَبْتُ ذَنْبًا كَمَا
يُذْنِبُ هَذَا وَهَذَا، جَمِيعُ غُلَامَانِ النَّاسِ فَحَلَفَ بِكُلِّ يَمِينٍ لِيَضْرِبَنِي
أَرْبَعِمِائَةَ سَوْطٍ، فَكُنْتُ تَرَى لِي أَنْ أَقِيمَ؟ قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ قَالَ:
فَهَذَا الْآنَ إِبَاقٌ؟ قُلْتُ لَا، قَالَ: فَاشْتَرَيْتَهُ فَإِذَا هُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ

حَبْرًا وَأَطْيَبُهُمْ طَبْخًا.

وخبَّرني رجلٌ قال: قال رجلٌ لِفِلامٍ له ذاتٌ يومٍ: يا فاجرٍ قال:
جعلني اللهُ فِداكِ، مولى القومِ منهم.

وزعم روح بن الطائفية - وكان رُوْحُ عَبْدًا لِأختِ أَنَسِ بنِ أَبِي
شيخ، وكانت قد فَوَّضت إليه كلَّ شيءٍ من أمرها - قال: دخلت
السُّوقَ أريدُ شراءَ غلامٍ طَبَّاحٍ، فبينما أنا واقفٌ إذ جيءَ بِفِلامٍ
يُعَرِّضُ بعشرةِ دنانيرٍ، ويساوي على حُسْنِ وجهه وجودةِ قَدِّه،
وحدائةِ سنِّه، دونَ صناعته - مائةِ دينارٍ، فلَمَّا رأيتُه لم أتمالكُ أنْ
دنوتُ منه فقلت: ويحكُ أقلُّ ثَمينكُ على وجهك مائةُ دينارٍ، واللهُ
ما يبيِّعُك مولاك بعشرةِ دنانيرٍ إلاَّ وأنتُ شرُّ الناسِ فقال: أمَّا لهم
فأنا شرُّ الناسِ، وأمَّا لغيرهم فأنا أساوي مائةً ومائةً، قال:
فقلت: التزيُّنُ بِجمالِ هذا وطيبِ طَبْخِه يوماً واحداً عند أصحابي
خيرٌ من عشرةِ دنانيرٍ، فابتعته ومضيتُ به إلى المنزلِ، فرأيتُ
من حذقه وخدمته، وَقَلَّةِ تزيُّده ما إنْ بعنُّه إلى الصيرِّفي ليأتيني
من قبَله بعشرين ديناراً، فأخذها ومضى على وجهه فوالله ما
شعرتُ إلاَّ والنَّاشدُ قد جاءني وهو يطلبُ جُعْله، فقلت: لهذا
وشبَّهه باعك القومُ بعشرةِ دنانيرٍ قال: لولا أنَّي أعلمُ أنَّك لا

تصدّق يميني و كيف طرّرت الدنانير من ثوبي، ولكنتي أقول لك
واحدة: احتبسني واحترس مني، واستمتع بخدمتي، واحتسب
أنك كنت اشتريتني بثلاثين ديناراً، قال: فاحتبسته لهواي فيه،
وقلت لعلّه أن يكون صادقاً، ثم رأيت والله من صلاحه وإنابته
وحسن خدمته ما دعاني إلى نسيان جميع قصّته، حتى دفعته
إليه يوماً ثلاثين ديناراً ليوصلها إلى أهلي، فلما صارت إلى يده
ذهب على وجهه، فلم ألبث إلا أياماً حتى ردّه الناشد، فقلت له:
زعمت أن الدنانير الأولى طرّرت منك، فما قولك في هذه
الثانية؟ قال: أنا، والله أعلم أنك لا تقبل لي عُذراً، فدعني خارج
الدار، ولا تجاوز بي خدمة المطبخ؛ ولو كان الصّرب يرد عليك
شيئاً من مالك لأشرت عليك به، ولكن قد ذهب مالك، والصّرب
ينقص من أجرك؛ ولعلي أيضاً أموث تحت الصّرب فتندم وتأثم
وتفتضح ويطلبك السلطان، ولكن اقتصر بي على المطبخ فأني
سأسرك فيه، وأوفره عليك، وأستجيد ما أشتريه وأستصلحه لك،
وعدّ أنك اشتريتني بستين ديناراً فقلت له: أنت لا تفلح بعد هذا
إذهب فانت حرّ لوجه الله تعالى فقال لي: أنت عبد فكيف يجوز
عتقك، قلت فأبيعك بما عرّ أو هان فقال: لا تبغني حتى تُعدّ

طَبَّاحًا، فَإِنَّكَ إِن بَعْتَنِي لَمْ تَتَّعِدْ غِذَاءً إِلَّا بِخَبْزٍ وَبِاقِلَاءٍ، قَالَ:
فَتَرَكْتَهُ وَمَرَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَيَّامٌ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ يَوْمًا إِذْ مَرَّتْ عَلَيَّ
شَاةٌ لَبُونٌ كَرِيمَةٌ، غَزِيرَةٌ الدَّرُّ كُنَّا فَرَّقْنَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَنَاقِهَا
فَأَكْثَرْتُ فِي التُّغَاءِ، فَقُلْتُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ، وَكَمَا يَقُولُ الصُّجْرُ:
اللَّهُمَّ الْعَنْ هَذِهِ الشَّاةَ لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِنْسَانًا ذَبَحَهَا أَوْ سَرَقَهَا،
حَتَّى نَسْتَرِيحَ مِنْ صِيَاحِهَا قَالَ: فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا بِقَدْرٍ مَا غَابَ عَن
عَيْنِي، ثُمَّ عَادَ فَإِذَا فِي يَدِهِ سِكِّينٌ وَسَاطُورٌ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ الْعَمَلُ،
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: هَذَا اللَّحْمُ مَا نَصَنَعُ بِهِ وَأَيُّ شَيْءٍ تَأْمُرَنِي بِهِ؟
فَقُلْتُ: وَأَيُّ لَحْمٍ؟ قَالَ: لَحْمُ هَذِهِ الشَّاةِ، قُلْتُ: وَأَيُّمَا شَاةٍ؟ قَالَ:
الَّتِي أَمَرْتُ بِذَبْحِهَا، قُلْتُ: وَأَيُّ شَاةٍ أَمَرْتُ بِذَبْحِهَا؟ قَالَ: سَبْحَانَ
اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قُلْتُ السَّاعَةَ: لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَعَثَ إِلَيْهَا مِنْ
يَذْبَحُهَا أَوْ يَسْرِقُهَا، فَلَمَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ تَعَالَى سَوْلكَ صَرْتَ تَتَجَاهَلُ
قَالَ رُوحٌ: فَبِقِيَّتِ وَاللَّهِ لَا أَقْدُرُ عَلَى حَبْسِهِ وَلَا عَلَى بَيْعِهِ وَلَا عَلَى
عِتْقِهِ.

أَشْعَارُ حِسَانٍ

وقال مسكينُ الدَّارميُّ:

أَبَانَا يَكْرُ آدَمَ فَاعْلَمُوا وَطَوَّاءَ قَزْمُ ذُو عِثَانِينَ شَارِفِ
عَلَى خُرطومه متها فبتاً الفُطْن هاجته الأكَفُّ
النوادفُ
وَلِلصَّدَا الْمُسَوِّدُ أَطِيبُ الْمِسْكَ دافته الأكَفُّ
عندنا الدوائفُ
وَيَصْبِحُ عِرْفَانِ الدُّرُوعِ جِلْدِنَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلَمٌ اللَّوْنِ
كاسفُ

في مثل السَّواري بينها والكعب مِنَّا تنائفُ
سُيوفنا
رُدَيْنِي كَأَنَّ كُعُوبَهُ سَابِقُ مُسْتَوْرِدُ الْمَاءِ
صائفُ
هَلَا لَاحَ فَوْقَ قَنَاتِهِ الْعَيْمَ عَنْهُ وَالْقَتَامَ
الْحَرَا جِفُ

مثلُ خُلُقِ النَّعَامَةِ حَلِيَّةُ الْقِدَامِي ساقها
متناصفُ
وقال أيضاً مِسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

الفاحش لاقى فاحشاً فهاكُمُ وَاقَقَ الشَّنُّ الطَّبَقُ
الفُحْشُ وَمَنْ يَعْتَادُ هُغْرَابَ الْبَيْنِ مَا شَاءَ نَعَقُ
حَمَارِ السَّوِّءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ تَهَقُ
عُلَامِ السَّوِّءِ إِنْ جَوَّعْتَهُ الْجَارَ وَإِنْ يَشْبَعُ فَسَقُ
وقال ابن قيس الرقيات:

القوم من قُرَيْشٍ إِذَا مَلَّ الْجَهْلُ مَعْشَرَ آخِرُونَا
يُؤْمُونُ فِي الْعَشِيرَةِ بِالسُّوِّ يُفْسِدُونَ مَا يَصْنَعُونَا
وقال ابن قيس أيضاً، واسمه عبد الله:

كَانَ حَوْلِي بَنُو أُمِّيَّةٍ لَمْ رَجَالٌ إِذَا هُمْ تَطِيقُوا
جَلَسُوا لَمْ تَضِقْ مَجَالِسُهُمْ كَبُوا ضَاقَ عَنْهُمْ الْأَفْقُ
فِيهِمْ مِنْ قَتَى أَخِي ثَقَّةٍ مَنَكِبِيهِ الْقَمِيصُ مَنْخِرِقُ
تَحُبُّهُمْ عُوذُ النِّسَاءِ إِذَا أَحْمَرَ تَحْتَ الْقَوَانِسِ الْحَدَقُ
الْكَلْبُ أَهْلَهُ وَرَأَى الشَّرَّ الْمَرْوَعِ الْقَرِقُ

وقال النابغة:

سَهْكِينَ مِنْ صَدَاِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ السَّنَوْرُ جِنَّةُ الْبَقَّارِ

وقال بشار بن برد:

يَطِيَّبُ رِيحُ الْخَيْرِزَانَةِ بَيْنَهُمْ أَتُّهَا رِيحُ الدِّمَاءِ تَصُوعُ
سنقول في الشهب وفي استراق السمع وإنما تركنا جمعه

في مكان واحد، لأن ذلك كان يطولُ على القارئ، ولو قد قرأ

فُضِّلَ الْإِنْسَانَ عَلَى الْجَانِّ، وَالْحَجَّةَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْجَانَّ - لم

يستثقله، لأنه حينئذٍ يقصد إليه على أنه مقصودٌ على هذا

الباب، فإذا أدخلناه في باب القول في صغار الوحش،

وَالسَّبَّاعِ، وَالْهَمَجِ، وَالْحَشْرَاتِ، فإذا ابتداء القراءة على ذلك

استطال كلُّ قصير إذا كان من غير هذا المعنى.

قالوا: زعمتم أن الله تعالى قال: "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ"، وقال تعالى: "وَحَفِظْنَاَهَا

مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ"، وقال تعالى: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

لِلشَّيَاطِينِ" ونحن لم نجد قطُّ كوكباً خلا مكانه، فما ينبغي أن

يكون واحداً من جميع هذا الخلق، من سكان الصحارى،

وَالْبَحَارِ، وَمَنْ يَرَاعِي النُّجُومَ لِلْإِهْتِدَاءِ، أَوْ يَفَكِّرُ فِي خَلْقِ

السَّمَوَاتِ أَنْ يَكُونَ يَرَى كَوْكَبًا وَاحِدًا زَائِلًا، مع قوله: "وَجَعَلْنَاَهَا

رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ".

قيل لهم: قد يحرك الإنسان يده أو حاجبه أو إصبعه، فتضاف تلك الحركة إلى كفه، فلا يشكُّون أنَّ الكَلَّ هو العاملُ لتلك الحركة، ومتى فصل شهابٌ من كوكب، فأحرق وأضاء في جميع البلاد، فقد حكَّم كلُّ إنسانٍ بإضافة ذلك الإحراق إلى الكوكب، وهذا جواب قريبٌ سهل، والحمد لله.

ولم يقل أحد: إنَّه يجبُ في قوله: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ" أنَّه يَعْنِي الجميع، فإذا كان قد صحَّ أنَّه إنَّما عَنِ البعض فقد عَنِ نُجُومِ المَجْرَّةِ، والنجوم التي تظهر في ليالي الحنادس؛ لأنَّه محال أن تقع عينٌ على ذلك الكوكب بعينه في وقت زواله حتَّى يكون الله عزَّ وجلَّ لو أفنى ذلك الكوكب من بين جميع الكواكب الملتقَّة، لعرف هذا المتأمِّلُ مكانه، ولو جَدَّ مَسَّ فقده، ومن ظنَّ بجهله أنَّه يستطيع الإحاطة بعدد النُّجوم فإنه متى تأمَّلها في الحنادس، وتأمَّل المَجْرَّة وما حولها، لم يضرب المثل في كثرة العدد إلَّا بها، دون الرَّمْل والتُّراب وقطُر السَّحاب.

وقال بعضهم: يدنو الشَّهاب قريباً، ونراه يجيء عَرَضاً لا

مُنْقِضاً ولو كان الكوكب هو الذي ينقضُّ لم يُر كالخيط الدقيق،
ولأضاء جميع الدُّنيا، ولأحرق كلَّ شيء مما على وجه الأرض،
قيل له: قد تكون الكواكب أفقيّة ولا تكونُ علوية؛ فإذا كانت
كذلك فصل الشّهَابُ منها عَرَضاً، وكذلك قال الله تعالى: "إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" وقال الله عزَّ وجلَّ:
"أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ" فليس لكم أن تقضوا بأنَّ المباشر
لبَدَن الشيطان هو الكوكب حتى لا يكون غير ذلك، وأنتم
تسمعونَ الله تعالى يقول: "فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" والشّهَابُ
معروفٌ في اللغة، وإذا لم يُوجِبْ عليها ظاهر لفظ القرآن لم
ينكر أن يكون الشّهَابُ كالخطِّ أو كالسهم لا يضيءُ إلا بمقدار،
ولا يقوى على إحراق هذا العالم، وهذا قريبٌ والحمد لله.
وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال: زعمتم أن الله تبارك
وتعالى قال: "وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى
الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ" وقال على سَنَنِ الكلام: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ
شِهَابٌ ثَاقِبٌ" قال: فكيف تكون الخطفة من المكان الممنوع؟
قيل له: ليس بممنوعٍ من الخطفة، إذ كان لا محالة مرمياً

بالشَّهاب، ومَقْتُولاً، على أَنَّهُ لو كان سَلِمَ بِالخَطْفَةِ لما كان
استفاد شيئاً للتكاذيب والرِّيَاسَةِ، وليس كُلُّ من كذب على الله
وَادَّعى النبوَّةَ كان على الله تعالى أَن يُظهر تكذيبه، بِأَن
يخسِفَ به الأَرْضَ، أو ينطقَ بتكذيبه في تلك السَّاعة، وإذا
وجبَت في العُقُولِ السَّليمة أَلَّا يصدق في الأخبار لم يكن معه
بُرهان، فكفى بذلك.

ولو كان ذلك لكانَ جائزاً، ولكنَّه ليس بالواجب، وعلى أَنَّ ناساً
من النحويِّين لم يُدخلوا قوله تعالى: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ"،
في الاستثناء، وقال: إنَّما هو كقوله:

كخارجة المكلِّفِ نفسَه قبيصة أن أغيبَ وبشَّهدا
وقوله أيضاً:

كناشرة الذي كَلَّفْتُمْ كَالْعُصْنِ في غلوائه المَتَنَّبِتِ
وقال الشاعر في باب آخر ممَّا يكونُ موعظةً له من الفكر والاعتبار، فمن ذلك قوله:

يَكُن رَيْبُ المُنُونِ قَمَرِ اللَّيْلِ المَعْدَّرِ
فإنني كالفتى
صغيراً ثُمَّ يعظُمُ ويرجعُ حتَّى قيلَ قد مات
وانقضى
زَيْدُ المرءِ ثُمَّ وتكراره في إثره بعد ما
انتقاصُه مصى

وقال آخر:

ومستنبتٍ لا بالليالي نَبأُته إن تلاقي ما به الشَّفَتانِ
في خمسٍ وتسعٍ تموِّجُهْدِ في سَبْعِ معاً وثمانِ

الأوّل الطّريق والثاني القمر.

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

وقال أبو العتاهية:

في نقضِ امرئٍ تمامه

وقال عبدُ هند:

السّنان يركبُ المرءُ العارِ أو يعدُّو على الأسد

الذي ينهاكم عن نساء الحيّ في طرّة
طليها

والأيامُ تنقص عمره تنقصُ النيرانُ من طرف

وفي أمثال العرب: كلُّ ما أقامَ شَخَص، وكلُّ ما ازداد نقص؛ ولو كان يُميثُ النَّاس الدّاء،
لأعاشهم الدّواء.

وقال حميد بن ثور:

بَصْرِي قَدْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وقال النّمر بنُ تَوَلب:

الفتى طولَ السّلامِ فكيفَ ترى طولَ السّلامِ

أخبار في المرض والموت

وقيل للمؤبذ: متى أبنك يعني أبنك قال: يوم ولد.

وقال الشّاعر:

تصرّفتُ أطواراً أرى كلَّ عبّرة الصّبا منّي جديداً فأخلقا
زادَ شيءٌ قطاً إلا لنقصه اجتمع الإلفان إلا تفرّقا

وقيل لأعرابي في مرضه الذي مات فيه: أيّ شيءٍ تشتهي؟
قال: تمام العِدَّة وانقضاء المدَّة. وقيل لأعرابي، في شكّاته التي
مات فيها: كيف تجدك؟ قال: أجدني أجدُّ ما لا أشتهي، وأشتهي
ما لا أجد.

وقيل لعمرو بن العاص في مَرَضَتِهِ التي مات فيها: كيف تجدك؟
قال: أجدني أذوب ولا أثوب، وقال مَعْمَرُ: قلتُ لرجلٍ كان معي
في الحبس، وكان مات بالبطن: كيف تجدك؟ قال: أجدُّ رُوحِي
قد خَرَجَتْ من نصفي الأسفل، وأجد السَّمَاءَ، مُطْبِقَةً عَلَيَّ، ولو
شئتُ أن أمسّها بيدي لفعلت، ومهما شككتُ فيه فلا أشكُّ أن
الموت بَرْدٌ ويُبس، وأنّ الحياةَ حرارة ورطوبة.

شعر في الرثاء

وقال يعقوبُ بن الرِّبيع في مرثية جاريةٍ كانت له:

إِذَا فَتَرَ اللِّسَانُ وَأَصْبَحَتِ
لِلْمَيُوتِ قَدْ ذَبَلَتْ دُبُولُ
الترجسِ
اليقين مطامعي يأساً
اليقين مطامع المتلمس

وقال يعقوبُ بن الرِّبيع:

كَانَ قُرْبِكَ لِي نَافِعًا لَبْعُدُكَ قَدْ كَانَ لِي أَنفَعًا
أَمِنْتُ رَزَايَا الدُّهُورِ جَلَّ خَطْبُ فُلَانٍ أَجْزَعًا

وقال أبو العتاهية:

وكانت في حياتك لي عِظَاتُ اليوم أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا
وقال التيمي:

عَرَى رِبِيعةً أَنْ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ
عَجِبَ قِصْدَنَ لَهُ الْمَنَايا عَمِدٍ وَهَنَّ لَهُ جُنُودُ
وقال صالح بن عبد القدوس:

يَكُنْ مَا أَصَبْتَ فِيهِ جَلِيلاً ذَهَابَ الْعِزَاءِ فِيهِ أَجَلُ
ونظر بعض الحكماء إلى جنازة الإسكندر، فقال: إِنَّ الإسكندرَ كان أَمْسِي أَنْطَقَ مِنْهُ الْيَوْمَ،
وهو الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْهُ أَمْسِي.
وقال غسان:

مِثِّي الرَّأْسُ بَعْدَ سِوَايِهِ الْمَشِيْبُ حَلِيْلَتِي لِبَعَادِ
وَاسْتَنْفِدِ الْقَرْنَ الَّذِي أَنَا مِنْهُمْ بِذَلِكَ عِلْمَةٌ لِحِصَادِي
وقال أعرابي:

الرِّجَالُ وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا ضَظْرِبَتْ مِنْ كِبَرِ أَعْضَادِهَا
وَجَعَلَتْ أَسْقَامُهَا تَعْتَادُهَا زُرُوعٌ قَدْ دَنَا حِصَادُهَا
وقال صيرار بن عمرو: مَنْ سَرَّهَ بَنُوهُ سَاءَتْهُ نَفْسُهُ.
وقال عبد الرحمن بن أبي بكره، مَنْ أَحَبَّ طُورَ الْعُمَرِ فَلْيُوطِنَنَّ نَفْسَهُ عَلَى الْمِصَائِبِ.
وقال أخو ذي الرُّمَّة:

يُنْسِنِي أَوْفَى الْمِلِمَاتِ تَكْدَاءَ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ

بعض المجون

وقال بعض المُجَّان:

دُيَانَا بَتَمْرِيْقِ دِيْنَا دِيْنُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نَرَقُّعُ
وسئل بعضُ المُجَّان: كَيْفَ أَنْتَ فِي دِيْنِكَ؟ قَالَ: أَخَرَّقَهُ بِالْمَعَاصِي، وَأَرْقَعَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ.
شعر في معنى الموت وأنشدوا لَعْرُوةَ بنِ أُذَيْنَةَ:

إِذَا الْجَنَائِرُ قَابِلَتْنَا وَيَحْزُنُنَا بُكَاءُ الْبَاكِيَاتِ
كَرَّوْعَةٍ تَلَّةٍ لِمَغَارِ سَبْعِ غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتِ

وقال أبو العنابه:

رَأَيْتُمْ مَيِّتِينَ جَزَعْتُمْ لَمْ تَرَوْا مَلْتَمَ إِلَى صَبَوَاتِهَا

وقالت الخنساء:

مَا عَقَلْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتُ هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

وكان الحسن لا يتمثل إلا بهذين البيتين، وهما:

الفتى ما كان قدّم من عَرَفَ الدَّاءَ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ

والبيت الآخر:

مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتِ الْمَيِّتِ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

وكان صالح المريّ يتمثل في قصصه بقوله:

يُرْوَى أُصُولَ الْفَسِيحِ عَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلُ

وكان أبو عبد الحميد المكفوف، يتمثل في قصصه بقوله:

رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِ الْحَوَادِثُ قَدْ يَطْرُقُنِ
أَسْحَارًا

ونظر بكر بن عبد الله المزني إلى مؤرّق العجليّ، فقال:

الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ وَتَنْجَلِي عَنْهُمْ غِيَابَاتِ الْكَرَى
السُّرَى

وقال أبو النجم:

يَأْمُلُ مَدًّا فِي الْأَجْلِ وَالْمَنَايَا هِيَ آفَاتُ الْأَمْلِ

فأمّا أبو النجم فإنه ذهب في الموت مذهب زهير حيث يقول:

الفتى يُصْبِحُ لِلْأَسْقَامِ كَالْغَرَضِ الْمُنْصُوبِ لِلْسَّهَامِ
أَخْطَاهُ رَامٍ وَأَصَابَ رَامٍ

وقال زهير:

الْمَنَايَا حَبِطَ عَشْوَاءُ تُمَثِّهَوْنَ تَخْطَى يُعَمَّرُ
فِيهِرَمِ

مقطعات شتى وقال الآخر:

صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَمْتَهَا لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمَكْدَرٍ

تباغُ كريمةٌ أو تُشترَفُ سواكُ بائعُها وأنت المُشترِي

وقال الشاعر:

مَعْرَدًا يَدِ السَّرْبَالِ يَمْشِي
قَرِيشٍ فِي قَرِيشٍ مُرَكَّبًا

وقال الآخر:

إِلَى الْعِرَاقِ وَرَافِدَيْهِ فَرَارِيًّا أَحَدًا يَدِ الْقَمِيصِ
تَفِيهَقُ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمَثِيِّ قَوْمَهُ أَكَلَ الْخَبِيصِ

وقال الآخر:

رَجَعُهَا إِلَيَّ يَدَيْهَا دَرَعِيهَا تَحُلُّ الْإِرَارَا

وأنشد:

غَافِلٌ الْمَنَايَا وَهُوَ عَنْهِنَّ
بِمَنْخَرِقِ السَّرْبَالِ عَارِي الْمَنَاكِبِ
جَرِيٌّ عَلَى الْأَهْوَالِ يَغْدِلُ بِأَبْيَضِ سَقَاطِ وَرَاءِ الصَّرَائِبِ

وقال جرير:

لَكُمْ بِالشَّامِ حَبْلٌ الْقُوَى مُسْتَحْصِدِ الْفَقْلِ
جَمَاعَةٌ وَجَدْتُ رُقى الشَّيْطَانِ لَا
تَسْتَفْرَهُ كَانِ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنَّ

وقال الأسدي:

المَنَاقِبِ وَالْمَكْرَمَاتِ مَجْدًا وَأَصْلًا أَثِيلاً
بِيَدِيهِ وَرَاءَ الْكَمِيِّ بَعْدَ نَصَالِ نَصُولَا
السَّفَاهِ وَرَأَى الْخَنَا وَقَدْ كَانَ قِدْمًا صَلُولَا
أَنْتَ تَنْزِعُ عَنَّا إِنْ وَجَدْتَ لِقَلْبِي مَحِيلَا